Damascus University

المقالة العربية

بداياتها - تعريفها - أنواعها - نماذج منها

السنة الرابعة

قسم الترجمة

الجمهورية العربية السورية
منشـــورات جامعـــة دمشـــق
مركـــز التعلـــيم المفـــتوح
قسم الترجمة

المقالة العربية

بداياتها - تعريفها - أنواعها - نماذج منها

تأليف

الأستاذ الدكتور
شوقي المعري

الأستاذ الدكتور
وائل بركات

جامعة دمشق

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
الباب الأول	١٣-٥٨
الفصل الأول	١٥
بدايات المقالة	١٧
نشأتها	١٩
تعريفها	٢٤
أنواعها	٢٥
الفصل الثاني: القارئ والكاتب	٣٣
الباب الثاني	٥٩-١٨٢
الفصل الأول: نماذج من المقالة الذاتية	٦٣
١- المقالة الساخرة: حلاق القرية ـــ إبراهيم عبد القادر المازني	٦٥
٢- مقالة النقد الاجتماعي: «إحياء البنات» ـــ وداد سكاكيني	٧٣
٣- المقالة الوصفية: «الأدب والمجتمع» ـــ عمر فاخوري	٨٣
٤- مقالة السيرة: «النشأة والتربية وطلب العلم» ـــ الشيخ محمد عبده	٩٥
٥- المقالة التأملية: «آثار الجمال وجمال الآثار» ـــ أحمد لطفي السيد	١٠٧
الفصل الثاني: نماذج من المقالة الموضوعية	١١٧

١ – المقالة النقدية: «مصير اللغة العربية في المهجر الأمريكي» ــ سامي الكيالي ١١٩
٢ – المقالة الفلسفية: «سحر وتنجيم» ــ زكي نجيب محمود ١٢٩
٣ – المقالة التاريخية: «قاسم أمين» ــ جرجي زيدان ١٤١
٤ – المقالة العلمية: «عود الكبريت» ــ أحمد زكي ١٥٩
٥ – المقالة السياسية: «كلمات حزينة» ــ نجاح العطار ١٧١
الباب الثالث ١٨٣-٢٣٣
الفصل الأول: الدراسة التحليلية للمقالة..... ١٨٥
الفصل الثاني: نماذج للتحليل الأدبي ٢١٥
١ – النموذج الأول: «الأسلوب الإفرنجي» ــ عباس محمود العقاد ٢١٧
٢ – النموذج الثاني: «جمال الشرق» ــ مي زيادة ٢١٩
٣ – النموذج الثالث: «الخريف في الريف» ــ أحمد الزيات ٢٢١
٤ – النموذج الرابع: «أين الفضيلة» ــ مصطفى لطفي المنفلوطي ٢٢٣
٥ – النموذج الخامس: «عين القبو» ــ لبيبة هاشم ٢٢٥
٦ – النموذج السادس: «النمل» ــ كامل الكيلاني ٢٢٧
٧ – النموذج السابع: «فن الإعلان» ــ عبد العزيز البشري ٢٣٠

مقدمة ...

تُعد المقالة من أهم الفنون النثرية في الأدب العربي، لأن كل إنسان يقرأ المقالة في الموضوع الذي يهمّه أو يختصّ به، ولكن ليس كل واحد منّا يقرأ القصة أو الرواية، أو المسرحية، وهذا ناتج عن التنوُّع الذي تُكتب فيه المقالة، ولا شك في أن هذا النوع من الأدب فن لأن فيه المقومات الحقيقية الذي يُبنى عليها.

إن فن المقالة فن قديم لا حديث، إذ تعود أصوله أو بداياته إلى العصر الإسلامي، ثم تدرَّج في العصور اللاحقة حتى اكتمل واستوى في القرن التاسع عشر الميلادي لمّا صار له كُتّابٌ مشهورون، وصحفٌ ومجلاتٌ تُنشر فيها المقالات، وكان لهذه الصحف والمجلات دورٌ كبير في نشأتها وتطوُّرها لأن كثيرين من كتّاب المقالة بدؤوا فيها واشتهروا من خلال صفحاتها.

وقد يكون كلّ واحد منا قد كتب الموضوع الإنشائي أو التعبير في مراحل تعلّمه الأولى، وهذا يعدّ من المقالة أو هو قريب لما صار يسمَّى المقالة، وقد يكون لكل منا هواية الكتابة ، ولكن الهواية تفتقر إلى مقومات المقالة وخصائصها لتصبح الكتابة كِتابة فنية وأدبية تندرج تحت عنوان «فن المقالة».

وما من شك في أنّ هناك كتباً كثيرة في المقالة العربية، لكنها اختلفت فيما بينها قليلاً من حيث المادة التي تضمَّنها كل كتاب، ولو لم يكن اختلاف لما أُلِّف من جاء بعد من كتب قبله!! ويبدو أنّ التطور السريع لفن المقالة وتنوعها وانتشارها ساعد كثيراً في الكتابة عنها، وهذا الكتاب محاولة جديدة للكتابة ولكنه سيختلف - حتماً - عمّا

كُتبَ قبله، لأنه **كتاب جامعي تعليمي يُفترض فيه أن يكون ذا شخصية مختلفة، وأن يكون ذا منهج تعليمي، وأسلوب واضح**، وهذا يعتمد الطريقة التعليمية التي يجب أن تبتعد عن حشو الكلام وزيادة الحجم للمادة النظرية التي استُهلكت وكرِّر معظمُها فيما كتب عن المقالة، والتي لا تؤدي - بحال من الأحوال - إلى أن يكتب الطالب المقالة بعد أن يتدرَّب عليها، وإن كانت عنده بدايات التعبير، وإلا أصبح كلّ من قرأ ما يتصل بالمقالة كاتب مقالة، لذلك وجدتنا - جاهدين - باحثين عن كلّ ما يفيد الطالب في **المادة النظرية التي قدَّمناها سهلة التناول بسيطة العبارة مختصرةً موجزةً مفيدة** لكن غير مخلّة، ويُضاف إليها **الاختبارات التي أُثبتت وكانت متنوعة**، مع **التعليق** الذي تبع كل مقالة. وقد اعتمدنا على كتب كثيرة تناولت هذا الفن، ووجدنا أنّ كثيراً مما ورد فيها قد اتفق وتشابه، ولا سيما في المادة النظرية وحاولنا إضافة ما جدَّ فيها، وقد اختلفت هذه الكتب في بعض العناوين والاختبارات..

فرضت المادة التي جُمعت أن يقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب في كل باب فصلان.

أما **الباب الأول** فضمّ فصلاً عن **بدايات المقالة ثم تعريفها ثم أنواعها**، وكانت هذه المادة النظرية مشتركة لذلك اختصرناها، وقدَّمناها للطالب، وتوقفنا قليلاً عند نشأتها ودور الصحف والمجلات في ذلك، ثم انتقلنا إلى تعريفها عند بعض النقاد والمؤلفين ووجدنا أن التعريف كان يختلف قليلاً في الأسلوب لكنَّ المضمون واحد، وقسَّمنا المقالة إلى فرعين رئيسيين وفي كل فرع عدد من العناوين فاجتمع عندنا أنواع المقالة، وأضفنا إليها ما وجدنا أنه جدير بالإضافة مع الانتشار الجديد للصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى، وعرَّفنا بكل نوع، وذكرنا أشهر كتَّابها.

وفي **الفصل الثاني** وكان بعنوان القارئ والكاتب أخذنا مقالة للدكتور **عبد السلام العجيلي عنوانها: «الأديب، ماذا يكتب، ولمن يكتب؟»** وهذان سؤالان

مهمّـــان في المقالـــة وغيرها من فنون الكتابة، وقلنا نعتمد فيهما على ما كتبه العجيلي أحـــد مشاهير كتّاب المقالة في هذا العصر. فأثبتنا النصّ وكان مطولاً نسبياً، ثم علّقنا عليه فأبرزنا أهم الأفكار التي وردت فيه.

أمـــا الـــباب الثاني فكان لأنواع المقالة ولو تُرك في فصل واحد لتفاوت عدد الصفحات كثيراً بينه وبين غيره من الفصول فوجدتنا مضطرين إلى أن نجعله في فصلين اثـــنين، ضـــمَّ كل واحد منهما نماذج من المقالة، فالأول لما يندرج تحت عنوان **المقالة الذاتـــية**، والثاني للمقالة الموضوعية، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن اختيار المقالات من أصعب ما لقينا، لأنّ الأسماء كثيرة ومتنوعة، وتحار من أين تختار، فآثرنا أن نختار النص المناســـب للعـــنوان وكـــان للاسم دورٌ في الاختيار، المهمّ أن يكون أدباً عالياً رفيع المستوى. ففي الذاتية اخترنا من **المقالة الساخرة مقالة «حلاق القرية» لإبراهيم عبد القـــادر المازني، ومن النقد الاجتماعي مقالة «إحياء البنات» لوداد سكاكيني، ومن الوصـــفية مقالـــة «الأدب والمجـــتمع» لعمر فاخوري، ومن السيرة مقالة «النشأة والتـــربية وطلـــب العلـــم» للشيخ محمد عبده، ومن التأملية «آثار الجمال وجمال الآثار» لأحمد لطفي السيد.**

أمـــا المقالـــة الموضوعية فقد اخترنا من النقدية مقالة «مصير اللغة العربية في المهجـــر الأمريكـــي» لسامي الكيالي، ومن الفلسفية مقالة «سحر وتنجيم» لزكي نجـــيب محمود، ومن التاريخية مقالة «قاسم أمين» لجرجي زيدان، ومن العلمية مقالة «عـــود الكـــبريت» لأحمـــد زكي، ومن السياسية مقالة «كلمات حزينة» لنجاح العطار.

وكنّا نثبت بعد كل مقالة عدداً من **الأسئلة** وأحياناً تعليقاً موجزاً لأهم ما ورد في المقالـــة وعمدنا أن تكون الأسئلة متنوعة، وإن تكرر بعضها في معظم المقالات لأنّ ثمـــة أســـئلة يجـــب أن تتكرر، وكان أهم الأسئلة طلب كتابة مقالة من المقالات في

موضـــوع قـــريب مما قرأه أو في الموضوع نفسه من وجهة نظر الطالب معتمداً على ما قرأه.

أمـــا الـــباب الثالث فكان في فصلين أيضاً. يتصل الثاني بالأول اتصالاً وثيقاً، خـــصِّص الأول **للدراسة التحليلية للمقالة** وهذا خلاصة ما يصل إليه الطالب بعد أن قـــرأ المادة النظرية وقرأ عن مقالات متنوعة في أنواع المقالة المشهورة لأشهر الكتَّاب، وعليه أن يقرأ ما بين السطور، ويحلّل ما قرأه، وقد أثبنا للطالب خطوات دراسة المقالة وهـــي ما اعتمد عليها معظم النقاد، ثم أجرينا لَه دراسة تحليلية عملية لمقالة «البشرف الرفيع» لميخائيل نعيمة، وخصصنا الفصل الثاني لسبع مقالات نماذج متنوعة من المقالة لـــيحلّلها بنفـــسه بعضها لمشهورين من الكتَّاب، وبعضها اشتهر لأدبه... فكان عندنا **مقالة «الأسلوب الإفرنجي» لعباس محمود العقاد، ومقالة «جمال الشرق» لمي زيادة، ومقالـــة «الخريف في الريف» لأحمد حسن الزيات، ومقالة «أين الفضيلة» لمصطفى لطفـــي المنفلوطـــي، ومقالـــة «عـــين القبو» للبيبة هاشم، ومقالة «النمل» لكامل الكيلاني، ومقالة «فن الإعلان» لعبد العزيز البشري.**

وبعـــد... فهذا مقرر جامعي يتحدَّث عن المقالة العربية لطلاب السنة الرابعة في قسم الترجمة/التعليم المفتوح، الهدف منه أن يقدَّم إلى طلاب غير مختصين في واحد من فنون الأدب العربي، هو المقالة، حاولنا أن نلمَّ بكل ما يحيط به من مادة نظرية مختصرة، ســـبقنا إليها كل من ألَّف في المقالة، لكننا شذَّبناها وهذَّبناها وجعلناها تناسب الطالب غـــير المختص، وتناسب - بالتالي - المنهج التعليمي الصّرف، فابتعدنا عن الحواشي، وإثـــبات المصادر والمراجع، وقدَّمنا المادة سهلة التناول، واخترنا لَه عدداً من المقالات المتـــنوعة، وقد يكون بعضها قد أُثبت في بعض الكتب لأنه من المشهور، لكن البعض الآخـــر أُثبت للمرة الأولى ولا سيما للكتَّاب السوريين، فهم متميزون أكثر من غيرهم لكنَّ حقَّهم غُمِط!!

وما نرجوه أن يقدِّم هذا الكتاب الفائدة للطالب وسيجدها - إن شاء الله - إذا مـــا أجاد القراءة والإجابة عن الأسئلة، وكتابة ما طلب منه من مقالات لأنها، جميعاً، تشكل عند الطالب مقوّمات هذا الفن، الذي بدأه عندما بدأ يكتب موضوع التعبير في مـــراحل تعلمه الأولى التي تعدّ أساساً لما يليها من مراحل ليكتمل البناء، وما أقيم على قـــواعد صحيحة سليمة كان قوياً متيناً وهذا ما نرجوه في كل ميادين حياتنا، وفي مقدمتها الإنسان، لأنه الأصل.

والله - دائماً - من وراء القصد..

دمشق ٢٠٠٥/٨/١٤

- المؤلفان -

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الباب الأول

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الأول

المقـالـة

بداياتها - نشأتها - تعريفها - أنواعها

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

١/١ البدايات

- ما قبل المقالة:

مـــرَّ الإنــشاء العربي، وهو ما سُمِّي من بعدُ، النثر العربي بعدد من المراحل التي يمكن تلخيصها بما يأتي:

آ - دور التعبير الفطري:

يـبدأ مـنذ صـدر الإسلام الذي كان يتمثَّل بالرسالة، والخطبة، والذي اتَّسم بالإيجاز، والبساطة، والجزالة...

ب - دور التعبير الفني:

يـبدأ مـع بدايـة العصور العباسية واستمرَّ حتى القرن الرابع الهجري/العاشر المـيلادي، وقـد تميَّـزَ بالافتنان في المعاني، وتوازن العبارات، والمَيلِ إلى الإسهابِ، والاستقـصاءِ، والتفصيلِ، وفي هذا الدور بدأ ظهور أعلام في هذا الفن، أشهرهم: **ابن المقفع، والجاحظ**... ويكفي بهذين العلمين دليلاً للتعبير الفني، فهما كانا من مؤسِّسي النثر العربي الذي أثَّر في كلِّ من كتب، واللذين تأثَّر بهما كلُّ من كتب نثراً.

ج - دور التأنُّق البديعي:

وفيه يظهر التأنق اللفظي الذي اهتم به أصحابه، واعتنَوا به من خلال السَّجع، وغـيره من المحسنات البديعية التي بَدا فيها التكلُّف عند كثيرين ممَّن كتبَ، وقد اشتُهرَ في هذا الدور **ابنُ العميد، والصاحب بن عبَّاد**.

د - دور التَّقليد والجمود:

سمَّاه بعضُ النقَّاد دور الانحطاط، لأنَّ كتابات الكتَّاب دَخلَها الوَهَن، وبدا عليها

الضَّعف، فكان إنشاؤهم ركيكاً أسلوباً وابتذالاً.

هـ - دور النهضة:

يبدأ هذا الدور منذ أواسط القرن التاسعَ عشرَ إلى وقتنا الحاضر، وفي هذا الدَّور ظهرَ روَّاد المقالة بعد أنْ نضجت الفنونُ الأدبية كلّها بما فيها فن المقالة.

إذن فإنَّ المقالةَ ليست فنّاً حديثاً معاصراً، وهذا ما وصل إليه معظم النقاد، وهذا صحيحٌ إذا أخذنا بذرة الإنشاء أو الكتابة، أمَّا إذا أردنا أن نقوِّم هذا على خصائص المقالة المعروفة الآن، فإننا نجد أنَّ هناك فروقاً كبيرةً بين ما كان يُكتَب، وبين ما يُكتب الآن تحت عنوان «فن المقالة».

٢/١ البدايات بين الغرب والعرب:

تعود **بدايات المقالة إلى ما قبل القرن السادس عشر**، وقد قامت على إبداء الإنسان رأيَه، ونقلِ الصُّوَر التي يراها، والتعبيرِ عمَّا يعتلج في النفس ببساطة وسذاجة، وبلا أن يكون عنده القالب الفنِّي لهذا النوع من الأدب، وسَبَق هذا بعضُ الكتابات الفلسفيّة التأمُّليّة التي نستطيع أن نقول: إنَّها من بذور أدب المقالة، تَبِعها كتاباتٌ كثيرةٌ لكُتَّاب مشهورين كثيرين في البلاد الأجنبية، ولا سيما في عصر النهضة.

أمَّا في الأدب العربي فتعود **بدايات المقالة إلى القرن الثاني الهجري** عندما بدأت كتابة الرسائل، ولا سيما الإخوانية والعلمية، لأنهما كانا يعكسان خصائص المقالة التي عُرِفت من بَعْد. ومن يقرأ في كتاب «البيان والتبيين» **للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)** يرَ أنَّ فيه شيئاً من الكتابة الأدبية التي يمكن أن تُعدَّ باكورةً لفنِّ المقالة، وذلك من تنوُّع الموضوعات والطول والأسلوب، أي من بعض الخصائص المعتمدة في فن المقالة الآن. ويُضاف إليها الرسائل التي كتبها الجاحظ وكانت بحدود الطول المعروفة للمقالة.

٣/١ بدايات تطور فن المقالة عند العرب:

بـــدأ فـــن المقالـــة يـــتطور عند العرب ولكن تطورٌ قليلٌ على يدي **أبي حيان التوحيدي (ت نحو ٤٠٠هـــ)** ولا سيما في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» الذي يبدو فيه صاحبُه ذا ثقافة واسعة متنوعة..

ثم كانت **رسائل أبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـــ)** نموذجاً آخر من فن المقالة، وكـــان جـــزءٌ مـــنها يَصبُّ في مجال الفلسفة والأخلاق، وبدا هذا بوضوح في كتابه «الفـــصول والغايـــات» وسَبق هؤلاء عددٌ من الكتّاب مثل **سَهل بن هارون، وعبد الحميد الكاتب، وابنِ المقفّع.**

١/٢ نشأة المقالة:

يُجمِـــع مؤرخـــو الأدب على أنّ المقالة الأدبية الحديثة عرفت سبيلها إلى الحياة على يد الكاتب الفرنسي «**ميشيل دي مونتين**» ثم الإنكليزي «**فرنسيس باكون**» ولم تكـــن المقالة قد أخذت حدودَها، واعتُبِرت فنّاً كالشعر، والقصة، بل كانت للتسلية وتمـــضية الوقت، ولم يتخصَّص بها كتّاب محدّدون حتى القرن الثامن عشر عندما تفرَّغ للكـــتابة في المقالـــة أعلام الكتّاب، واعتبروها فنّاً قائماً بذاته، ونبغ عددٌ من الكتّاب كُتِـــبت لهـــم الـــشُّهرة وبدأت تظهر ملامح تطوّر هذا الفن، فتجاوز الكتّاب مرحلة الـــتأمّل، بـــل اتّجهـــت إلى تحلـــيل مظاهر الحياة المعاصرة، وتناولها بالنقد والتحليل والتجريح، ورافق هذا التطورَ تطورٌ في الأسلوب واللغة، حتى استوت فغدتْ فنّاً أدبيّاً قائماً بذاته.

وكـــان لهذا الفنّ الحديث خصائص في المحتوى والصورة. أمّا من حيث المحتوى فقـــد دارت المقالات حول الموضوعات العامة التي تتّصف بصفة الاستمرار والثبات، وتعـــرض للمجـــتمع في مختـــلف مراحل تطوّره، أو حول العلاقات الاجتماعية، أو

الموضوعات الطارئة، وأمّا الصورة أو الإطار العام الذي كان ينظم المقالة فقد ظهر في الأنواع التالية:

١- المقالة الاجتماعية.

٢- المقالة النقدية.

٣- الصورة الشخصية.

٤- مقالات الرسائل.

٥- المقالة القصصية.

ومن ثمّ اتّسع نطاقُ الموضوعات، وصار الكاتب يكتب في أي موضوع يَروقُ له، وصار الاعتماد في هذا على ثقافة الكاتب المتنوعة، وظهرت بوضوح الشخصية الأدبية للكاتب، وزاد طول المقالة قليلاً مع انتشار الصحف والمجلات انتشاراً واسعاً، وهذا أدّى إلى قيام أو نشوء مجلات أدبيّة متخصصة كان لها دورٌ كبيرٌ في تطوّر المقالة.

٢/٢ نشأة المقالة العربية:

يُجمع النقّاد ومؤرخو الأدب العربي على أنّ تاريخ المقالة العربية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الصحافة، أي في عصر النهضة، ويبدو أنّ البدايات كانت في مصر ولبنان، وربّما استمرّت فيهما ومن ثمّ في سورية وبعض البلاد العربية، ووصل النقاد إلى أنّ المقالة مرّت بأطوار أربعة:

آ - المدرسة الصحفية الأولى:

يمثّل هذه المدرسة كتّابُ الصحفِ الرسميّة، وأشهرهم رفاعة الطهطاوي في صحيفة «الوقائع المصرية» وعبد الله أبو السعود في صحيفة «وادي النيل» وميخائيل عبد السيد في صحيفة «الوطن» ومحمد أنسي في صحيفة «روضة الأخبار» وسليم عنحوري في صحيفة «مرآة الشرق».

وقد بدا على كتّاب المقالة في هذه المدرسة التكلّف في الأساليب البديعيّة

والسجع الذي كان مقصوداً فغَلَب على الأفكار أو الموضوع، وكان من أهم الموضوعات التي تناولوها السياسة، وشيءٌ من الشؤون الاجتماعية والتعليم.

ب - المدرسة الصحفية الثانية:

تأثَّرت هذه المدرسة بدعوة **جمال الدين الأفغاني**، ونشأة **الحزب الوطني الأول في مصر**، وبَرزَ فيها عددٌ من الكتَّاب أشهرهم: أديب إسحق، وسليم النقاش، وسعيد البستاني، وعبد الله نديم، ومحمد عبده، وإبراهيم المويلحي، وعبد الرحمن الكواكبي، وبشارة تقلا، ومن يقرأ الأسماء يجد أن بعضها لبناني أو سوري كان قد أسَّس مع غيره نهضة أدبية لا يزال أثرها حتى الآن.

أمَّا مقالات هؤلاء الأدباء فإنها تختلف عن سابقتها بأنها تحلَّلت من السجع والتكلّف والزيفة اللفظية لتقترب شيئاً فشيئاً من عامةالشعب، وهذا يعود إلى طبيعة الكتابة، وكانت صحيفتا «**الأهرام**» و«**مصر**» أهم الصحف التي بدأ الكتاب كتابة المقالة فيهما.

ج - المدرسة الصحفية الحديثة:

تميَّزت هذه المدرسة بأسماء أعلام في فنّ المقالة، منهم مصطفى كامل، وولي الدين يكن، وسليم سركيس، ومحمد رشيد رضا، وخليل مطران، وأحمد لطفي السيد... وقد تأثَّرت هذه المدرسة بالنَّزعات الوطنية والحزبية بسبب الاحتلال الإنكليزي لمصر، فظهر عدة صحف نشرَ فيها هؤلاء أفكارَهم وآراءَهم السياسية والثقافية وشؤون التربية والتعليم، ثم برزَت أسماء أخرى مثل عبد الرحمن شكري، وعبد الحميد الزهراوي، وعبد العزيز البشري، ومحمد حسين هيكل، وطه حسين، وإبراهيم عبد القادر المازني، وعباس محمود العقاد، وسلامة موسى...

ويبدو للقارئ في هذه الأسماء أنَّ المقالة بدأت في هذه المدرسة أو تشكَّلت شكلها النهائي المعروف، لأنَّ كلّ كاتب ممَّن ذُكر كان لَه دورٌ كبيرٌ في الكتابة ولا سيما

المقالة، ولا يخلو كتاب في الأدب العربي المعاصر، ولا سيما النثر من مقالة لمعظم هؤلاء الذين ذُكروا.

لقـــد خَطَت المقالة في هذه المرحلة خطواتٍ مهمَّةً واسعةً ويكفي أنَّ عدداً من السيدات الكاتبات بَرَزن في الكتابة أشهرهن: لبيبة هاشم، ونبوية موسى، وملك حفني ناصف (باحثة البادية).

د - المدرسة الحديثة:

تـــبدأ هـــذه المدرسة مع الحرب العالمية الأولى، وما تلاها من أحداث جِسام، كالثورة المصرية الأولى سنة ١٩١٩.

إنَّ أهـــمَّ ما يميّز هذه المدرسة ظهورُ عددٍ من الصحف التي كان لها أثرٌ في الحياة الأدبـــية، ومـــنها صـــحيفة «الجريدة» ١٩٢١، و«الاستقلال» ١٩٢١، و«النهضة المـــصرية» ١٩٢٢، و«الـــسياسة» ١٩٢٢، و«البلاغ» ١٩٢٣ و«كوكب الشرق» ١٩٢٤، و«الأخـــبار» ١٩٢٥، و«الأسبوع» ١٩٢٦... ثم صدر عددٌ من الصحف الحزبية المستقلّة الحديثة مثل «المصري» و«صوت الأمة» و«الدستور» و«أخبار اليوم» و«الأخبار»، ولا يزال عددٌ منها يصدر حتى الآن.

واخـــتلفت الكتابة قليلاً في هذه الصحف إذ صارت افتتاحية معظم الصحف، هـــذا يعني أنَّ معظم ما سيُكتب سيكون في السياسة أو قريباً من السياسة، «وامتازت المقالـــة بالتركيـــز والدِّقّـــة العلمـــية، والميل إلى بثّ الثقافة العامة لتربية أذواق الناس وعقولهم».

هـــذا في مصر، أما في لبنان فقد كان فنّ المقالة ذا شأن كبير كغيره من مختلف الفـــنون الأدبـــية لاتصاله بالغرب وظروفه الاجتماعية، وتميّز عن مصر بأن صدر عنه صحف شعبية كان للغرب فيها أثرٌ واضح، وقد صدرت صحيفة «الأخبار» وهي أول صـــحيفة سياســـية عام ١٨٥٨ تبعتها «الزهرة» و«النجاح» و«التقدّم» ثم «البرق»

و«المـــراقب» و«المفـــيد» و«لسان العرب» وغيرها... ثم همدت مع نشوب الحرب العالمـــية الأولى لتعود أكثر نشاطاً بعد الحرب، وكان للاحتلال الفرنسي دورٌ في هذا، وبرز من الكتاب جبران تويني، وعمر فاخوري، وسعيد فريحة وغيرهم.

٣- المجلات وأثرها في تطور المقالة العربية:

عـــرف لبنان المجلات في وقت مبكر من تاريخ النهضة، فظهرت مجلات عديدة مـــثل «الجنان» و«الزهرة» و«المهماز» و«النحلة» و«النجاح» و«المقتطف» وغيرها، وتميـــزّ منها مجلة «الجنان» بل كانت الأساس الذي سارت عليه تلك المجلات من بعد، وامـــتد اهـــتمام اللبـــنانين بالمجلات إلى مصر فكان لهم دورٌ في نشأة المجلات الثقافية والعلمـــية وتطويرها وتهذيب أسلوبها، فأنشأ لويس الصابونجي «النحلة الحرّة» وخليل اليازجـــي «مرآة الشرق» وشبلي الشميّل «الشفاء» وجرجي زيدان «الهلال» التي ما زالت تصدر من مصر حتى الآن.

ثم أخذت المجلات تتخصص فكان لكل فرع من فروع الثقافة والمعرفة مجلةٌ، و لم يقف الأمر عند هذه الحال بل برز عددٌ آخر من المجلات عُني بالمقالة الأدبية، ومن أهم تلك المجلات «الزهراء» و«الناقد» و«الرسالة» و«الثقافة» و«أبولو».

ومـــا من شك في أنّ للمجلة أثراً أكبر من أثر الصحيفة، ثم إنّها أكثر أهمية لأنها صارت تعتمد تنوعاً في المقالة وغيرها من فنون الكتابة، يُضاف إليها الإسهاب والإطالة بما يتناسب وعدد صفحاتها.

وقد بدا واضحاً تميُّز مجلة «المقتطف» التي عنيت في بدايتها بالأبحاث العلمية، ثم دخـــل إلـــيها الأدب لمّـــا رأسَ تحريرها يعقوب صرّوف، ومثلها «الهلال».. أما بقية المجـــلات فكانت للأحزاب السياسية، شارك في التحرير فيها أسماء أعلام من أمثال طه حـــسين، ومحمد حسين هيكل في مجلة «السياسة الأسبوعية»، والعقاد في مجلة «البلاغ الأســـبوعي».. ثم مالت المجلاّت إلى التخصّص فكانت مجلة «الرسالة» التي كتب فيها

طـــه حسين ثم «الثقافة» ثم «الكاتب المصري» التي تولى رئاسة تحريرها طه حسين.. وكان يقابل هذه المجلات ظهور بعض المجلات التي تخصّ المرأة، وبرز منها في لبنان مجلة «المرأة الجديدة» ومجلة «منيرفا».

١/٢ المقالة - تعريفها:

لفظ المقالة من الألفاظ المُحدثة في معناها الذي نعرّفه لنوعٍ من أنواع النثر الأدبي المعـــروف، وإن كان جذر الكلمة معروفاً للجميع (ق - و - ل) وكذا الألفاظ التي تدور في هذا الجذر، وقد ورد اللفظ في شعر القدماء، قال حسان بن ثابت:

مـــا مـــدحت محمّـــداً بمقـــالتي لكـــنِ مـــدحت مقالتي بمحمّد

وقال الشاعر النابغة الجعدي:

مقالـــة الـــسُّوء إلى أهلـــها أســـرع مـــن مـــنحدرٍ ســـائلِ

أمـــا التعـــريف الحـــديث للمقالة فقد اختلف فيه النقاد، أو من عرَّفها، لكنهم - جميعاً - اشتركوا في الأصل العام لهذا الفنّ، وبدا هذا الخلاف عند النقاد، ولا سيما الـــذين كتـــبوا المقالة، لأنَّ كلّ واحد منهم أراد أن يكون تعريفه لها بحسب ما يكتب هو، فبعضهم اعتبرها «**نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام، وهي قطعة لا تجري على نَسَق معلوم، ولم يتمّ هضمها في نفس كاتبها وليس الإنشاء المنظم من المقالة الأدبية في شيء**».

واعتبرها آخر: «**قطعة إنشائية ذات طول معتدل تدور حول موضوع معيّن، أو حول جزء منه**».

وعـــرَّفها ثالث فقال: «**هي قطعة إنشائية ذات طول معتدل تُكتب نثراً، وتلمّ بالمظاهـــر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة، ولا تعنى إلاّ بالناحية التي تمسّ الكاتب عن قرب**».

وفي معجـــم أكسفورد: «**هي تأليف متوسط الطول حول موضوع خاص، أو**

فرع من موضوع، أو قطعة غير منتظمة محدودة المدى».

وخـــرج محمـــد يوســـف نجم من التعريفات السابقة بتعريف أثبته في كتابه «فن المقالة» فقال:

«هي قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع تُكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرّهق وشرطها الأول أن تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب».

إنّ قـــراءة التعريفات السابقة تحدِّد لنا بعض المعايير التي يجب توافرها في المقالة مثل الطـــول والحجـــم، واعتماد النثر لغة كتابة، وسهولة اللغة، والبعد عن التكلّف، واتصالها بالكاتـــب اتصالاً وثيقاً، وكونها خاصة بفرع من فروع العلم ولا شكّ في أنّ هذه المعايير لن تكون واحدة في كل مقالة، بل ستختلف قليلاً من مقالة إلى أخرى.

٢/٢ المقالة - قوامها:

قـــيل إنّ قـــوام المقالة شخصية الكاتب وانعكاسه الوجداني عليها، ولذلك يجب أن تتجنب الوعظ والتعليم ويذهب فيها صاحبها إلى التاريخ ليريك أحداثه وتعيشها معه، وإلى المختبرات العلمية ليكتشف معك جديد الاختراع، وإلى الطبيعة لتُدهش بجمالها، ويفتح لك أبـــواباً بأسلوب يعرِّفك من خلالها ما يحيط بك من عالم إنساني، وباختصار فإن المقالة هي نـــوع من التعليق الشخصي على كل ما يراه ويعرضه الكاتب، ولكن بطابع شخصي يطبعه كاتـــبه بأســـلوب سهل واضح بعيد عن التكلّف والتزويق، لأن التعبير بأسطر أو صفحات قليلة يحتاج إلى سهولة اللغة، ولطف التعبير والأداء وجمال التصوير.

١/٣ أنواع المقالة - مقدمة:

تـــنوَّعت المقالة وتعدَّدت وذلك بحسب أنواع المعارف التي تنتمي إليها، والمادة التي يعـــتمدها الكاتـــب، وإذا كانت المقالة - كما تقدَّم - شيئاً من ذات كاتبِها فإنّ أنواع المقالـــة تعـــود إلى كتّابها، وإلى اختصاص كلّ واحد ممّن يكتبون، لذلك كانت المقالة في بدايتها حديثاً عن النفس، أو عمّا يحيط بكاتبها من المجتمع.

ثم وُلدت أنواع أخرى من المقالة نتيجة ظهور بعض العلوم والمعارف أو بسبب سفر إنسان إلى بلاد أخرى فيصفها في بعض المقالات إلى غير ذلك من الأنواع التي انتشرت من بعد انتشاراً واسعاً فكانت المقالة السياسية، والمقالة الاجتماعية، والمقالة التاريخية، والمقالة العلمية، والمقالة الثقافية... وغيرها، وما من شك في أنّ بعض الكُتّاب قد اختصّ بالكتابة في موضوع واحد، وأنّ بعضهم الآخر نوّع فكتب في غير نوع من أنواعها، وهذا يخلق تفاوتاً بين نوعين من الكتابة فيتفوق في واحد ويخفق في الآخر فما من كاتب يكتب في السياسة ولا يكون سياسياً، وما من كاتب يكتب في المجتمع وهو بعيد عنه، وما من كاتب يجيد فن المقالة الاقتصادية إذا لم يكن اقتصادياً وهذا كلّه ينقصه إجادة اللغة التي يكتب فيها، من هنا يفرض الاختصاص نفسه على ما يكتبه صاحبه فيجيد فيه أكثر من غيره، ويصبح ملازماً لَه ويُعرف من خلاله.

من هنا استطاع بعض الكتاب أن يكوّنوا لنفسهم منهجاً خاصاً بهم، ويتميزون بأسلوبهم فيكون أسلوبهم بعد كتابتهم جديراً بالقراءة، وسنطّلع على معظم أنواع المقالة بعد أن نعرّف بها تعريفاً موجزاً مع تعريف آخر للكاتب، لأنّ بعض سيرته تعكس الضوء على ما يكتب.

وتجدر الإشارة - هنا - إلى أنّ بعض أنواع المقالة كتب فيها عدد من الكتاب، ولا سيما النقدية، والذاتية، وأن بعضها الآخر قلّ بل نَدَر من يكتب فيها كالمقالة العلمية إلاّ المختص والقادر على إجادة الكتابة بلغة سليمة سهلة يصل بها إلى القارئ، لأن من يُتقن العلم قد يكون بعيداً عن اللغة، فلا يمتلكها ولا الأسلوب، وبالمقابل لن يكون صاحب اللغة عالماً أو رياضياً والعكس صحيح.

٢/٣ أنواع المقالة - نوعان رئيسيان:

قسّم النقاد في البداية المقالة إلى نوعين اثنين رئيسيين هما المقالة الذاتية، والمقالة الموضوعية، ثم أدرجوا تحت كل نوع عدداً من الأنواع، قد يكون ثمة اتّصال بين نوعين

منها، لكن غاب عنهم أنواع من الكتابة الحديثة يمكن أن تُعدَّ من باب المقالة، لأنَّ شروط المقالة قد توافرت فيها، وهذه الأنواع سنضيفها في نهاية كلامنا عن الأنواع الرئيسية.

- المقالة الذاتية:

تقدَّم قبل قليل أن بدايات المقالة كانت ذاتية تعبِّر عن شخصية الإنسان، وعلاقته بالمجتمع، ولذلك سيكون هناك اختلاف بين كاتب وآخر، لأن حياة الإنسان ليست واحدة عند الجميع، بل لكل فرد حالة تختلف عن حالة الآخر.

وقد ضمَّن النقَّاد في المقالة الذاتية عدداً من الأنواع هي:

*** الصورة الشخصية:**

وتكون تعبيراً عن تجربة الكاتب، ويُفترض أن يكون في المقالة شيءٌ من السخرية أو النقد يعطيها ميزة إضافية تصل إلى الأدب الرفيع. وقد مثَّل هذا النوع كثيرون أشهرهم: محمد السباعي - إبراهيم عبد القادر المازني - عباس محمود العقاد - أحمد أمين - مي زيادة - ميخائيل نعيمة.

*** مقالة النقد الاجتماعي:**

وتختصّ بنقد العادات الاجتماعية، والتقاليد البالية، والبدع الجديدة، ويكون قادراً على الكتابة في هذا النوع كلُّ من عنده حسٌّ أو رؤيا سليمة لما يدور في المجتمع من أحداث، وقد يستطيع كلٌّ منا التعبير في هذا النوع، لكن يبقى التَّميُّز لمن عنده القدرة على جذب القارئ إلى ما يكتب... والمعروف أن معظم الكتَّاب وقفوا عند جوانب كثيرة من جوانب المجتمع تفتيقاً أو تجريحاً، أو تلميحاً، وكلُّه من النقد.

*** المقالة الوصفية:**

وهي ما يصف صاحبها المحيط الذي يعيشه بكل ما فيه، ولا شكّ في أنه سيعتمد دقة الملاحظة، وحدَّة البصر، يضاف إليها عمق الإحساس ونفاذ البصيرة، وتميُّز

بهذا النوع أحمد أمين، وميخائيل نعيمة، وعباس محمود العقّاد.

*** وصف الرحلات:**

تقتـــرب قليلاً من المقالة الوصفية، لأنها تعتمد وصف ما يراه الكاتب من معالم، ومـــناطق أثرية وغير أثرية، وبلدان يراها للمرة الأولى، أي أنه نقل كلّ جديد، وما لم يعرفه من قبل، وقد يضطر الكاتب إلى المقارنة بين ما رآه وبين ما يعرفه في وطنه، وقد يضفي الكاتب على مقالته متعة للقارئ عندما يكون إحساسه عميقاً ودقيقاً فيتميز عن كاتـــب الجغـــرافيا، فهـــو قد أضفى على جمال المكان جمال الأسلوب، تميَّز بها العقاد ونعيمة.

*** السيرة:**

هي تصوير لحالة أو موقف إنساني خاصّ من شخصية أو غيره، فكثيرون كتبوا عن أنفسهم، وهذا غير السيرة الذاتية، وكثيرون كتبوا عن غيرهم مثل نعيمة في جبران، والعقاد في قاسم أمين، ومحمود تيمور في طه حسين..

ويـــبدو في هـــذا النوع من أنواع المقالة نوعان من الكتابة نوعٌ يعتمد صاحبه المعـــرفة الشخـــصية لمن يكتب عنه، والثاني يعتمد كُتب من سيكتب عنه، وقد يكون الـــثاني أكثـــر صـــدقاً، لأنّ الكاتب يتزلّف إلى صديقه إذا ما أراد الكتابة عنه، لذلك يُفترض الصدق في هذا النوع لتكون الكتابة نوعاً من الترجمة الشخصية سيعتمد عليها من يأتي بعدهما..

*** المقالة التأملية:**

يعرض فيها صاحبها لمشكلات الحياة والكون والنفس الإنسانية من وجهة نظر الكاتـــب وتفـــسيره الخاص لما يفكر فيه وهذا النوع بحاجة إلى عمق التفكير والنظر، والمعـــرفة في علوم الفلسفة والفكر، ويعدّ ميخائيل نعيمة أشهر من كتب في هذا النوع ولا سيما في كتابه «البيادر».

- المقالة الموضوعية:

خَفَت ضوء المقالة الأدبية، وبدأ ينتشر نوعٌ جديد من أنواع المقالة، وهو المقالة الموضـــوعية، وعمَّت بين الكتَّاب الكبار مع انتشار الصحف والمجلات المتخصصة، ولا شـــك في أنَّ هناك فروقاً واضحة بين النوعين من أنواع المقالة، وأول هذه الفروق بل أهمُّهـــا: أنَّ المقالة الموضوعية تعتمد منهج البحث العلمي الذي يقتضي أن تُجمع المادة وتُـــرتَّبَ وتنـــسَّقَ وتُعرضَ بأسلوبٍ علمي واضح جليّ، من هنا يغيب عنها الأسلوب الأدبي الـــذي يعتمد الخيال والعاطفة، والأسلوب الإنشائي والمحسنات البديعية، لذلك فإنَّ أي مقالة موضوعية يجب أن تتوافر فيها ثلاثة أشياء:

- **المقدمة:** قصيرة تتناول الموضوع مباشرة.
- **العرض (صلب الموضوع):** عرض منطقي تسلسلي من فكرة إلى أخرى تالية لهـــا، فـــيها من الأحكام العلمية والبراهين والدلائل ما يقنع القارئ ويقدّم لَه الفائدة العلمية التي يرجوها صاحبها.
- **الخاتمـــة:** نتيجة طبيعية من المقدمة والعرض تكون واضحة صريحة تلخص أهمَّ ما ورد في العرض.

أما أهم أنواع المقالة الموضوعية فهي:

*** المقالة النقدية:**

يعـــتمد فيها صاحبها نَقْدَ ما يقرؤه من علم أو أدب **أو فكر، أي** أنها - المقالة - تهـــتمّ بالكـــتابة عن الأدب والفن... وتبرز عند صاحبها القدرة **على تذوق** ما يقرؤه، لذلك يجب أن تتوافر عنده أدوات النقد والتحليل المعروفة.

وللمجلات دور في انتشارها ومن ثَمَّ ازدهارها، ويلحظ المتتبع كثرة الكتَّاب في هـــذا النوع كثرةً لافتةً، ومن أشهر كتَّابها العقاد، والمازني، وأحمد أمين، وطه حسين، ونُعـــيمة، وقـــد شكَّلت مقالات هؤلاء وغيرهم - ولا تزال - مادة وافرة أُلِّفت منها

كـــتب نقديـــة اشتُهرت، وتفاوتت مستويات الكتابة بين الأدباء من حيث السهولة والصعوبة، ومقدار اهتمام كل منهم.

*** المقالة الفلسفية:**

واضحٌ أنها خاصة في موضوع هو الفلسفة، وتحتاج إلى دقة في الأحكام، واللغة، والأســـلوب، ويجب أن يكون صاحبها مطّلعاً على الفلسفة، هذا إذا لم يكن فيلسوفاً، فالفيلـــسوف قد يكون كاتباً والعكس غير صحيح، ويخاطب صاحبها قارئاً متخصصاً قـــادراً علـــى مـــتابعة ما يقرؤه، ومن أشهر كتّابها في هذا النوع الدكتور زكي نجيب محمود، والطيب تيزيني، ومحمود أمين العالم.

*** المقالة التاريخية:**

مادتهـــا الأساســـية جمع الروايات، والأحداث التاريخية، ومن أهم ما يجب أن تتـــصف بـــه هو الصدق والموضوعية في عرض الأحداث التاريخية، وإلاّ عدّ صاحبها كاذبـــاً، فعليه أن يجمع هذه المعلومات وينسّقها ويعرضها ويفسّرها، وقد يُدْخِل فيها بعضَ القصص من أبطال التاريخ لتكون مشوّقةً للقارئ، هذا يعني أنّ من يريد الكتابة في الـــتاريخ عليه أن يكون مطّلعاً عليه، أو أن يكون رجل تاريخ عنده أسلوب أدبي، وممّن كتب فيها طه حسين ورؤوف عباس، وغيرهما.

*** المقالة العلمية:**

تخـــتص بالعلم ونظرياته ومشكلاته، وقد انتشرت انتشاراً واسعاً في هذا العصر لانتشار العلوم الكثيرة وتنوُّعها.

ومع هذا فإن عدد الكتّاب في هذا النوع قليلٌ، لأنّ هذا النوع من العلوم يُكتب في أبحـــاث أكاديميـــة أو دراسات في مجلات متخصصة، لأنّ هذا النوع من الصعوبة بمكان، فالكاتب يجب أن يكون عالماً أو مطّلعاً على العلوم العديدة، وهذا لا يكون لأنْ لا أحدَ قادرٌ على أن يتقن العلوم الكثيرة كالهندسة والزراعة وغيرهما.

وقـــد حـــاول بعض الكتّاب اعتماد التبسيط والتيسير في عرض العلوم لتكون شائقة قريبة من ذهن القارئ، هذا لا يعني أنه لم يكن عندنا كتّابُ مقالة في العلوم منذ سنوات، فقد كتب يعقوب صرُّوف، والدكتور أحمد زكي مقالات كثيرة علمية، وقد انتـــشرت انتـــشاراً واسعاً في المجلات العلمية في هذا العصر. ولكنها بحاجة إلى دراسة متأنية للحكم عليها.

*** المقالة الاجتماعية:**

تدور حول المجتمع وتعرض لمشكلاته مثل التقاليد الاجتماعية ومشكلات المرأة، والأطفال، وقد تتصل قليلاً بالسياسة لأنهما - السياسة والمجتمع - لا ينفصلان.

وهـــي - غالـــباً - نافذة تشير إلى السلبيات وتحاول أن تعرض لأهم محاولات الإصـــلاح وطرق معالجتها، وقد يدخل فيها العمليات الإحصائية والبيانات، وقد كثر كـــتّاب هذا النوع ولا سيما الذين يدرسون علم الاجتماع أو يكون عندهم ما يتصل بعلـــوم الاجـــتماع، وقد اشتهر من بين الكتّاب الكاتبة السورية وداد سكاكيني التي كتبت عن الفتاة الشرقية في كتابها «شهرزاد».

*** المقالة السياسية:**

لم تُذكـــر هذه المقالة بمجرَّدة من علم الاجتماع، بل كُتبت في السياسة ولا سيما في افتتاحـــيات المجلات، والصحف التي كانت للأحزاب السياسية، وتعود نشأتها إلى الأحـــداث الـــسياسية الـــتي جرت في العالم، وساعد على انتشارها كثرة الصحف والمجـــلات الـــسياسية التي كثرت في كلّ الأقطار، وطغت على غيرها، وهذا يعود إلى كثـــرة الأحزاب وتنوّعها واختلاف وجهات النظر فيما بينها، أضف إلى ذلك انتشار المحطات الفضائية والبرامج التي تخصّ السياسة.

ويلاحـــظ أن كثيرين من كتّاب المقالة بأنواعها اتجهوا - مرغمين - إلى السياسة لأنهـــا صارت في واقعهم اليومي، ويمكن أن نعدّ افتتاحيات الصحف والمجلات مقالات

سياسية تواكب الأحداث التي في العالم، فتكون بذلك الأكثر حيوية... ويصعب علينا أن نحدِّد أسماء الأعلام فيها لأنهم كثرٌ كثرة المجلات والأحداث.

*** أنواع أخرى من المقالة:**

يجـــوز لنا أن نضيف إلى أنواع المقالة المعروفة أنواعاً جديدة طارئة، مثل المقالة الاقتصادية، والفنية، والرياضية، والطبيّة، فقد رافقت المقالة الاقتصادية المقالة السياسية، بل إنهما اشتركتا كثيراً في العرض والموضوع لأنَّ ثمّة ارتباطاً وثيقاً بينهما، وقد انتشرت انتـــشاراً لا بـــأس بـــه لأنَّ للاقتصاد دوراً كبيراً في حياة الأمم، من هنا كان صدور المجـــلات المتخصصة في الاقتصاد والمال والتجارة، ونحن نعلم اليوم أنَّ العالم يتَّجه إلى حرُوب اقتصادية فيما بين البلاد.

وكذا المقالة الطبية التي قد تعود إلى المقالة العلمية، والتي يختصّ بها الأطباء دون غيرهـــم، فمن غير المعقول أن يكتب أديب في الطِّبِّ، وهو لا يعرف منه شيئاً، ثمَّ إنَّ هـــذا علم خاصّ جدًّا، فلا يكتب فيه إلاَّ الأطبَّاء أصحاب الأقلام، وإن كان العكس صحيحاً، فكثير من الأطباء كتبوا في المقالة، مثل عبد السلام العجيلي.

ومثل ذلك الكلام في الفنّ والرياضة والموسيقى والفنون التشكيلية وغيرها.

❖ ❖

❖

الفصل الثاني

القارئ والكاتب

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

مُقَدِّمَة ...

في كل مادة ثقافية مكتوبة شخصيتان، الأولى شخصية الكاتب الذي يقدّم أدبه للقـــارئ، وشخـــصية القارئ الذي يتلقّى ما يكتبه الأديب، وهاتان الشخصيتان هما الشخصيتان الرئيسيتان في عمليتي الكتابة والقراءة .

فالكاتب يكتب ولا يعرف من الذي سيقرؤه، وإن كان يتمنى لو يصل كلّ ما يكتبه إلى كل قارئ، أما القارئ فله حرية الاختيار وإن كان يُلزم أحياناً على قراءة ما لا يحـــبه ومـــا لا يستهويه، من هنا تختلف آراء القرّاء ولا تتفق إلاّ قليلاً عندما يكون للكاتـــب أثرٌ في نفوس كل القارئين، لكن هذا الاتفاق قد يبدو متفاوتاً إلى حد بعيد وهـــذا مـــا يجعل القرّاء ينقسمون بحسب أذواقهم كما ينقسمون بحسب أذواقهم في الطعـــام والـــشراب واللـــباس، مـــن هـــنا تتنوع الكتابة، وتتنوع أساليبها، وتختلف موضوعاتها، ويصبح هناك تنافسٌ بين الأدباء، كلٌّ يريد أن يشكّل لَه طائفة من القرّاء أو مجمـــوعة تقـــرأ لَه وتصبح كالصحيفة السياسية التي تؤيّده في كل ما يكتب، حتى ليظنّ كلّ واحد أنه ناقد!!.

ودائمـــاً يتبادر إلى ذهن الكاتب: ماذا أكتب؟ إنّ الجواب عن هذا السؤال ليس بـــصعب، إذ إنّ كثيراً من المقالات تفرض نفسها ضيفاً على الكاتب، لأنّ معظمها آتٍ وقـــتي يجـــب أن يماشي الحركة الثقافية أو السياسية أو الاقتصادية، ومن كانت عنده الملكـــة اللغوية والأدبية الجيدة سبق غيره فكان في سباق مع زملائه في الكتابة، ولن يعدم الكتّاب الكتابة ما دامت الحياة قائمة، وثمة سؤال آخر يطرحه الأديب: لمن أكتب؟ إنّ

هـــذا السؤال لا يهمّ الكاتب كما همّه السؤال الأول، لأنه يتمنَّى أن يقرأه كلّ قارئ، ومـــا عليه إلا أن يكون مقنعاً يجذب في كلّ مرّة قارئاً جديداً، وليس عليه إلاّ أن يقدِّم وجـــبة أدبـــية صـــحيّة مفـــيدة غنية وسيجد الكثيرين الذين يتلقفونها فلا يخاف من كسادها!!.

كـــنت أحاول الكتابة في هذا الجانب لأنه من صميم المقرَّر على طلبتنا ليطلعوا علـــى جـــزء من عملية الكتابة، فوجدتني أمام حديث للأديب السوري الطبيب عبد الـــسلام العجيلي يجيب فيه عن هذين السؤالين، فقلت أثبته كما هو، لأنّ في أسلوب العجيلي أدباً رفيعاً يجب أن يطّلع عليه الطالب، وهو من الأدباء الذين كنَّا سنختار لهم نـــصاً في هذا الكتاب، فكان هذا الحديث يشكل برزخاً بين المادة النظرية التي أثبتت حتى الآن وبين النماذج التي سنقف عليها في الفصل القادم.

نقـــرأ هذا النص ثم نعلّق عليه ليكون نموذجاً تطبيقياً لما نقدِّم من صفحات وما سيأتي من فصول.

عبد السلام العجيلي:

- ولد الدكتور عبد السلام العجيلي في مدينة «الرقة» على نهر الفرات في أواخر تموز من عام ١٩١٩ من أسرة عربية.
- انصرف منذ صغره إلى القراءة والاطلاع على ما وقع بين يديه من كتب دينية، قصص شعبية، كتب من الأدب القديم وكتب التاريخ العربي.
- نظم أول قصيدة له وهو في الربعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره. وأول ما نشره كان قصة بدوية بعنوان «نومان».
- تعلم في مدارس الرقة وحلب، ونال شهادة البكلوريا الثانية في فرع الرياضيات، ثم درس الطب في جامعة دمشق خلال سني الحرب ١٩٣٨-١٩٤٥ وهو لا يزال يمارس مهنة الطب.
- لم يستقلد وظيفة من وظائف الدولة، لكنه عمل في الحقل العام كسياسي، مثّل الرقة كنائب في مجلس الشعب عام ١٩٤٧.
- ظهرت مجموعته القصصية الأولى «بنت الساحرة» عام ١٩٤٨، ثم توالت سائر مجموعاته: «ساعة الملازم» «قناديل إشبيلية» «الحب والنفس» «الخائن» «الخيل والنساء» كما صدرت له قصة طويلة هي «رصيف العذراء السوداء» ورواية «باسمة بين الدموع» عدا كتب أخرى في غير مجال القصة.
- والعجيلي الطبيب حفلت قصصه بالموضوع الطبي البشري الذي يبدي له العجيلي اهتماماً ظاهراً، وظل يكتب فيه إلى اليوم.. والموضوعات الطبية البشرية عنده عديدة ومتنوعة

الأديب

ماذا يكتب، ولمن يكتب

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الأديب

ماذا يكتب، ولمن يكتب(*)

د. عبد السلام العجيلي

«الأديب ماذا يكتب ولمن يكتب» سؤال لَه جوابان مختلفان باختلاف المجيب، إذا كان مؤرخ أدبٍ أو أديباً. مؤرخ الأدب الذي يدرس ويحصي وينقد يعطينا جواباً موضوعياً مبنياً على واقع الأدب في عصر واحد أو في كل العصور، ويبصرنا بدوافع الأدباء في إنتاجهم، ما كان منها ظاهراً وما بَطُن، وما كان منها واعياً أو متأثراً بعواملَ لا شعوريةٍ قد تكون مجهولة من الأديب نفسه. ولا أحسبكم تطمعون مني في أن أجيبكم عن هذا السؤال جواب مؤرخ الأدب، فأنا بعيد كل البعد عن انتحال هذه الصفة التي تتطلب في حاملها من التخصص، ومن سَعَة الاطلاع والتمرس والصبر على الدراسة والتحقيق، ما لم أمتع به في يوم من الأيام. بقي أن أجيب جواب الأديب، وهذا ما حدثت به نفسي حين اقترح علي التكلم في هذا الموضوع فقبلت عن طواعية. ولكني أريد أن أصارح مستمعيّ الأعزاء بأمر قد ينفعني عندهم فيغطي على بعض عجزي وبعض أخطائي وبعض تقديراتي السيئة قد يتكشف عنها هذا الحديث.

أريد أن أصارحكم بأني حين بدأت تهيئة جوابي بهذا الشكل على هذا السؤال شعرت شعور الفتى، الذي يظن أنه فتى، فيكتشف فجأة في نظرة مُمْعِنة إلى المرآة أن

(*) حديث ألقي في المركز الثقافي العربي في مدينة اللاذقية مساء ٢٤ نيسان ١٩٩٥.

وجهه تخدد وأن الشيب قد غزا سواد شعره. قلت لنفسي: إني بقبولي التحدث في هذا الموضـــوع عن طواعية قد أقررت بنفسي أني أصبحت أديباً، أعني إنساناً لَه الحقّ في أن يـــتكلم عـــن الأدباء وكأنه واحد منهم وعن الأدب وكأنه من أهله، وذلك أمر طالما دفعـــته وتنـــصّلت مـــنه. قـــد يعجب كثير ممن قرأ لي أو سمعني أو سمع بي مما أقول، ويستغرب كيف أن أمراً أصبح كالبديهي في نظر كل من يعرفني يبدو لي أنا بمثل هذه الغـــرابة. ولكن شأني والأدب شأن غير عادي. واسمحوا لي أن أتطرق إلى هذا الشأن بكلمـــتين، فإنهمـــا لن تبعدا عن الموضوع الذي نحن بصدده. لقد اتخذت الأدب متعة مجـــردة منذ وعيته. ففي طور التلقي، أعني أيام الصبا والدرس، كنت أقف أمام لذاته موقـــف المنفعل. وحين استطعت أن أعبر عما في نفسي من خواطر بالأسلوب الأدبي ظللـــت أجد الأدب مصدر متعة، وإن تغير موقفي منه إلى موقف الفاعل المعطي. أما مشاغلي التي كنت أسميها مشاغل جادة فكانت كل شيء غير الأدب: كانت الدراسة العلمية، والصراع مع المرض في أجساد المرضى ونفوسهم، ومعاناة المشاكل الاجتماعية في بلدة صغيرة، حتى الزراعة والسياسة كانتا من بين تلك المشاغل. وحين كان يطلب مـــني أن أتحدث في الأدب، أو أن أشترك في مؤتمرات الأدباء واجتماعاتهم التي يبدون فيها كنوعية خاصة من الناس، كنت دوماً أمتنع وأتخلف، ثم أعتذر بأني هاوٍ، وأني إذا وجدت فائضاً من الوقت فإني أفضل أن أتمتع بالأدب، متلقياً ومعطياً، على أن أتحدث فيه أو عنه. كل هذا مر بي في سني حياتي التي غبرت فماذا كانت النتيجة؟.

كانـــت النتيجة أني أتلفت ورائي الآن فأجد نيفاً وعشرة كتب لي مطبوعة أو علـــى وشـــك أن تطـــبع، وأجدني قد كتبت وحاضرت وأذعت أكثر من كثير بين المنـــصرفين إلى الأدب أو مـــن العاملين معه في الميادين المتصلة به. بل أجد أني أعرف بالأدب الذي لم أتعمد الانتساب إليه أكثر بكثير مما يجب أن أعرف به، كالطب مثلاً. وفـــوق ذلك أجد أن هذا الذي أردته متعة وتزجية وقت قد استأثر بالزبدة التي تبقت

مـــن كل ما أردته جداً وإنتاجاً مثمراً. وأعني بالزبدة التجربة التي تحصلت من خوضي في نواحـــي الحياة المختلفة وتمتعي بنعيمها ومكابدتي لشقائها. فالمرضى مئاتهم وآلافهم يجيئون إلى عيادة الطبيب ويروحون، والمواسم تأتي خيرة وسيئة، وتملأ العواطف حنايا الـــصدر ثم تهمد أو تتبدد، ويجوب المسافر البحار والقفار ثم يعود ليلقي عصا التَّسيار ويلـــزم عقـــر داره، وغبار معارك السياسة التي كانت تملأ السمع والبصر لا يلبث أن يتـــبدد بالعواصـــف الجديدة... كل هذه تزول فلا يبقى منها إلا ذكريات وأحاسيس وأفكار تثور في الوجدان، وفي العقل وتطالب بحقها أن تبرز إلى الوجود حروفاً سوداء علـــى طـــرس أبيض. وهكذا وجدت أن أدبي، الذي ظننته لهواً زائلاً، قد أصبح قيمة ثابتة، وزال أو تضاءل كل ما عداه. لقد تمسكن الأدب فتمكن، وكان خادماً مسخراً فأصبح سيداً متملكاً. وهكذا، أجدني الآن، لأن لي رأيي فيما يقال في الأدب. وفيمن يقـــال لهـــم، متهيئاً للحديث بصفتي أديباً، مقراً بهذه الصفة على نفسي غير مستطيع التهرب منها أو التنصّل.

نعم، إنه لا مفر لي من أن أتكلم، كأديب، عماذا يكتب الأديب، ولمن يكتب، وأن لي آرائـــي في هذا الموضوع، كما قلت آنفاً. وهي آراء قد لا تنطبق تمام الانطباق علـــى ما يظنه الناس، وعلى ما تقول به جمهرة الأدباء بصورة خاصة. وحين أتأمل في هـــذه الآراء، مـــن زاويتَيْ نظر مختلفتين أجد أنها تبدو لي على طرفي نقيض من حيث مقاربـــتها للـــصواب أو مجانبـــتها لَه. مرة أرى أنها يجب أن تكون صائبة لأنها أحكام صـــادرة مـــن ممارس للأدب لم يقع تحت تأثير الظروف التي تغل يدي الأديب وتحول دون انطلاقه في التعبير عما يريد وبالصورة التي يريد. ومرة أخرى أجد أنها لهذا السبب نفسه خاطئة، أو أنها لا يمكن أن تفي بالحقيقة كاملة. فالشوق لا يعرفه إلا من يكابده ولا يعرف الصبابة إلا من يعانيها... وإني حين أتخذ الأدب ملهاة، وحين أحاول، ولو محاولـــة فاشلة، التبرؤ منه، لا أستطيع أن أحكم عليه حكم من يأخذه أمر جد، أو من

يفخر بالانتساب إليه، دعك من الذي يعتمد عليه وسيلة للعيش وينتزع اللقمة من شقّ القلـــم في معاناته.. هكذا ترون أني وجدت، مقدماً، أعذاري للثغرات التي سترونها في آرائي من عجز أو خطأ وتقدير سيئ. ولكن كل هذا لا يحول بيني وبين التصريح بهذه الآراء، ولا في تحمل مسؤولية ما لم يعجبكم منها تحملاً كاملاً.

لنَـــبحثْ في البدء عن جواب الشطر الأول من السؤال، موضوع حديثي إليكم في هذه الأمسية: الأديب ماذا يكتب؟.

إن الأديـــبَ فـــنان الكلمـــة. إلا أنه ليس الوحيد الذي يحتكرُها. فالخطيب والعاشـــق والسياسي، وكثيرون غيرُ هؤلاء يستخدم كلُّهم الكلمةَ، ولكل منهم فنُّه في اســـتخدامها. لنتأمل في فنّ السياسي في هذا الميدان... يقول «**تاليران**» إن السياسيين اخترعوا الكلمات ليخفوا بها الآراء. هكذا قال الوزير الداهية الذي يتَّهم الساسة، وهو على رأسهم، بأنهم يستخدمون الكلمة لغير ما خُلقت لَه، للتغطية لا للإفصاح وللتعمية لا للإيضاح. وما أظنُّكم ترون أن هذه هي طريقة الأديب في الانتفاع من الكلمة. بل إني لو قلت: إنّ طريقة الأديب هي الطريقةُ المناقضة للطريقة التي ينسبها «**تاليران**» إلى رجـــال السياسة لوافقني كثير من الناس على قولي، إذ لم يكن كلّهم. فهل الكلمةُ عند الأديب إلا الوسيلةُ التي بها يعبِّرُ عن رأيه ويصف إحساسه ويصوّر ما يريد تصويره من عوالم واقعة أو متخيَّلة؟ ولكنّي أقول مع ذلك إننا لو أمعنا النظر في الذي يكتبُه الأديبُ لاكتشفنا أنّ لَه، للأديب أعني، أسلوبَه في استخدام الكلمة لغير ما خُلقت لَه. صحيح أنـــه لـــيس مثل السياسيين من مدرسة «**تاليران**»، يتعمد إخفاء آرائه بكلماته، ولكن آراءه نفـــسها، أو ما يتحدث بالكلمات عنه من إحساس أو وصف وتصوير، وما هو مكانُها من الحقيقة في نفسه وفي العالم الذي يحيط به؟

يكتب الأديب الكثير من واقع ومُتخيَّل بأساليب شتى وبأنماط مختلفة ولكن كلَّ مـــا يكتبه لا يخرج، في حقيقته، عن نوازعِ نفسه وعقلِه.. لا يخرج عن رغباتٍ عاطفية

أو أمانٍ فكرية قد تكون مُدركَة عنده أو غير مُدرَكة. إن ثقافة الأديب الفكرية، وبيئته الجغـــرافية والاجتماعية، ومعرفته وتجاربه، كلّها عناصرُ ذاتُ أهمية فيما يكتبه. ولكن وظيفتها هي وظيفة الخيوط المختلفة الألوان والأحجام في النسيج الذي تنسجه موهبةُ الأديـــب. إنهـــا مـــوادُّ أولية مُسخَّرة للفكرة القائدة التي يريد بها الكاتب التعبير عمّا يكـــتب. وفي رأيـــي أن نـــوازعَ نفسِ الأديب وعقله، التي أقول إن الأديب يكتبها، هـــي نوازع ذاتُ اتجاهٍ معيَّن. إنها تدعوه إلى التكامل، إلى محاولة إتمام ما يحس بنقصه في الحـــياة والفكـــر، أو في ميدان النفس أو في مجاهل الروح. وإذا كان ثمة اختلاف بـــين أديـــب فإنـــه ليس اختلافاً في ماهية البحث عن هذا التكامل، بل في ميدانه، أو في أسلوبه.

هـــذا الذي أقوله قد يبدو غامضاً، وحين يزول غموضه قد يبدو جديداً، وقد يبدو غير معقول. فاسمحوا لي بتفسير غموضه قبل كل شيء. نحن نعرف عِظَمَ طموح الإنسان وكثرة متطلباته، ونعرف كذلك عجزه وتحدد إمكانياته. والأديب بين الناس، في اتـــصافه بسَعَة الخيال وولوعه بالجمال وبحثه عن الكمال، أكثر الناس مُتطلّبات في حـــين أنه في الغالب من أضعفهم في الإمكانيات. فماذا يفعل؟ إن الغني يشتري تحقيق أمنياته بالمال، والمحارب يغتصبها بحد السيف. أما أمنيات الأديب، وهي في الغالب أندر مـــن أن تشترى بالمال وأعز من أن تكتسب بالسلاح، فإنه، أعني الأديب، يحققها بأنه يكتبها. إلى ماذا تنزع نفس الأديب وماذا يتطلب عقله؟ ذلك يختلف باختلاف الأدباء، ولكنهم كلّهم يسلكون إلى تحقيق تلك النوازع وتلك الأماني طريقاً واحدة، هي طريق الإبـــداع الفـــني. يشعر الأديب، في فترة من فترات حياته، بأن الكمال لا يبلغ إلا في الشباب الدائم أو في الجمال الذي لا يذبل. تلك الأمنية كما قلت لا تشترى بالمال ولا تكـــسب بالقسر، غير أنّ الأديب يخلق بموهبته ما يقصر الواقع عن خلقه وما لا تسمح بكينونته قوانين الكون السائدة. إنه يخلق شباب «فاوست» الدائم كما فعل «غوته».

أو جمـــال «**دوريان غراي**» الذي لا تمحوه السنون التي تمر ولا الآثام التي تقترف كما فعـــل «**أوســـكار وايلد**». ويضيق شيخ أعمى بدنيا لم يذق فيها إلا المرض والحرمان والوحدة فيتنمى لو أنه استطاع إغراقها بطوفان أو اجتثاث أهلها عن ظهر بسيطتهم. فماذا يفعل وهو النحيل الجسم الضعيف الحول الرهين في محابس ثلاثة؟ إنه يحرق بنار لـــزومياته هـــذه الدنيا التي يظلم فيها الرعية أمراء أجراء، ويدّعي فيها الصلاح شيوخ مراؤون، وتخدع فيها النساء الرجال. فما هي إلا كما وصفها:

ولو كانت الدنيا من الأنس لم تكن ... سوى مُومسٍ أفنت بما ساءَ عمرَها

تَـــدين لمجـــدودٍ وإن بـــاتَ غيرُه ... يهـــزّ لهـــا بيضَ الخطوبِ وسمرَها

فلـــزوميات «**المعري**» ليست إلا نوازع نفسه نظمها ليحقق بأدبه ما هو عاجز عن تحقيقه بوسيلة أخرى. وكذلك كانت «**الكوميديا الإلهية**» تحقيقاً لما تمناه «دانتي» فلـــم يتحقق لَه، أعني لقاء «**بياتريس**» التي لمحها لمحة على الجسر ثم ضاعت منه، فأنشأ كـــوناً بجحيمه ونعيمه ومطهره كي يلقى فيه حبيبته. وماذا كان يمكن أن يكون ديوان «**المتـــنبي**» لـــولا نزوع نفسه إلى المجد والسلطان، نزوعاً لم يتحقق لَه في الواقع ولكنه تحقـــق لَـــه في شـــخص «**سيف الدولة**» فأعطانا صورته الملحمية، وافتقده في بلاط «**كافور**» فأعطانا صورته الناقمة والساخرة.

لقد أعطيت أمثلة ضخمة للنوازع التي تحرك قلم الأديب فتجعله يكتب ما يشعر بـــأن ينقصه أو ينقص العالم الذي يعيش فيه. وأنا أزعم أن الأديب يكتب بتأثير هذه الـــنوازع حتى الصور البسيطة التي يصفها ببيانه. فهو حين يصف وردة بعينها لا يقدم صـــورة الـــوردة كمـــا تقدمها آلة «**فوتوغرافية**»، وإنما يصف الوردة التي يتمناها أو يـــشتهيها، والتي تعجز الطبيعة عن إبداعه بالشكل الذي يريده هو. الأديب لا يكتب الواقع مهما التزم الدقة في محاكاة ذلك الواقع. ذلك أن كتابة الواقع هي مهمة المؤرخ

أو كاتب الضبط، أما الأديب فإنه يتم ما عجز الواقع عن أن يتمه، ولذا قيل **إن الفنان يكمل نقص الطبيعة**.

أرجـــو أن يكون بعض الغموض قد تبدَّد عما أراه من أن الأديب يكتب نوازع نفـــسه وعقلـــه إلى الكمال فيما يريده ويتمناه. وحين أقول الكمال هنا، فإني لا أعنيه بـــالمعنى الأخلاقي. وإلا فما كان لي أن أستشهد بـــ«**أوسكار وايلد**» كما أسلفت، ولـــن يكـــون لي أن أستـــشهد بـــــ«أبي نواس» أو بـــ«**بايرون**»، مثل استشهادي بـــــ«**المعري**» أو بـــ«**تولستوي**»، وهو ما أستطيع أن أفعله بكل ثقة. فالكمال الذي أعنـــيه قد يكون أخلاقياً أو جمالياً أو يكون في ميادين أخرى لا تمت إلى الأخلاقية أو إلى الجمالية بسبب. كنت طالب طب، فكانت تمر بي في مشاهداتي في المستشفى وفي دراســـاتي النظـــرية حادثة أو قضية يكتنفها الغموض أو تثير الفضول، فأتمنى لو أكون الطبيب المعالج أو الباحث الدارس كي أستطيع أن أستقصي أو أتصرف أو أعطي الرأي القاطع والعلاج النافع. ولكن ما كان أبعد ذلك مني وأنا التلميذ الهزيل المعرفة الضعيف الإمكانـــيات. حينذاك كان الأديب يتململ في إهابي، كأنه يقول: أنا لها! ويخلق مني الطبيب ذا المعرفة التي لا تخطئ والذي يتصرف بثقة واطمئنان بحيوات الناس المتزاحمين في باب عيادته، وذلك في قصة كنت أستوحيها من تلك الحادثة أو حول تلك القضية الـــتي أثارت فضولي كدارس علم وكفنان. وهكذا كتبت قصص كتابي الأول، «**بنت الـــساحرة**»، والتي كانت تدور على الأطباء والمرضى. هكذا كان حين كنت طالب طـــب. فلما أصبحت الطبيب الذي كنت أتمنى أن أكونه، وازدحم المرضى بباب عيادتي، ونُـــصِّبت، بحـــق أو بغـــير حق، قيماً على صحة أجسادهم ونفوسهم، ماذا فعلت؟ حين أشـــبعت نـــوازع نفسي في هذه الناحية من نواحيها، فارقني إلا قليلاً ميلي الذي كان لي إلى الكـــتابة عـــن الطب وناسه وقضاياه. ولم أنقطع عن الكتابة طبعاً. ولكني، في الوقت القليل الذي أبقاه لي عملي الطبي، رحت أنفرد بنفسي وأكتب قصص الحب والغرام!

ذلك أن الواقع الكامل، إذا وجد الكمال في واقع، لا يغري الأديب ولا يستثير دوافعه إلى الكتابة. كثير منا يعرف قصة «**الراعي الصغير وأميرة البحر**». راع صغير كان يحدث أترابه، حين يؤوب كل مساء مع قطيعه، بقصص يخترعها خياله عن أميرة البحـــر التي برزت إليه من الأمواج وهو يرعى خرافه قريباً من الساحل، فتحدثت إليه وســـامرته وغازلته ثم غادرته إلى مركبها من الزَّبدَ ضاربةً في عرض المحيط. وفي ذات مساء، بينما كان الراعي الصغير يركض وراء خروف شارد، قبل أن يؤوب بقطيعه إلى القـــرية، أدهـــشه أن رأى موجة يأتلق النور حولها تقدم إليه من الأفق البعيد. وكانت علـــى الموجة أميرة البحر بنفسها، بوجهها الرائع الجمال وعينيها الخضراوين وشعرها الـــذهبي وثيابها المرصعة باللؤلؤ والمرجان. نزلت الأميرة من محارتها التي كانت تعتليها كـــزورق، وخطت على رمال الشاطئ، حتى تناولت الراعي الصبيّ فحدثته وضاحكته وقبلـــته، ثم رجعت إلى محارتها، وامتطت موجتها عائدة إلى الأفق البعيد، فلما آب الراعي إلى القـــرية والـــتف حوله الأتراب يسألونه عن أميرة البحر وجدوه لا يجيب. لقد أصيب بالخرس، فصمت الصمت الأبدي إذ لم يعد لديه ما يتحدث عنه، أعني ما يأمله ويتمناه.

وهكـــذا الأديب أيها السيدات والسادة. ولذا كان **الأدب الذي تثيره نوازع الأمـــاني إلى الكمـــال، أو الذي تحركه دوافع النقمة على النقص أكثر الآداب قوة وأشدها تأثيراً**، إذ لم يكن هو الأدب وحده. أما أدب الرضى فهو أدب مُصْطَنَع على الغالـــب، ضعيف أسباب الحياة. وكمثال على ما أقول نرى أن أعظم كتاب روسيا، هـــم الـــذين، في نقمتهم على الاستعباد أيام القياصرة، أو في سبْرهم أعماق النفوس الإنـــسانية المـــتألمة في عـــالم لا عدالة فيه في تلك الأيام، دعوا إلى الاشتراكية والعدل الاجتماعي الذي تحقّقه الاشتراكية، لا الذين عاشوا في ظل الاشتراكية ونظمها الخاطئة فكـــان أدبهم تمجيداً لها. ذلك أن هؤلاء، إلا من عَصَمَتْه موهبةٌ أدبية خارقة، ليسوا إلا مطـــبِّلين مُزمِّرين لنظام لو عاشوا في غيره لطبّلوا كذلك له وزَمَّروا. والتطبيل والتزمير

كما نعلم جميعاً انفعالات هوائية مصيرها إلى خواء في الفضاء.

ونتساءل هنا، هل يدرك الأديب حقيقة هذا الدافع الأساسي لما يكتبه؟ الجواب: ليس دائماً. ومن حسن حظ الأدب ذاك. فإن النوازع إلى الكمال، كما نسميها، تفعل فعلها من وراء ألف ستار حين تملي على الأديب ما يكتبه. فنحن لا ننسى بأن نصيب العفوية في الإبداع الفني أكبر بكثير من نصيب التصميم والتخطيط. ولو عرف الأديب أن ما يكتبه ينمّ على النقص الذي يتوق، في أعماق نفسه، إلى استكماله لحوَّر كثيراً فيما يكتب، وجانب ما يكتبه الصدق في نفسه. أعني لكان أدبه متكلّفاً. فالذي في أعماق نفس الأديب ليس دوماً خيراً، أو على الأقل، ليس دوماً مما يدعو الأديب إلى الفخر. وقد روى صاحب الأغاني أن عثمان بن عفان رضي الله عنه استنشد أبا زبيد الطائي بعض شعره فأنشده أبو زبيد قصيدته التي يقول فيها:

مَن مُبْلِغٌ قومَنا النّائينَ إذ شَحَطُوا ... أنَّ الفؤادَ إليهم شَيِّقٌ وَلِعُ

ويصف فيها الأسد. فقال سيدنا عثمان: «**تالله تفتأ تذكر الأسد ما حييت، والله إني أحسبك جباناً هِداناً**». ويقول أحد الكتاب الفرنسيين: «**إن مصادر إلهام الكاتب هي قضاياه المخجلة**» وقد يقال إن هذه أحكام لا تنطبق على كل الأدباء. أما أنا فأقول بأن انطباقها على كل الأدباء لا يكون بنفس الصورة. فعناصر المجون واحدة عند أبي نواس وعند ابن حجاج، ولكنَّ أبا نواس نزع إلى الأوج في خمرياته ولم يسفَّ حتى في غلمانياته، بينما نزل ابن حجاج إلى الحضيض في رقاعته وسخفه، وكلاهما مع ذلك في ميدانه مبدع. وأظن أن كثيراً من زملائي في الأدب لن يرضيهم ما أقوله بأن ما يكتبونه هو استكمال، بالقلم، لنقص في نفوسهم أو تعويض عما هم في حاجة إليه، وإن الحقيقة في الواقع كثيراً ما تكون نقيض ما يكتبونه لقرائهم. فنحن، بين كتاب قصة وشعراء، قد ملأنا الدنيا - والأحرى أن نقول ملأنا صحائف كتبنا - بدون جوانياتنا ونرجسيتنا، فماذا يكون من أمرنا حين يفطن قراؤنا، ولا سيما

قارئاتنا، بأن كلّ انتصاراتنا على الورق كانت تعويضاً لهزائمنا في الواقع، أو تحقيقاً خيالياً لأمانيّ فشلنا في إدراكها في الحياة؟

* * *

قد أكون أيها السيدات والسادة أجبت عن الشطر الأول من السؤال الذي اقترح عليَّ: الأديب ماذا يكتب، جواباً غير متوقع إذا لم يكن غير مقنع. وقد يكون ما قلته هو التفسير الأبدي، والبدائي، لكل جهد يبذله الإنسان في حياته الدنيا هذه، أياً كان، وأينما كان: إنه يسعى لاستكمال ما ينقصه، والتعويض عما فاته، والتحقيق لما يتمناه. قال جندي روماني لجندي من المرتزقة الآسيويين الذين يحاربون مع جيش روما: لماذا تخاطر بنفسك وتحارب؟ قال جندي المرتزقة: من أجل المال، وأنت؟ فصَعَّرَ الجندي الروماني خدَّه وأجاب: لست مثلك... إني أحارب من أجل الشرف! فضحك الآسيوي وقال: كل يحارب من أجل ما ينقصه...

لقد عرفنا ماذا يكتب الأديب فلمن تراه يكتب؟ «لأناتول فرانس» كلمة في هذا القبيل يؤسفني أني لا أستطيع أن أستشهد بها أمام كل الناس. ولكني أقول إن الإبداع في كل الفنون، ومنها الأدب، عنصر نفسي شخصي، غير أن تفتُّحه وازدهاره لا يكونان إذا لم يكن هناك جمهور مُتَلقٍّ، مستحسن أو متأثر. وحاجة الأديب إلى جمهور يقرؤه أو يسمعه مثل حاجته إلى التعبير عما يشعر به أو يفكر فيه بالكتابة. ونحن نعرف، مما نقله إلينا تاريخ الأدب عند الأمم المختلفة. وفي تاريخ الأدب العربي وحده نعلم، حين كان الشعر هو أدب العرب، كم كلف بوح الشعراء للجمهور بنتاج قرائحهم أولئك الشعراء. فهذا «**طرفة**»، شاعر يقول معلقته الرائعة وهو في مطلع شبابه، يفقد حياته وهو لم يتعدَّ السادسة والعشرين في أبيات تناقلها الركبان في هجاء ملك الحيرة. وهذا «**وضاح اليمن**»، يشبب بزوجة الخليفة ولا يستطيع أن يحتفظ بتشبيبه لنفسه، فيدفن حياً في بئر عميق. وهذا العرجي، الشاعر القرشي، يتغزَّل

بجيداء فيقول:

عُوجِـــي علينـــا ربَّـــةَ الهَـــودجِ ... إنّـــك إن لا تفعَلـــي تُحْرَجـــي

إنّـــي أتـــيحَت ليَ يمانـــيّةٌ ... إحـــدى بـــني الحارثِ من مَذْحجِ

نَلْـــبَثُ حَـــولاً كـــامِلاً كلَّـــه ... لا نَلتقـــي إلاّ علـــى مَـــنْهجِ

في الحـــجِّ إن حَجَّـــت، وماذا منىً ... وأهلُـــه إن هـــيَ لم تَحجُـــجِ؟

فـــيغني بأبياته ابنُ سريج وتذهبُ كلَّ مذهب. وابنُ جيداء أميرُ مكة حينذاك، فيحـــبس العرجي في هذه الأبيات تسع سنين ولا يخرج من الحبس إلا ميتاً. وهذا يزيد بن مفرّغ الحميري يبصر لحية أميره الضخمة وقد عبث بها الهواء، والوقت شتاء والثلج قد غمر المراعي فجاعت خيول جيوش الغزاة فيقول بيته المشهور:

ألا لـــيتَ اللّحـــى كانت حَشيشاً ... فـــنطعِمها خـــيول المُـــسلمينا

فـــيجفوه الأمـــيرُ ويحبسُه ويقيِّده مع هرٍّ وخَنزيرة في قيد واحد، ولا يخلص من القـــيد والأسار والتعذيب إلا بعد جهد شديد. أما دِعْبِل بن علي الخزاعي فإنه يصور أحـــسن تـــصوير نفسية الأديب المتمرّد الذي لا يتراجع أمام المخاطر التي يعرضه إليها إصـــراره علـــى أن يقول ويذيع ما يقول، بجوابه المشهور لمن لامه على تعريض نفسه لـــنقمة الأقوياء في حملاته عليهم بشعره. قال: أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة. لست أجد أحداً يصلبني عليها...

ما الذي دفع هؤلاء وأمثالهم إلى أن يستجلبوا على أنفسهم النقمة ولهما الأذى، بالبوح بما نظموا وكتبوا أمام من كانوا يعرفون أنهم سينقلونه ويذيعونه؟ لقد دفعهم إلى ذلـــك إدراكُهم العميقُ أن إنتاجهم الأدبي بحاجة إلى أن يتنفس بالجمهور الذي يطّلع علـــيه. حقـــاً إن الأديـــب يكـــتب من نفسه ويكتب دوافعه النفسية، ولكنه يكتب لجمهوره. إنه الجواب البسيط للشق الثاني من السؤال الذي نتحدث عنه. أقول الجواب البـــسيط، ولكـــنه في الحقـــيقة ليس بسيطاً البساطة التي تتراءى من أول وهلة. هذا

الجمهـــور مـــن هو؟ هل هو واحد لكل الأدباء! هل هو واحد للأديب نفسه في كل أطـــوار حياته؟ هل يعرف كل أديب من هو جمهوره؟ أسئلة كثيرة تتشعب من ذلك الجواب البسيط، ولا بد من أن نقف عند بعضها وقفة المتأمل المتمعن.

أذكر هنا كلمة لأستاذنا «**جان غوليه**»، تعود إلى نفسي كلما خطرت لي فكرة الجمهـــور الـــذي يتصوره الكاتب لنفسه. كنا طلاباً في تجهيز حلب نهمّ بإصدار مجلة مدرســـية. فذهبت إليه أخبره الخبر وأستشيره في ذلك، فقال لي بلهجة الممازح: وهل تعـــتقد أن ما تكتبونه سيعيش وتنتفع به الأجيال الآتية؟ كان ذلك استفهاماً يحوي في باطنه ما يُثبِّط همّة المبتدئ، إلا أنه في الوقت نفسه كان يحوي معنى حافزاً على التجويد وعلى عدم القناعة بشيء وقتي القيمة، وعلى إبداع ما يبقى للأجيال القادمة. **إن فكرة الأثر الفني الدائم القيمة، الخالد على الدهر، كثيراً ما تساور الأديب، ولا سيما في أول طمـــوحه.** كثيراً ما تكون أحد دوافعه إلى الإنتاج، كما أنها كثيراً ما تكون عزاءه عن الخمول الذي يحيط باسمه لسبب أو لآخر، وعن الإعراض الذي يلقاه به معاصروه من قراء كتاباته.

إلا أن الجمهور الأول والمباشر للأديب هو جمهور يخلق في وجدان الأديب قبل أن يـــوجد حقـــيقة حوله، في الزمن الذي يعيشه أو البيئة التي تحيط به. إنه جمهور ذو صـــفات خاصة، أبرزها أن يكون متمتعاً بذكاء مماثل في نوعيته لذكاء الأديب بصورة يستطيع معها أن يفهم مرامي أديبه ومقاصده، وأن يدرك منها نواحي الجمال ومواطن الإجـــادة فـــيما يكتـــبه. ثم أن يكون هذا الجمهور في نفس الوقت، أدنى من الأديب موهـــبة حتى يقرّ للأديب بالتفوق إذا لم يكن بالعبقرية. وكما قلت، يخلق الأديب هذا الجمهـــور النموذجي في نفسه، ثم يبحث عن مثل هذا النموذج في من حوله. وما من أديـــب إلا وهو يتوجه، في خاطره، إلى مثل هذا الجمهور الذي خلقه لنفسه يريد منه قـــراء ومستمعين، ويريد منهم استحساناً وتأثراً أو قبولاً لما يقوله ويكتبه، ولو كان ما

يقـــوله ويكتـــبه حديثاً بينه وبين ذاته أو بينه وبين إنسان بعينه. إن أشعار مجنون ليلى نجـــوى نفس لذاتها أو حديث محب لحبيبته، إلا أن قيساً لم يكن محباً فحسب، بل كان أديباً يقرأ قصائده على راويته في انتظار أن يذيعها هذا الراوية، في البَدو والحَضر، على كـــل الناس الذين هم جديرون بأن يفهموا ما يقول قيس وأن يعجبوا بما يقوله. وحين كـــتب المعري رسالة الغفران فأبدع فيها ذلك الجزء الخيالي المشحون بروائع السخرية والمعـــرفة النفـــسية والتصوير الفني، ما كان يقصد أن تكون رسالتُه مجرَّدَ جواب على رســـالة ابـــن القارح، فقد أبدع أثراً فنياً ليقرأه من أدقُّ فهماً وأوسع إدراكاً من ذلك الـــشيخ المسكين. وكذلك كان يفعل «**موليير**» و«**دستويفسكي**» و«**بالزاك**»، وغير هـــؤلاء. قـــد يكتب واحدهم منصاعاً لرغبة الأمير أو لسداد دين متراكم أو استجابة لضغط الناشر، ولكن نموذج الجمهور المثالي لا يبرح فكره، فهو يكتب لذلك الجمهور وكأنـــه كائن حقاً. **فإذا ما صار الأثر الأدبي حقيقة واقعة تكشفت للأديب حقيقة جمهوره**، ودخلت عوامل جديدة تحدد ذلك الجمهور أو تصطفيه أو تبدله تبديلاً كلياً.

والواقع أنه قلما تتلاءم حقيقة الجمهور الذي يقرأ للأديب في الحياة مع الصورة النموذجية التي يرسمها الأديب لَه في نفسه. ويختلف الانفعال الذي ينجم عن اكتشاف هـــذا التبـــيان باخـــتلاف الأدباء. ومن هنا تصل إلينا صُورٌ، بعضها مُؤسٍ، وبعضها مـــضحك، لخيبة أمل الأديب في جمهوره. فإذا ما حزَّ في نفس الأديب أن لا يجد من يفهمه تراه يقول كما قال الصافي النجفي:

أنـــا في الـــشعرِ كالغريب، فَجيلي ... في عُكاظٍ أو بعدَ ذا العصرِ جِيلي

أو كما قال أبو العلاء:

بَنِـــي زَمَـــني هـــل تعلمونَ سَرائراً ... عُلِمَـــت ولكنِّـــي بهـــا غيرُ بائحِ
سَـــرَيْتم علـــى غيّ فهلاّ اهتَديْتم ... بمـــا خبَّـــرتكم صافياتُ القرَائحِ
وصاحٍ بكم داعي الضَّلال فما لكم ... أجَبـــتُم على ما خيّلت كلَّ صائحِ

أو تراه يفعل كما فعل كلثوم بن عمرو العتابي، وهو الشاعر الذي قال عنه يحيى بن خالد البرمكي لأبنائه: إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي فافعلوا، فلـــن تروا أبداً مثله. يقول الرواة إن أحد أصحاب العتابي رآه يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقال لَه: ويحك أما تستحي أن تأكل أمام الناس؟ فقال العتابي: أرأيت لو كـــنت في دار فـــيها بقر، أكنت تستحي أن تأكل وهي تراك؟ قال صاحبه: لا. قال العـــتابي: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر. ووقف بجانب جدار هناك فأخذ يعظ ثم يقص القصص ثم يروي الأحاديث الدينية ويدعو حتى اجتمع عليه خَلقٌ كثير واشتدَّ الزحام. حينـــئذ قال للناس حوله: روى لنا غير واحد أنه من أخرج لسانه فبلغَ به أرنبة أنفه لم يـــدخل النار. فما بقي واحد من الجمهور إلا وأخرج لسانه يومئ نحو أرنبة أنفه ليرى هـــل يبلغها أم لا. فالتفت العتابي إلى صاحبه وأشار إلى ذلك الجمع الذي يحرك أفراده ألسنتهم تحت أنوفهم كما تفعل الثيران وقال: ألم أخبرك أنهم بقر!.

علـــى أنـــنا نعرف أن المسؤولية في خمول الأديب وتجاهل الجمهور لَه لا تقع دوماً على الجمهور. فإن كثيراً من مدّعي الأدب يسترون، وراء اتهاماتهم الجمهور بقلة الوعـــي، قصورهم هم وضعف موهبتهم. كما أن تجاوب الجمهور مع أديب لا يعني دومـــاً أن أدبـــه ذو قيمة كبيرة. فقد يكون التجاوب هذا مفتعلاً، تجاوباً للأديب مع الجمهـــور لا تجاوباً للجمهور مع الأديب. بمعنى أن الأديب يكيف أدبه بشكل يتلاءم والقـــيم الـــرائجة عـــند جمهوره. فمثل هذا الأديب لا يكتب أدباً بل يبيع بضاعة في الـــسوق. وإلى هذا مرد الرواج الذي يلقاه أدبٌ يداعب غرائز المراهقين في الشعوب الـــتي تقـــع النـــسبة الكبيرة من قرائها في سن المراهقة، مراهقة عُمر او مراهقة نفس. وكـــذلك رواج الأدب الذي يتحدث عن آراء اجتماعية أو سياسية معينة في البلاد لا يسمح أن يعرض في سوقها الفكري غير تلك الآراء. وماذا ينتظر من رواج أو ازدهار للأدب الصادق إذا انعدم النضج أو فقدت الحرية؟

غـــير أن خيبة أمل الأديب في جمهوره لا تثبّط همة الأديب الحق وإن أحس منها المـــرارة أو لاقى فيها العَنَت، بل لعلها أحدُ حوافزه على الإبداع. فالتمرد على الواقع، وعـــدم القـــناعة به، والطموح إلى ما هو أفضل هي خصائص الأديب الصادق الذي يـــسعى بأدبه إلى التأثير في الجمهور وتغييره بدلاً من أن يتغير هو بالجمهور. وقد اتهم الأدبـــاء الكبار، حتى من لقي منهم مجداً في حياته، جمهورهم بالتخلف وعدم الإدراك. **يقـــول «بـــودلير»: إن الجمهـــور ســـاعة كثيرة التأخير بالنسبة للعبقرية. ويقولُ «أوسكار وايلد»: الجمهور كثير التسامح، إلا مع العباقرة.** ويقول المتنبي:

أذمُّ إلى هـــذا الـــزَّمان أُهَـــيْلَه فـــأعلمُهم فـــدمٌ وأحزَمُهم وَغْدُ

ولكـــنَّ ذلك لم يَحُل بين هؤلاء الأدباء الكبار وبين أن يكتبوا للجمهور الذي لم يكونـــوا يؤمـــنون به. بل إن الأديب قد يتحدى جمهوره فيبدع في ما لقي فيه الأذى من ذلـــك الجمهور. وموقف أبي حيان التوحيدي في هذا المجال مثال ناطق. فهذا أديب بائس يعانـــده الحـــظ، ويـــضطهده الأمـــراء الذين يسعى لاستجلاب رضاهم، وينصرف عنه الأصـــحاب، ويخـــونه الأصدقاء، فيخرج من كل هذا بكتاب ضخم في الموضوع الذي اكـــتوى بـــناره، وأعـــني كتابه في الصداقة والصديق. وعزاء هؤلاء الأدباء الكبار هو أن أجـــيالاً قادمة ستأتي وتكون أكثر إدراكاً وأكثر إنصافاً. قد تأتي هذه الأجيال أو لا تأتي. وقـــد يُنـــصف في زمـــن تالٍ الأديب الذي أنكره الجيل الذي عاش بين ظهرانيه، وقد لا يُنصَف. ولكن هذه الفكرة، فكرة المستقبل المنصف، نعمة من نعم الله على الأدب، وعلى الأدبـــاء، هؤلاء الذين يرون أنفسهم صفوة الخلق وقادة العالم بينما يقصر العالم في أمرهم حـــتى ليـــصنفهم أحـــياناً بين الكسالى أو الفاشلين أو مرضى النفوس. ولعلّ لسان حال الأدباء، حين تذكر آمالهم في الأجيال القادمة الواعية والمنصفة، يردد قول الشاعر القديم:

مُنى إن تَكُن حقّاً تَكُن أحسنَ المُنى وإلاّ فَقَـــدْ عِـــشْنَا بها زَمناً رَغْدا

سيداتي سادتي:

أحـــسبني قد أطلت في الكلام عن الأديب ماذا يكتب ولمن يكتب، ومع ذلك فإن للحـــديث وجوهاً كثيرة تجنبت التطرق إليها لئلا أثقل عليكم بأكثر مما فعلت. فأرجو أن لا يـــؤاخذ علـــيّ أني لم أكـــن في كلامي محيطاً بكل ما يجب أن يحاط به. لقد تكلمت كأديـــب مارس الكتابة فكتب ما بنفسه وما تتوق نفسه إلى أن يكون. وكتبت لجمهور أحـــبه، وإن وجدته أحياناً قليل الإدراك، أو قليل الاحتفال بما يجب أن يحتفل به، أو ظالماً، ولكـــن كـــل أديب ليس أنا. بل لعلي نفسي لم أكن ذلك الأديب في كل أحيان ممارستي لـــلأدب. ولعل هناك من الأجوبة على السؤال المطروح بقدر ما هناك من أدباء فما نحن والحقـــيقة إلا كأولئك العميان والفيل الذي وصفه كل منهم بصفة العضو الذي أمسكت به يده من الحيوان: كلنا صادق، وما منا من أدرك الحقيقة كاملة.

❖ ❖
❖

جامعة دمشق Damascus University

*** تعليق:**

في هـــذا التعليق أهم الأفكار التي طرحها د. عبد السلام العجيلي وإن كان فيها بعضٌ من النقص، يراه كاتب آخر، أو فيها شيء مما لا يقنع به القارئ، لأنَّ هذا يعود إلى التذوّق، لكن يبقى معظم ما أورده صحيحاً أو ممتنعاً لأنه يصدر عن كاتب جرَّب الإجابة عن السؤالين اللذين طرحهما.

*** أفكار المقدمة:**

١- اخـــتلاف الكتابة بحسب الكاتب، فلكل موضوع كُتَّابه وأدباؤه فكل كاتب يكتب فيما يشعر أنه سيجيد فيه.

٢- مـــؤرّخ الأدب دارس وناقـــد، يقـــوم ما يكتبه على الإحصاء وهذا لا يجيده الأديب نفسه.

٣- اتِّخاذ الأديب الأدب مُتعةً مجرَّدة.

٤- مرور الكاتب بمراحل عمره، وأثر ذلك في ما يكتبه.

٥- خلط العمل بالأدب، وأثر الواحد في الآخر.

٦- اعتذار الهاوي عن عدم الكتابة في الأدب إذا لم يكن قادراً على الكتابة مقابل أن يزيد من ثقافته ومعارفه بالقراءة.

٧- يكتب الهاوي أحياناً أكثر مما يكتبه الأديب الحقّ.

٨- الانجراف وراء الكتابة بشغف لأنها تملك على الإنسان فكره.

٩- زبدة الكتابة التجربة التي يحياها الإنسان، وخوضه نواحي الحياة المختلفة.

١٠- الأحـــداث تزول ولكن يبقى منها الأحاسيس والذكريات والأفكار التي تثور في الوجدان والعقل.

١١- ثمة أشياء كثيرة مما تقدم تفرض على صاحبها أن يخرجها أدباً.

١٢- آراء الكاتب قد لا تنطبق عند جميع الناس أو لا تروق لهم جميعاً، بل إنها تكون على النقيض مما عند الآخرين.

*** الأفكار الرئيسية في الإجابة عن السؤال الأول «الأديب ماذا يكتب؟»:**

١- الأديب فنان الكلمة، ويريد الكاتب بلا شك أن الأديب هو القادر على رسم الصورة بالكلمات، وتلوينها بالحروف، وتشكيلها بالعبارة الجميلة... فتُغني الكلمات ألحاناً عذبة.

٢- كل إنسان يستخدم الكلمة، الطبيب والمهندس، الاقتصادي والسياسي، العاشق والمتألم.. لكنْ لكل واحد من هؤلاء فنٌّ في استخدام الكلمة، والفنان من يقدر على جذب القارئ إليه.

٣- السياسي: اخترع الكلمات ليخفي وراءها الآراء، وهذا عكس ما يفعله الأديب.

فالكلمة عند الأديب هي الوسيلة التي يعبِّر بها عن رأيه ويصف إحساسه، ويصوّر ما يريد.. فكأنه يريد أن يميِّز الأديب عن غيره من الناس في هذا الجانب، وهذا صحيح، فالأديب إن لم يتميز عن غيره من الناس في استعمال اللغة فإنه لن يكون أديباً!!.

٤- يكتب الأديب ما يراه أمامه من حقائق، وقد يتجاوز إلى الخيال، ولكن يخرج من نوازع نفسه، ومما يدركه.

٥- ثقافة الأديب المتنوعة هي الأهم في كل ما يكتب.

٦- يتصف الأديب بسَعة الخيال وولوعه بالجمال وبحثه عن الكمال.

٧- أمنية الكاتب تتحقق عند الكاتب عندما يكتبها، فهو يقدِّم الشَّيء الذي يتمناه لا كما هو في الحقيقة.

٨- يتميّز كل كاتب بما يقدّمه للقراء.

٩- الأديب لا يكتب الواقع لأنّ هذا من مهام رجل التاريخ بل يكتب ما عجز الواقع أن يقدّمه كاملاً.

١٠- الأديب يكمل نقص الطبيعة.

١١- الكتابة تأتي من الإيحاء الذي عند الإنسان.

١٢- الكاتب الذي يعمل في غير الكتابة تجذبه الكتابة وتأسره.

١٣- إنّ الأدب الـــذي تثيره نوازع الأماني إلى الكمال أو الذي تحرّكه دوافع النقمة على النقص أكثر الآداب قوة وأشدّها تأثيراً.

١٤- أدب الرضا مصطنع في الغالب.

١٥- للعفوية نصيب كبير في الإبداع الفني أكبر من نصيب التصميم والتخطيط.

١٦- رأي: مصادر إلهام الكاتب هي قضاياه المخجلة.

*** الأفكار الرئيسية في الجواب عن السؤال الثاني: «الأديب لمن يكتب؟»:**

١- الإبداع عنصر شخصي، لا يتفتح إلا إذا كان لَه جمهور متلقٍّ، أو مستحسن أو متأثر.

٢- حاجة الأديب إلى قرّاء كحاجته إلى التعبير.

٣- الأدب قد يودي بصاحبه ويقتله.

٤- الأديب يكتب من نفسه، ويكتب دوافعه النفسية لكن يكتب لجمهوره.

٥- الأثر الفني الدائم الخالد يساور - دائماً - الأديب.

٦- الجمهور الأول هو ما يكون في وجدان الأديب نفسه، أي أنه يخلقه لنفسه.

٧- تختلف رغبة الكاتب في الكتابة وتتنوع، وقد تكون رغماً.

٨- لن يستطيع الأديب أن يكون متوافقاً مع الجمهور حتى جمهوره الذي صنعه لنفسه.

٩- خمـــول الأديب وتجاهل الجمهور له لا يقع على عاتق الجمهور فقط بل على الأديب ولا سيما الذي يدّعي الأدب أو يتستر به.

١٠- الأديب الحقّ لا تثبّط همّته خيبةُ أمله في جمهوره، بل هي حافز لَه.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الباب الثاني

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

* مقدمة:

إنّ كثـــرة كـــتّاب المقالة، ولا سيما في بعض الأنواع، تجعل الكاتب يحار، أيّها يثـــبت، وأيها يختار، **فالأسماء كثيرة، والأعلام كثر**، أينتقي المشهورين الذين يقرأ لهم الجمـــيع، أم أنـــه يخـــتار لبعض الذين أُهملوا قليلاً عن قصد أحياناً، وبلا قصد أحياناً أخـــرى؟ ألا يحقّ لهؤلاء أن يكونوا ضيوفاً على بعض الكتب التعليمية ليتعرّف الطالب أسلوبهم بعد معرفة بعض الأسطر عن حيواتهم التي كان لها دورٌ في كتاباتهم، بلى؟

ويأتيك السؤال الآخر: من أي البلاد نختار، أنُبقي على ما عُرِف في مصر ولبنان وذُكـــر في معظـــم المراجع، أم نوسّع المكان قليلاً؟ وتقع - مرة أخرى - في حيرة من أمرك، إنّ في هذين البلدين كتاباً - بلا شك - مشهورين، لكنهم معظمهم أخذ حقّه، في حـــين بُخس حقّ الكثيرين من البلاد الأخرى، وربما عاد هذا الأمر إلى بُعْد المسافة الثقافية بين البلاد متساوقة مع بُعْد المكان الجغرافي، وفي **هذا** ظلمٌ للكثيرين، مع أننا لا نجـــد أعلامـــاً في بقية البلاد الأخرى إلا القلّة التي تميّزت **فانصهرت** مع غيرها، **لكن الملاحظ أنّ الكتّاب السوريين كثر لكنّ حظّهم قليل، فإما أن يكونوا قد خرجوا من حلبة السباق لسبب نقدي، وإما أنّ من كتب في المقالة قد قصّر في النظر والقراءة، ونحـــن نرجّح الثاني؟ لأنّ في سورية عدداً كبيراً من كتّاب المقالة اشتُهروا، وكانت لهـــم مـــؤلفات كثيرة، لذلك وجدتنا نميل إلى انتقاء بعض المقالات لهم، لا تعصّباً لبلدي، بل للكتابة وليأخذ كل واحد حقّه من النقد، والتحليل، وليكون في مصافّ أولئك الأدباء الذين خَدَمهم أصحاب بلدهم، وصحافتهم وإعلامهم.**

وقـــد يكـــون صعباً أن نثبت في كتاب تعليمي جامعي معظم المشهورين في معظم الـــبلاد العـــربية، لأنّ عددهم كبيرٌ جداً، لذلك سنختار بعض الأسماء المتنوعة لتلائم أنواع

المقالة. ونكون قد حققنا الفائدة المرجوة من الكتاب المقرّر، وهي الاطلاع الجيد من خلال التنوّع في الأسماء والموضوعات والعناوين، وإذا كانت أسماء مشهورة قد أهملت فلأنها ذُكرت، أي أخذنا بعض حقّها في السنة الثانية (كتابي السنة الثانية - القراءة والتعبير)، وحاولنا أن نثبت للكاتبات مقالاتٍ ليطّلع الطالب على النوع الآخر من الكتابة.

وما من شك في أن الأسماء كثيرة يصعب حصرها ولا سيما في الوقت المعاصر بعد هذا الانتشار الواسع لكتّاب المقالة، فيقع الإنسان في الحيرة، لمن يختار؟ ومن يترك؟ فثمة أسماء كثيرة - كما تقدّم - مثل: **د. أحمد زكي، أحمد لطفي السيد، باحثة البادية، جبران خليل جبران، جرجي زيدان، حسين هيكل، زكي الأرسوزي، زكي نجيب محمود، سامي الكيالي، شكيب أرسلان، طه حسين، عباس محمود العقاد، عبد الرحمن الكواكبي، عبد العزيز البشري، عمر فاخوري، لبيبة هاشم، محمد عبده، مصطفى لطفي المنفلوطي، مصطفى الرافعي، مي زيادة، ميخائيل نعيمة...**

هذا غير الأعلام الذين ما زالوا على قيد الحياة، وسنثبت لبعضهم وربما أثبتنا مقالات لعدد منهم للاطلاع الإضافي يكون في صفحة واحدة على الأقل تزيد من ثقافة الطالب ومعرفته ويدرّب أسلوبه بعد قراءتها.

*** مع ملاحظة أنّ:**

١- ثمة أنواعاً من المقالة يكتب فيها كثيرون.

٢- ثمة أنواعاً من المقالة لا يكتب فيها إلاّ المختصون.

٣- بعض الكتاب يكتب في غير نوع من أنواع المقالة.

أما طريقة عرض المادة فتكون إثبات النص/المقالة مع تعريف موجز لصاحبه قد يُعين قليلاً في فهم شخصية الكاتب. والتعليق عليه من حيث معانيه، وأفكاره، وأسلوبه، ولغته، ثم إثبات عدد من الأسئلة ليشارك الطالب بنفسه في الفهم كيلا يكون المتلقي فحسب.

الفصل الأول

نماذج من المقالة الذاتية

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

— ١ —

المقالة الساخرة

«الصورة الشخصية»

حلاق القرية

إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠-١٩٤٩):

- ولد في مصر ١٨٩٠.
- درس في مدرسة المعلمين، عمل في الصحافة وكان بارعاً في الترجمة عن الإنكليزية.
- يعدّ من الأدباء المعاصرين الكبار، ومن كبار الكتّاب الذين جدّدوا.
- نظم الشعر، وله معان جميلة ابتكر بعضها من أدب الغرب.
- كان يتصف بقدرة فائقة على الحفظ.
- عمل في جريدة الأخبار، والبلاغ والأسبوع.
- عُرف بحسن المعاشرة ودماثة الأخلاق لذلك.
- يغلب عليه روح المزاح والدعابة، وغلبت عليه النكتة.
- عضو مجمع اللغة بدمشق والقاهرة.
- له مؤلفات كثيرة جداً، أشهرها:

«حصاد الهشيم، إبراهيم الكاتب، رحلة الحجاز، غريزة المرأة، شعر حافظ... وغيرها كثير».

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

حلاق القرية

إبراهيم عبد القادر المازني

وقعت لي هذه الحادثةُ في الرِّيفِ، منذُ سَنوات عَديدة، قبلَ أنْ تتغلغلِ المَدينةُ إلى أنـأى قُـراهُ وكُنتُ أنا الجَاني على نَفسي فيها، فقدْ عَرَضَ عليَّ مُضيفي أنْ أستعمِلَ موسـاهُ فأبيتُ، وأصررتُ أن يَجيءَ حَلاّقُ القَرية. فجاءَ بعدَ ساعاتٍ يَحملُ ما ظَننتُهُ في أوّلِ الأمرِ **«مخلاةَ شعيرٍ»** وسَلَّمَ وقَعدَ، وشَرعَ يُحيِّيني ويُحادثني حتّى شَككتُ في أمـرِهِ، واعـتَقدتُ أنَّ الحَـلاّقَ شَـخصٌ آخرُ، وأنَّ هذا الجالسَ أمامي لَيسَ سِوى «طَلائِعـه»! ولمّـا عِيلَ صَبري سألتُهُ عن حَلاّقِ القَريةِ، فابتَسَمَ ومَشّطَ لحيَتَهُ بكَفِّه، وأنبَأنـي أنَّ الحَـلاّق **«مَحسُوبي»** يَعني نَفسَهُ؛ فَلَعَنْتُهُ في سِرّي، وسألتُهُ مَتى يَنوي أن يَحلِـقَ لي لِحيَتي. فلم يَفهمْ. فظَنَنتُهُ أصمَّ وصِحتُ به: **«أ. ر.. يد أنْ... أ... ح... ل... قَ...»**!.

فـسَرَّهُ صِياحي جِدّاً وضَحِكَ كَثيراً وأقْبَلَ على **«مخلاتِه»** فأخرَجَ منها مقصّاً كَـبيراً جِـدّاً، فدَنَوتُ من أذُنِه وسألتُهُ: **«هَل في القَريةِ فيلٌ؟»** فقالَ: **«فيلٌ! لماذا؟»** فأشرتُ إلى المِقصِّ، فضَحِكَ وقالَ: **«هذا مِقصُّ حَميرٍ، ولا مُؤاخَذَة!»**.

فقُلـتُ: **«ولمـاذا تَجيئُني بمِقصِّ الحَميرِ؟ أحِماراً تَراني؟»** ويَظهرُ أنَّ مُعاشَرَةَ الحَميرِ **«بَلّدتْ»** إحساسَهُ، فإنَّهُ لم يَعتَذرْ لي ولا عَبأ بسُؤالي شَيئاً، ثُمَّ أخرَجَ مُوسَى من طِـرازِ المِقصِّ و**«ماكِنَة»** مِنْ هذا القَبيلِ أيضاً، فعَجِبْتُ لَه لِماذا يَجيءُ إليَّ بكُلِّ أدوات

الحَمير! وسألتُهُ عن ذلكَ، فقالَ: «**إنَّ اللهَ معَ الصَّابرينَ**».

وبعـــد أن أفرغ مخلاته كلها انتقى أصغر الأدوات، وأصغرها أكبر ما رأيت في حـــياتي، ثم أقـــبل علـــي وقـــال: «تفضل». قلت: «ماذا تعني؟» قال: «اجلس على الأرض». قلـــت: «ولماذا بالله؟» قال: «ألا تريد أن تحلق؟» قلت: «ألا يمكن أن أحلق وأنـــا قاعد على الكرسي؟» قال: «وأنا؟» قلت في سري: «**وأنت تذهب إلا جهنم، ونعـــم المـــصير!**» وهـــبطت إلى الأرض كما أمر، ففتح موسى كالمبرد، فقلت: «إن وجهـــي ليس حديدا، يا هذا!» قال: «لا تخف، إن شاء الله!» ولكني خفت بإذن الله! ولا ســـيما حين شرع يقول «**باسم الله... الله أكبر**» كأنما كنت خروفا؛ ويبصق في كفه، ويشحذ الموسى على بطن راحته.

ثمَّ جَذَبَ رأسي: فَذُعِرتُ ونَفرتُ وَولَّيتُ هارباً إلى أقصَى الغُرفةِ، فقالَ: ماذا؟ قُلـــتُ: مـــاذا؟ أتُريدُ أن تَحلِقَ لي بمِبرَدٍ؟ ومِن غيرِ صَابونٍ؟ قالَ: ماذا يُخيفُكَ؟ قُلتُ: يُخـــيفُني؟ لَقدْ دَعوتُكَ لتَحلقَ لي لحيَتي لا لتَبرُدَ لي شَعْرَها. قالَ: يا أفَنْدي، لا تَخفْ. وأســـلَمتُ أمـــري للهِ، وُعدْتُ فقَعدْتُ أمامَهُ فَنهضَ على رُكبَتيهِ، وتَناوَلَ رأسي بينَ كَفَّـــيهِ، وأمـــالَ صُدغِي إليه، ثُمَّ وَضَعَ رُكبَتَهُ على فَخْذي، ولَفَّ ذِراعَهُ حَولَ عُنُقي، فَـــصارَ فَمـــي مَدفوعاً في صَدرِه، فَصِحتُ أو على الأصَحِّ جاهَدتُ أريدُ الصِّياحَ لعَلَّ أحداً يَسمَعُني فيُنجِدُني؛ غيرَ أنَّ طَيَّاتِ ثَوبِهِ كانَتْ في فَمي؛ أمَّا رائِحةُ الثَّوبِ فبِحَسَبِ القَارِئِ أنْ يَعلمَ أنَّها أفقَدَتْني الوَعيَ.

ولا أُطيلُ على القَارِئِ. فقد أهوَى الرَّجلُ بمُوساهُ على وَجهِي، فَسَلَخَ قِطعةً من جِلـــدي، فَردَّني الأَلمُ إلى الحَياةِ وآتاني القُوَّةَ الكَافيةَ للصُّراخِ، على الرَّغمِ من الكمامَةِ؛ وَوَثـــبتُ أُريـــدُ البَابَ، ولكنَّهُ كانَ على كِبَرِ سِنِّهِ أسرَعَ منِّي؛ وما يُدْريني، لَعلَّه كانَ يَتوقَّعُ ذلِكَ، وعَسَى أن يَكونَ الُمرونُ قد عَلَّمهُ أن يَكونَ يَقِظاً لأمثالِ هذه الُمحاوَراتِ، فَردَّني بقوَّةِ سَاعِدِه. فتَذكَّرتُ قولَ الُمتَنبِّي:

«وإذا لَـمْ يَكُـنْ مِنَ المَوتِ بُدٌّ فمِـنَ العَجزِ أن تَموتَ جَبانا»

* * *

كلاَّ! سأُسْدِلُ السِّتارَ على هذا المَنْظَرِ الَّذي يَقِفُّ له جِلدي، على كُرورِ السِّنينَ الطَّـويلةِ! ثُـمَّ جاءَ هذا السَّفّاحُ بطِشْتٍ يَغْرَقُ فيه كَبشٌ، وَوَضَعَهُ تَحتَ ذَقني وصَبَّ ماءَهُ على وَجهي، وفي صَدري، وعلى ظَهري، ليَغْسِلَ الدَّمَ الزَّكيَّ الذي أراقَهُ؛ وأخرَجَ مِـن مِخلاتِـهِ «مِنشَفةً» هيَ «بِمِمْسَحة» الأرضِ أشبَهَ. فاعْتَذَرتُ وأخرَجتُ مِنديلي وسَبَقتُهُ به إلى وَجهي. فهيَ مَعركةٌ لا تَزالُ بجِلدي منها نُدوبٌ وآثارٌ!...

❖ ❖ ❖

١- التعليق:

١- إنَّ رسـم الشخصية يحتاج من الكاتب أن يكون **دقيق النظر**، يملكُ حاسة النظـر البعيدة العميقة ليدقق في كلّ ما يريد رسمه لصاحب الصورة، ولا يستطيع كلُّ واحـد مـنا أن يصف أي شخص لمجرد أنه يعرفه، بل **إنَّ الوصف يحتاج من الكاتب معجماً جيداً** فيه الدقة في الوصف، وهذه الدقة تحتاج إلى **لغة خاصة**، ويحتاج منه أيضاً **قـدرة على التشبيه**، لأنَّ التشبيه من أهم مميزات رسم الصورة، يضاف إلى هذا ميزة **المعـرفة الإنسانية** التي تبدو من عيني الشخصية، وتصرفاته وأعماله، وهو بحاجة دائماً إلى المقارنة، **ولا شكّ في أنَّ لكل شخصية صورة قد تكون جميلة أو قبيحة، جيدة أو سـيئة** وللكاتب دور في رسم حدود هذه الشخصية وإعطائها ما تستحق ، وكثيراً ما كان رسم الشخصية مضحكاً (كاريكاتورياً) ليجذب الكاتب قارئه...

والنص الذي بين أيدينا من النصوص المشهورة في وصف الشخصيات، فالكاتب إبـراهيم المازني استطاع أن يعطينا صورة لحلاّق القرية في خلال عمله، وهو لا يريد وصف الوجه أو الجسد، إنما يصف رجلاً يعمل في حادثة وقعت له نفسه فقد ظنَّ أنَّ ما يحمله من أغـراض قـد وضع في «مخلاة شعير» ومخلاة الشعير هذه هي الكيس القماشي الذي كان الفلاحـون يضعونه في رقبة الدواب وفيه طعام تتناوله الدابة. فلم يعرفه وهو يحدثه فخاف منه وظهر هذا في قوله «أريد أن أحلق» التي كتبت مُقطَّعة من الخوف.

وشرع يصف عملية الحلاقة التي بدأت بإخراج مقصّ كبير ثمَّ بقية الأدوات التي ظهر علـيها العتق والقِدم وكبر الحجم. ثم صوَّر في خلال الحوار عملية الحلاقة التي أبدع الكاتب في وصـفها، مـثل جلوسه على الأرض، وهروبه إلى أبعد مكان في الغرفة ثم وَضْع الحلاق رأس الكاتب بين كفّيه.. ثم إلى آخر العملية التي شبهها بعملية جزّار يريد ذبح شاة...

٢- الأسلوب:

بـــدا في الـــنص **أسلوب السخرية**، وظهر هذا في بعض الجمل والتعابير: **مخلاة شعير، هذا مقصّ حمير، ولا مؤاخذة، الحوار الذي جرى بين الكاتب والحلاّق عندما أراد مـــنه أن يجلس على الأرض، ويبصق في كفّه، يشحذ الموسى على بطن** راحته، **أما رائحة الثوب فبحسب القارئ أن يعلم أنها أفقدتني الوعي.**

٣- الجمل:

١- غلب على النصّ **الجمل القصيرة**، ولا سيما في الحوار.

٢- إن العملـــية التي يصفها الكاتب تجعله يلتزم استعمال الجملة الفعلية، لأنها تدلُّ على أعمال فيها حركة.

٣- اســـتعمال العطـــف بين الجمل وهذا أعطاها سرعة في القراءة تناسب سرعة الحركة في عملية الحلاقة مثل:

- ثم جذب رأسي، فذُعرت، ونَفرْتُ، وولّيتُ هارباً...
- وأســـلمت أمري لله، وعدت فقعدت أمامه فنهض على ركبتيه وتناول رأسي بين كفيه، وأمال صدغي...
- ثم جاء هذا السفاح بِطِشْت يغرق فيه كبش، ووضعه...

٤- الألفاظ:

أجـــاد المـــازني في اختيار الألفاظ لوصف هذه الشخصية وعملها فهو يعرف أدوات الحلاّق لكنها في النص كانت غير المعروفة وأجاد تشبيهها بغيرها.

استعمال **الألفاظ السهلة** القريبة جداً من العامة...

وزاد من جمالها **بعض الألفاظ** الساخرة المأخوذة من الشارع العام، وكذا الحوار وهذا ما جعل الحركة في النص جميلة سريعة مضحكة..

«أسئلة»

١- حدد عناصر النص الرئيسية.

٢- ماذا أضاف الحوار على النص؟

٣- هل وفّق الكاتب في مقالته؟ إذا كان الجواب نعم، فما الطريقة التي استعملها؟

٤- إذا أردت أن تـــصف أنت الآن حلاقك فهل ستكون مثل المازني؟ أقم مقارنة بين ما قرأته وبين حلاق هذا العصر، في مقالة تكتبها.

٥- اكتب مقالة أخرى في معنى بيت المتنبي الذي استشهد به المازني.

٦- أعرب من النص المقطع التالي: «وشرع يحييني... نفسه» مفرداتٍ وجملاً.

جامعة دمشق Damascus University

-٢-

مقالة النقد الاجتماعي

إحياء البنات

وداد سكاكيني (١٩١٣-١٩٩١):

- ولـدت في صيدا/لبنان ١٩١٣ وتخرجت في كلية المقاصـد بـبيروت، ثم عملـت في التعليم وبعض الأعمال الإدارية.
- انتقلت مع زوجها الشاعر د. زكي المحاسني ١٩٣٤ إلى دمشق ثم القاهرة ١٩٤٦، وهناك اتصلت بكبار الأدباء وأعلام المفكرين، ونشرت عدداً من الكتب. مـنها القـصة: إذ لهـا خمس مجموعات قصصية، وروايـتان تـناولت فـيها - جميعاً - سير الناس وصورهم وطبائعهم من أجل جنسها، كما كان لها اهتمام بالسيرة الذاتية ونقد الأدب... وغيرها.
- كـان لها اهتمام بالمقالة فقد أصدرت ١٩٣٢ أول كـتاب عنوانه «الخطوات»، ثم جمعت مقالاتها التي كانـت تنـشرها في كتب أخرى منها: سواد في بـياض، نقـاط علـى الحروف، سطور تتجاوب، إنصاف المرأة.
- تميّـز أسـلوب وداد سكاكيني بالجرأة والصراحة ورصـانة العبارة، وقوة السبك، ومتانة الأسلوب، وشـهد لهـا كـبار الأدباء كالعقاد، وطه حسين، والزيات، والأمير الشهابي.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

إحياء البنات

وداد سكاكيني

لَحا اللهُ زماناً كانُوا يَقولونَ فيه: وأْدُ البَناتِ من المَكرُماتِ، لكأنّي أتخيَّلُ أيّامَه السائدةَ فأرى على جَهامتها في جاهليَّةٍ جهلاءَ، امرأةً فاجأها المَخاضُ تحتَ خباءٍ بَعيدٍ في ليلةٍ ذاتِ هَريرٍ، فلمَّا وَضعتْ حَمْلَها اشتدَّ بُكاؤُها، لا من مَواجعِ الطَّلْقِ الأليمِ، وإنَّما من هَولِ الوأدِ الفَظيعِ إذا كانَ حَملُها أنثى ولَيسَ الذَّكرُ كالأنثى عندَهم في ذلكَ الحِينِ، فأخذَتْها بينَ يَدَيها بلَهفةٍ وخَشيَةٍ، وضَمَّتها إلى صَدرِها بحَسرةٍ وقالَت لَها: أبدَ الدَّهرِ، لن تُوْءَدي أو أُقتلَ معكِ يا بُنيَّةَ...

وأقبلَتِ العَشيَّةُ على والدةٍ مَطويَّةٍ على كَبدٍ حرَّى، وقلبٍ تَتفطَّرُ له السَّماءُ، ووالدٍ مُسودِّ الوَجهِ كَظيمٍ، بينَ يَديهِ وَليدةٌ ساخنةُ اللَّحمِ باكيةٌ، وقد تَوارَى بالظَّلامِ وفَزِعَ إلى حُفرةٍ قَذفَ بفلذةٍ من كَبدِهِ في جَوفِها، ودَسَّها في تُرابِها، ثمّ نَفضَ يَديهِ منها، ونَهضَ مُستَريحاً من تَعييرٍ مُرٍّ، وهمٍّ فادحٍ، وما هُو إلاّ في الخَيالِ المُختلِّ، والعَقلِ المَدخُولِ والقَلبِ الغَليظِ. ولم يَكن هذا الوأدُ الفَظيعُ مَقصُوراً على طَوائفَ من النَّاسِ مُتقاعسةٍ في حَياتِها، مُسفَّهةٍ في عُقُولِها ومُيولِها، بل كانَ شائعاً عندَ قُدماءِ اليُونانِ، إذ كانَتْ تَقضي عندَهم بعضُ التَّقاليدِ الدِّينيَّةِ أن يقدِّمُوا بنتاً من أجملِ بَناتِهم قُرباناً للآلهةِ، وفي إحدَى حُقولِهم الرَّائعةِ، ومَثَلُهم الفَراعنةُ الَّذين كانُوا يُقدِّمونَ عَروساً من أبهَى فَتَياتِهم ليُلقُوها إلى النِّيلِ يومَ فَيضانِهِ، وقد ابتَلى فَريقٌ من العربِ في جاهلِيَّتِهم

السَّحيقةِ بكُرهِ البَناتِ إذ كانُوا يَرونَهنّ وبالاً عليهم لفَرطِ ما جَسُمَ لهم الوَهمُ من خَطَرِ وُجودهنّ، ووَصمةِ العَارِ إذا فَسَدَتْ حَياتُهنّ وتَداوَلتهنّ أحداثُ الحَربِ والأيَّامِ من سِباءٍ وحِرمانٍ وهَوانٍ، ولقد بَلَغَ من زرايتهم بالإناثِ أن حَرموا عليهنَّ الميراثَ قبلَ الإسلامِ، فكانُوا يَقولونَ: **لا يَرثُنا إلاَّ من يَحمي الحِمَى ويَذودُ عن قَومِه بحدِّ السَّيفِ،** على أن السَّائدَ لدَى المُتتبِّعينَ لأخبارِ العَربِ وأشعارِهم أنَّ جِنايةَ الوأدِ لم تَكنْ مَعروفةً إلا في قَبائلِ قَلائلَ من كِندةَ وتَميمَ ورَبيعةَ، وكانَ الحافزُ لاقترافِ هذا المُنكرِ سَفاهةَ الرَّأي فيهم وفَسَادَ التَّخيُّلِ وإباءَ الضَّيمِ، ولا جَرمَ في أنَّ جَريمةَ الوأدِ هذه بصرفِ النَّظرِ عن فَظاعَتها شيءٌ غيرُ يَسيرٍ من الحُبِّ والإشفاقِ، **ثمَّ أليسَ على قَدرِ الحُبِّ تَكونُ التَّضحيةُ؟**. ولقد كانَ الوائدُ إمَّا فَقيراً حَقيراً، غليظَ القَلبِ يَقتلُ أولادَه سَفهاً بغيرِ علمٍ وخَشيةَ إملاقٍ، أو مَيسوراً ولكنَّه فقيرُ العَقلِ يَخشى العارَ والذُّلَّ وَهماً إلى حَدِّ الجُنونِ، إذ إنَّ غُلوَّه في الحِرصِ على كَرامةِ بِنتِه كانَ يُصوِّرُها له بأشنَعِ الصُّورِ وإليكَ أبياتاً تُصوِّرُ أعرابيَّاً يَتهافتُ حَناناً وإشفاقاً على بِنتِه، ويَتمنَّى مَوتَها خَوفاً من تَبذُّلٍ يُزري بها وهَوانٍ تَصيرُ إليه بعدَه:

لَولا أميَّةُ لَمْ أجزَعْ مِنَ العَدمِ ... ولَم أجِبْ في اللَّيالي حِندِسَ الظُّلَمِ

وزَادَني رَغبةً في العَيشِ مَعرفَتي ... ذلَّ اليَتيمةِ يَجفُوها ذَوو الرَّحِمِ

يَهوَى بَقائي وأهوَى مَوتَها شَفَقاً ... والمَوتُ أكرَمُ نَزالٍ على الحُرَمِ

أحاذِرُ الفَقرَ يَوماً أن يَلمَّ بها ... فَيَكشِفَ السِّترَ عن لَحمٍ على وَضَمِ

إذا تَذكَّرتُ بِنتي حِينَ تَندُبُني ... فاضَتْ لِرَحمةِ بِنتي عَبرَتي بدَمِ

ومَهما يَكنْ من هذا القَولِ، فإنَّ جَريمةَ الوأدِ في تلكَ العُهودِ المُظلمةِ من المَظالمِ والجَرائمِ الَّتي ما اجترَمَها غيرُ الحَمقى والغاشمينَ، **وقد يَكونُ أوَّلُ من سَنَّها ودَعا إليها ناقماً من المَرأةِ أو حاقِداً عليها،** ولا رَيبَ في أنَّ أثرَ الوأدِ في قُلوبِ الأمَّهاتِ، كانَ أشدَّ من طَعنِ الحِرابِ ووَخزِ السِّنانِ، وما أشدَّ ما نقَمَ عُقلاءُ العَربِ وسُراتُهم من هذه

المَظلَمـــةِ الغاشِـــمةِ في الضَّحايا المَوؤودات، فكانوا يَفتَدونَ الوَلائدَ بالمالِ ويَستوهِبونَ حَـــياتَهنَّ بالمَعـــروفِ والإحسانِ، ومن أشهرِ المُفتَدينَ صَعصَعةُ التَّميميّ، جدُّ الفَرزدَقِ شاعرُ بني أميَّةَ القائلُ:

وجَـــدِّي الَّـــذي مَنَع الوَائداتِ وأحْـــيَا الوَئـــيدَ فلـــم يُـــوءَدِ

فلمَّـــا أشرقَتْ دُنيَا العَربِ بنُورِ الإسلامِ، عَدَّ الوأدَ من الكَبائرِ والمَناكِرِ، وأشارَ القُـــرآنُ الكَريمُ إلى المَوؤُودة برَحمةٍ ونَصفةٍ بقَولِه: ﴿ وَإِذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ● بِأَيِّ ذَنْبٍ قُـــتِلَتْ﴾ فبرأَ الدِّينُ نُفوسَ المُهتَدينَ من مآثِمِ الجاهليَّةِ وكلِّ ظَنٍّ مرجمٍ، وأنزلَ اللهُ آياتِه البيِّـــناتِ تَسخُّطاً على الوَائدينَ وتأنيباً لمَنْ يَكرَهُ البَناتِ، ولكنَّ قوماً تَعوَّدوا هذا الكُرهَ فمـــا نَزعُوهُ من صُدورِهم المُوَسوَسة، إذ سَرَى في أعراقِهم وَجالَ في أجيالِهم، فدَرَجُوا علـــى مُجافاةِ الإناثِ، فكانَ إذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى تَشاءَمَ ونَقِمَ، أو تَوارَى من القَومِ مـــن سُـــوءِ ما بُشِّرَ به، وكثيراً ما أدَّتْ وِلادةُ البنتِ عندَهم إلى شِجارٍ ونِقارٍ، بل إلى هُجـــرانٍ وطَلاقٍ، وقد اتَّفَقَ أنَّ أعرابيَّةً كانتْ مِئناثاً، فلمَّا وَلدَتْ بِنتاً هَجرَها زَوجُها، ولكنَّه جاوَرها فكانَت تُناغِي الوَليدةَ بهذه الأبياتِ:

مـــا لأبي حَمـــزَةَ لا يأتيـــنا يَظـــلُّ في البَـــيتِ الَّـــذي يَليـــنا
غَـــضْبانَ أنْ لا نَلـــدَ البَنيـــنا تـــاللهِ مـــا ذلـــكَ في أيدينـــا
وإنَّمـــا نأخُـــذُ مـــا أُعطيـــنا ونَحـــنُ كالـــزَّرعِ لـــزارِعينا
نُنبتُ مـــا قَـــدْ زَرعُـــوهُ فيـــنا

فمـــا يَكـــادُ يَسمَعُ زَوجُها هذه الأبياتِ، حتَّى يُسارِعَ إليها وإلى طِفلَته قائلاً: ظَلمتُكُما وربِّ الكَعبة!.

ولَئنْ نَهى الشَّرعُ الحَنيفُ عن وَأدِ البَناتِ، فإنَّ نُفوسَ العَربِ بَقيتْ تُجافيهنَّ في الطُّفـــولةِ وفي المُعاملـــةِ، فكانُـــوا يأنَفُونَ من مُلاعَبتِهنَّ طفلاتٍ، ويتأبَّونَ أن يَسْرَحْنَ ويَمْـــرَحنَ بينَ أيديهمْ، ولا يَجرُؤونَ على اللَّعبِ أمامَهم، أمَّا الرَّسولُ عليه السَّلامُ فقد

تأبَّى على ذلكَ إذ كانَ يَحنُو على بَناتِه وبَناتِ صَحبِه، ولا يَتحافَى عن مُناغاتهنَّ والرِّفقِ بهنَّ صُغريات وفَتيات، وبَذلِ الرَّحمةِ لهنَّ والمَعونة، فلمَّا رأى المُؤمنونَ أنَّ «محمَّداً» أبرُّ بالبنتِ من أبيها وأنَّ اللهَ لم يَختصَّ فاطمةَ الزَّهراءَ بنتَ مُحمَّدٍ بذُرِّيَّته الشَّريفة إلاَّ تَكريماً للإناث ورَفعاً لشأنهنَّ أخَذوا في بَرِّهنَّ، والحَدْبِ عليهنَّ، ولقد حَدَّثَ سعدُ بن أبي وَقَّاصَ الفَاتحُ العَظيمُ وأحدُ أبطالِ المُسلمينَ أنَّه مَرِضَ بمكَّةَ مَرَضاً أشرَفَ منه على المَوت، فلمَّا عادَهُ الرَّسولُ عليه السَّلامُ سألَه سَعدٌ: إنَّ لي يا رَسولَ اللهِ مالاً كَثيراً، وليسَ يَرِثُني إلا بنتي، فهلْ أتصَدَّقُ بثُلُثي مالي؟ قالَ مُحمَّدٌ: لا، ولمَّا سألَهُ سَعدٌ قائلاً: فالثُّلث؟ قالَ الرَّسُولُ: الثُّلثُ كَثيرٌ! إنَّكَ إنْ تَركتَ وِلدَكَ أغنياءَ خيرٌ من أن تَترُكَهم عالةً يتكفَّفونَ النَّاسَ...

وقيلَ إنَّ عمروَ بنَ العاصِ رأى مُعاويةَ بن أبي سُفيانَ يُضاحِكُ طِفلَته، فتبرَّمَ ابنُ العَاصِ بهذه المُلاطَفة وقالَ للخَليفة:

فواللهِ إنَّهنَّ يَلدنَ الأعداءَ، ويُبعدنَ الأقرباءَ، ويؤدِّينَ الضَّغائنَ...

فقالَ مُعاويةَ: لا تَقُلْ... فما نَدَبَ المَوتى، ولا تَفقَّدَ المَرضَى، ولا أعانَ على الحُزنِ مثلهُنَّ...

وتعَاقَبتِ الأيَّامُ والأحقابُ، فتطوَّرتِ العُقولُ، وتَداولتِ النِّساءُ أشتاتَ التَّقادير، فأهملهنَّ قَومٌ غايةَ الإهمالِ، وأحلَّهنَّ شَعبٌ مَحلَّهنَّ من الحُرمةِ والكَرامة، فما فَرَّق بين الجنسينِ في الحُقوقِ والواجبات، حتَّى صَارَ من النِّساءِ في بعضِ الأممِ الرَّاقية المَلكةُ والرئيسةُ، والحاكمةُ والزَّعيمةُ، دُونَ أيِّ استغرابٍ أو استهجانٍ من النَّاسِ، وتَبَدَّلَ نَظرُ الرِّجالِ إلى المَرأةِ طَوعاً أو كُرهاً، فما خَفَّتْ مَوازينُها إلاَّ عندَ فَريقٍ لا يَزالُ مُستأثراً مُحتَكِراً، وعلى الرَّغمِ من كلِّ تَطوُّرٍ حَياتنا الفكريَّة والاجتماعيَّة فإنَّ في هذه الأمَّة المُتحرِّرةِ المُؤمنة، أناساً ما بَرِحُوا يُردِّدُونَ سِرَّاً وعَلانيَّةً: **هَمُّ البَنات إلى المَمات**...

وقد يَكونُ بعضُ الحَقِّ مع هَؤلاءِ القَلقينَ، لأنَّ أوضاعَنا الاجتماعيَّةَ والسِّياسيَّةَ لم

تَـستقرُّ على حَالٍ، ولم تَنتَظِمِ الثّقافةُ كافةَ النّاسِ، على أنّ الأثرَةَ الجنسيَّةَ، والحكرةَ في الحُكــمِ والتّوجيهِ، تتجلّيانِ في الطّبقةِ الدُّنيا الّتي يَسُودُها الجَهلُ والتّقليدُ، ولكمْ حَدَّثَتْ أحاديــثَ وعايَنْتُ مَشاهدَ حَولَ التَّجهُّمِ للبَناتِ والاستخفافِ بشُؤونهنَّ ووُجودهنَّ، فَمِــنْ تَهديدٍ وَوعيدٍ للزّوجاتِ الحُبْلياتِ، ومن هُجرانٍ وطَلاقٍ بعدَ الوَضْعِ والولادةِ، ومِــن نَقمــةٍ وتَــشاؤمٍ، إلى تَحــذُّرٍ وتَكــدُّرٍ، كــلُّ هذا تَراهُ وتَسمَعُه تَذمُّراً من الإنــاثِ، وتَنكُّــراً لهنَّ بغيرِ حَقٍّ، فتعجَبُ لهذا الإنسانِ الواهمِ الغاشمِ، يَسلُّ سَيفاً من خَشَبٍ في وَجهِ الخالقِ ويَنسَى قَضاءَه وقَولَ القُرآنِ: ﴿ **يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ**﴾.

وفي زمانِنا هذا بناتٌ يَبنينَ للحياةِ، تُوزَنُ الواحدةُ منهنَّ بألفٍ من البَنينِ، ولا سِـيَما الموَهوبَةُ النّابغةُ، والذّكيةُ المُبدعةُ، وفيهنَّ من تَعولُ أسرتَها وأهلَها، وتَحمي ذِمــارَ قَومِها، وتَخدمُ وَطنَها بفنِّها وعَبقريَّتِها أفما آنَ لَها في هذا الأوانِ أن تَخلُصَ مـــن امتهانِ الفُروقِ الجنسيَّةِ واستئثارِها واستبدادِها؟ ومَتى تَنتزِعُ الثّقافةُ العامَّةُ من عُقــولِ المُتعصِّبينَ أوهامَ الجاهليَّةِ المَوروثةِ، نحوَ هذا الجنسِ الأنيسِ الرَّحيمِ وقد كَتبَ لَه القَدَرُ منذ القَديمِ ظُلمَ الرِّجالِ، واستخفافَهم بقَدرِهِ وخَطَرِه.

فواعَجبــي لقَومٍ يَنسَونَ حُكمَ الخالقِ ويُخالفونَ عن أمرِه! ولقد ضَلَّ المُصلحونَ سَواءَ السَّبيلِ، إذ حَسِبُوا **أنّ تعليمَ المَرأةِ على اختلافِ بيئتِها ومَعيشتِها يَكفي وَحدَه لرُقــيِّ الشُّعوبِ، وفاتَهم أنّ تَعليمَ الرَّجلِ قَبلَها تَعليماً صَحيحاً وتَهذيبَ أثَرتِه، هو الّــذي يَكفــلُ الخَــيرَ والفَلاحَ، لكلِّ أمَّةٍ وإذا لم يَكنْ للدِّينِ وللحَضارةِ إلا حِمايةُ الإناثِ ورِعايةُ الأمورِ الّتي تَرفعُ شأنَهنَّ وتَحفظُ كَرامَتَهنَّ وجُهودَهنَّ لكَفاهُما فَضلاً.**

فمــا أجــدر إنــسان الــيوم وقد تطور وتعلم، أو تنور وتفهم بإحياء البنات وتقديــرهن تقديراً يعبر عن تجرده من أثرته الموروثة، ويعرب عن استجابته لروح الحق والعــدل، مــا يكفــي من الإحياء أن يتناول المظاهر والجسوم، وإنما ينبغي أن يتصل

بـــالأرواح والعقول فيبعث فيها العزة والكرامة، والهزة للخير والمعروف، وما تنفع في هـــذا ثقافـــة زائفة وتبرج وزينة، وتطور في الأزياء، **بل الإحياء كل الإحياء بانتزاع الأثـــرة الجنسية من ظلمات القلوب، وخلق للبنت جديد، يقطع** عنها لوم اللائمين والغـــاشمين، وتهكـــم المتربـــصين، فتحيا في ظل العلم والأخلاق، حياة تنفع الأسرة والمجتمع، وترفع شأن الأمة والوطن.

من كتاب «إنصاف المرأة - القسم الأول»
ص (٧٩-٨٥)

❖ ❖
❖

﴿الأسئلة﴾

آ - في المعاني:

١- عنوان المقالة «إحياء البنات» ولا شك في أن القارئ يعرف أن القصد من هذا العنوان، هو الدفاع عن البنات، وذم ما كان عند القدماء من «وأد البنات»، والسؤال: ما الطريقة التي اتبعتها الكاتبة لتأييد وجهة نظرها؟ هل وُفّقت؟ هل استطاعت أن تدخل ضمير الإنسان وقلبه؟!

٢- دخل في هذا النص فرعٌ آخر من أنواع الأدب، ما هو؟ وهل استطاعت الكاتبة التوفيق بينهما، أم أن أحدهما غلب الآخر؟

٣- يقرأ القارئ في هذا النص تراثاً قديماً، لماذا جاءت الكاتبة به، نثراً وشعراً؟

٤- إلام رَمَت الكاتبة من الاستشهاد بالقرآن الكريم وأقوال الرسول (ﷺ)؟

٥- جعلت الكاتبة «وأد البنات» جريمة، هل توافقها؟ اكتب مقالة في هذا.

ب - الأسلوب واللغة:

١- تميزت المقالة بلغة عالية برزت - خاصة - في الألفاظ.

ادرس الألفاظ من حيث: السهولة والصعوبة.

الجزالة والبساطة.

ولا سيما في المقطعين «وأقبلت العشية.. القلب الغليظ»، و«مهما يكن... يؤد».

٢- هل بدا على النصّ أنه لكاتبة لا كاتب وما الدلائل على ذلك؟ وهل يختلف الأسلوب بينهما.

٣- اضبط بالشكل المناسب المقطع الأخير «فما أجدر...».

٤- أعرب الأبيات الأولى التي استشهدت بها الكاتبة.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

عمر فاخوري (١٨٩٥-١٩٤٦):

- ولد في بيروت ١٨٩٥، وتلقى دراسته في الكلية العثمانية، ثم انضمّ إلى حركة النضال الوطني، وانتسب إلى حزب الاستقلال، وجمعية الفتاة السرية.
- ألّف كتابه الأول «كيف ينهض العرب» بعد الحرب العالمية الأولى.
- بدأ ينشر مقالاته في جريدة «الحقيقة» بتوقيع «مسلم ديمقراطي» ولما نالت سورية استقلالها ١٩١٨ دعاه الملك فيصل الأول لتحرير جريدة «العاصمة» في دمشق، ثم وقع الانتداب الفرنسي فغادر دمشق إلى فرنسا فدرس الحقوق والآداب والعلوم السياسية في جامعة السوربون.
- عاد إلى بيروت ١٩٢٣ ثم دُعي إلى دمشق فكتب في صحيفتين «المفيد» و«الميزان» اللتين أقفلهما الانتداب بسبب مناهضتهما الاستعمار الفرنسي فقفل من جديد إلى بيروت ونشر مقالاته في جريدة «الحقيقة» وأسهم في تأسيس مجلة «الكشاف».
- انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٢٧ وفي ١٩٤٠ اعتنق مبادئ الحزب الشيوعي وبعد معارك كثيرة في مسيرة الأحزاب، والانتخابات بدأ البرقان يحلّ جسده حتى مات ١٩٤٦.
- ترك عدداً من المؤلفات أكثرها فصول ومقالات تتناول بعض نواحي الأدب السياسي أو الاجتماع ومنها:
  - كيف ينهض العرب.
  - آراء غربية في مسائل شرقية.
  - الاتحاد السوفياتي في حجر الزاوية.
  - الفصول الأربعة.
  - الحقيقة اللبنانية.

-٣-

المقالة الوصفية

الأدب والمجتمع

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الأدب والمجتمع

عمر فاخوري

خطـــر لي، بـــادئ بدء، أن أجعل عنوان هذا الفصل «أديب في السوق»، أو «صيد نهار» وما كاد هذا الخاطر يستقر في ذهني، حتى تمثلتني مسلحاً بكل أداة صيد، صـــيد الـــبر وصيد البحر، أعدو في زحمة المدينة، خلف طيوف وشخوص، وأساطير ووقائـــع، ورموز وحقائق، مما تتألف منه هذه الحياة التي نحياها، أو هذا الوجود الذي نـــضطرب فـــيه. ثم رأيتني، وقد أدركتني العتمة، عائداً أدراجي إلى البيت، وأنا مثقل كالنحلة، بخبرة جديدة، من دنيوات لا عهد لي بها من قبل.

وبالفعـــلِ طاوَعْتُ نَزوةَ خاطِري، أنا المُتردِّد الكَسول الذي لم يخرجْ عمرَه مرَّةً إلى الصَّيدِ... وهَكذا وَجدتُني على الرَّصيفِ بأسرعَ من لمحِ البَصَرِ، مَدفوعاً بقوَّةٍ لا رادَّ لَها، كأنَّما تَحرَّكتْ في سُوَيدائي بغتةً طباعُ آبائنا الأوَّلين الذين كانُوا، على حدِّ قَولِ العُلمـــاء، قَنَّاصَةَ صيَّادين، قبلَ أن يُمارِسُوا الفلاحةَ والصِّناعةَ والتِّجارةَ... والتَّوظيفَ والجُنديَّةَ، وسِواها من المِهنِ – حرَّةً وغيرَ حرَّةٍ.

ولكـــنْ ائذَنُـــوا لي أن أقطعَ هنا سياقَ الحَديثِ، لأقصَّ عليكُم نَبأَ تَجربةٍ أولَى من هَـــذا النَّوعِ، لَستُ أزعُمُ أنَّها كانتْ مُوفَّقَةً، إلاَّ إذا كانَ الصَّيادُ الذي يخافُ الشَّماتةَ إذا رَجَـــعَ خالـــي الجِراب، فهو يَشتري صَيْدَه شِراءً، بدراهِمَ مَعدودات، يُعدُّ مُوفقاً. هي تَجـــربةٌ دُفِعتُ إليها بعامِلٍ بَسيطٍ جِدًّا، لا صِلةَ لَه بالكَسبِ ولا بِوراثَةِ الطِّباعِ الوَحشيَّةِ،

عـن إنسانِ الغاباتِ والكُهوفِ: لَقدْ أغرَتني بها هذه النظّاراتُ التي رَكِبَتْ أنفي، وتَعلّقتْ بأُذني، ولَصِقَت بذاتي، حتّى أكادُ أنسَى أحيَاناً أنّها أشياءُ مُستعارةٌ في حَياتي.

كـانَ ذلكَ لسَنوات خَلَتْ، وكَانَ أوّلَ عَهدي بحَملِ النّظارات أعالجُ ضَعفاً في البَـصرِ طَالَ العَهدُ به، واعتَقدتُ اعتقاداً جازماً بأنّه حَرَمني فَوائدَ ومَلذّاتٍ عَديدةً، لا يُحـصيها العَدُّ. ما أكثرَ ما مَنّيتُ النّفسَ بأن أشهَدَها، بفَضلِ زُجاجَاتي الحادِثة، ما لَم تَكُـن تَـشهدُ من حَالاتٍ وحَركَات، وأن أريَها ما لم تَكنْ تَرى من خُطوطٍ وألوانٍ. فكأنّهـا تَعرفُ الحَياةَ جُملةً، فستعرِفُها تَفصيلاً، أو كَانَت تَكتَنِه الوُجودَ مُختَلِطاً، في إبهامٍ وغُموضٍ، فستَكتنهه تفاريقُ في دِقّةٍ ووُضُوحٍ.

لَقـد كانَ ذلكَ اليَومُ يَوماً تاريخيّاً في حَياتي. أنا رَهينُ الكِتابِ، سأعرفُ الهَواءَ الطّلـقَ. سأخرجُ من مَحبِسي، كَما تَخرجُ فَراشةُ الحَريرِ من شَرنَقتِها... وجَلَستُ في «التّـرامِ» مَزهوّاً مُبتَهِجاً، أنظرُ يُمنةً، ثمّ أنظرُ يُسرةً، كَمَنْ يَفتحُ على الكَونِ عَينَي طِفلٍ جَديدتَين..

مـاذا كَانَـتْ نَتيجةُ صَيدي، في ذلكَ اليَومِ السّعيدِ من أيّامِ العُمرِ؟ لَقد دَوّنتُ خِـبرَتي الأولَـى، كَمـا يَعلّقُ الصّيادُ على جُدرانِ بَيته رُؤوساً وجُلوداً من حَيواناتٍ اصـطادَها.. أو لَم يَصطَدْها هو. دَوّنتها في وُريقَاتٍ طَفَتْ على لجِّ الزّمنِ، كَما تَطفُو حُطامُ السّفينةِ الغَريقةِ، قُلتُ:

عَـرفتُ في صِـبايَ، أعنِـي: في المَدرسةِ، فَتىً عِندَه من صِفاتِ الأنوثةِ، الرِّقّةَ والنُّعومةَ واللِّينَ، يَكادُ لا يَرفعُ نَظرَه إلى أحدٍ. فإذا رَفَعه، يحدِّثُكَ وتُحدِّثُه، لم يحدِّه فيكَ هُنَـيهةً قَـطّ، وثَغرُه يَتَبسّمُ. كان حَيياً كالعَذراءِ، التي لم تَختَلج - زَعموا - نَفسُها بعاطِفـةِ سُوءٍ، ولم تَعتَلجْ في حَواسِّها نارُ شهوةٍ. صافَحتُه اليَومَ على الماشي، قائلاً لَه على الطّايرِ: «كيفَ حالُك؟» فأجاب: «الحمدُ لله!» ومرَّ خَفيفاً لا تحسُّ الأرضُ وطأه إنْ تَكـن الأرضُ تحسُّ على ظَهرِها، دَبيبَ حيٍّ بينَ الأحياءِ... الآنَ وقد دَرَجَ الصّبيُّ،

وانطَـوَت - بعدَ صَحيفته - صَحيفةُ الشَّباب... الآن وقد انقَضَتْ سُنونَ طِوالٌ كانَ صَـاحِبُنا خِلالَهـا - يَقيـنا ! - في أسرِ الشَّيطانِ وتَحرِبَته، نَفسُه ميدانُ العَواطِف، وحَواسُّه وقودُ الشَّهوات، فهو ما زَالَ كما عَرَفتهُ، خافضَ البَصرِ كمَنْ يحدِّثُك خافضَ الصَّوت... ولو شَاءَ فَنَّانٌ صَناع اليَد، لَبِقُ الفكرِ، واسعُ الخَيال، أن يُمثِّلَ في صُورةٍ كلَّ مَعاني الخَفرِ أو الحَياءِ أو الطُّهرِ، لما أخرَجَ أحسنَ من هذه الصُّورةِ الحيَّة، وكأنَّها لوحةٌ فنِّـيةٌ تامَّةُ الأداءِ والتَّمثيلِ: صُورةٌ أنموذَجيَّةٌ وكَفَى. ما رأيتُه يَوماً إلاَّ ذَكَّرني تلكَ النَّبتةَ اللَّطيـفةَ الـتي إذا لَمسْتها طَفلةٌ بطَرفِ أنملها أطبقَتْ أوراقَها، وغَضَّتْ من أبصَارِها، ولهذا أطلَقَ العامَّةُ عليه اسماً لَطيفاً: «المُستَحيَّة». تَبارَكَ اللهمَّ الفنَّانُ العَظيمُ.

وأعرفُ رَجلاً عِندَه حنكَةُ ثَلاث شُيوخٍ على الأقلّ، جاوَزَ الخَمسينَ من سِنيّه، حتَّـى لم يبقَ في الكَونِ أو الحَياة، شَيءٌ يَصحُّ أن يَكونَ لَه مَدعاةَ دَهشة وعَجَب. بيدَ أنَّه لا يَزالُ كلَّ آنٍ وكأنَّهُ الآنَ وُلدَ. إنَّ صَاحِبَنا هذا لَيُحدِّثُكَ في أقربِ الشُّؤونِ إليكَ وإلـيه، وأمـسِّها بكَ وبه، ولكنْ على وَجهِه، أبداً في كلِّ حال، سِيماءُ الذي يَعجبُ العَجَبَ الشَّديدَ، منكَ ومن نَفسِه ومن الحَديث. يَعجَبُ إذا شَرِبْتَ أنتَ ماءً، ويَعجبُ إذا خَطَـا هو خُطوةً. وكأنَّ نَظراته ومَلامحَ وَجهِه، وهو يُكلِّمُكَ في الأمورِ البَسيطةِ التَّافهةِ المُبتَذلة، أصداءٌ مُرجَّعةٌ تَقولُ: «يا عَجباً! يا عَجباً!» وهذه صُورةٌ فَنِّيةٌ أنموذَجيَّةٌ، وهي أتقَنُ صُنعاً وأبرَعُ دَلالَةً من الصُّورةِ الأولى، إذ لو كانَ في نفسِ «المُستَحي» بَقيةُ حَـياء. يـصحُّ أن يكونَ في نفسِ «المُتعجِّب» أثرٌ من عَجَب... لكنَّ الفنَّانَ العَظيمَ، تَـبارَكَ وتَعالى، شَاءَ أن يُرَكِّبَ على كَتفي هذا المَخلُوقِ العَجيبِ رأساً مُستَعاراً، وأن يُحمِّلَـه في رَوحاتـه وغُدواتـه، وقيامِه وقُعودِه وسَائرِ حالاته، عَلامةَ الاستفهامِ (؟) الدَّائمـة، حتَّـى لـيمكنُ القَولُ: إنَّهُ يَتعجَّبُ أيضاً حين يتعجَّبُ حَقيقةً، أو أنَّه متى يَسألُك: «لماذا؟» مَثلاً، فأنتَ تَغتاظُهُ، كأنَّه يَقولُ لَك: «لماذا؟» مَرَّتين دَفعةً واحدةً... للهِ في خَلقِه شُؤون!

إنِّـي مُـنذُ أسبوعٍ، أذهبُ كلَّ يَومٍ، إلى قَهوةِ «الحاجّ داود» كي أمتِّعَ النَّظرَ بـصورةٍ مَعروضـةٍ في رُكـنٍ من أركانها، هي أنفسُ من صُورةِ المُستَحي بَلا حَياءٍ، وأعجـبُ مـن صُورةِ المُتعجِّبِ من غيرِ عَجَبٍ: هذا العَجُوزُ الجَالسُ إلى طَاولةٍ، وهو يَبكـي.. يَبكي بإصرارٍ، حتَّى إنِّي، أوَّلَ مرَّةٍ رأيتُه، كدْتُ - لشدَّةِ ما رَثيتُ لَه - لا أقـبِضُ يَدي التي هَمَّت أن تَنبَسطَ إلى يَدِه، فتهُزُّها بلُطفٍ، مُعزِّيةً مُشاركةً في المُصيبةِ. هـو حَزينٌ، جدُّ حَزينٍ، كأنَّما نعيَتْ إليه نَفسُه.. ويَلعبُ بالنَّردِ، ولا يَمسحُ دُموعَه. ماذا؟ أتريدُونَني على أن أصفَ لكم ذلكَ الحَزينَ بلا حُزنٍ، الباكِي من غيرِ دُموعٍ؟ إنَّ لِـساني لعاجِـزٌ عـن تَمثـيلِ تلكَ الصُّورةِ الفنِّيةِ البَديعةِ، بل عن تَناولِها بشَيءٍ من الوَصـفِ.. بحَـسبكُم أن تَتمثَّلوا شَجرةً من الصَّفصافِ المُتهدِّلِ الأغصانِ، الذي يُلقِّبُه الفَرنسيس بـ «البكَّاء» أو أن تتصَوَّروا سَماءً تُمطِرُ ولا مَاءَ.. فهذا وحدَه قد يُوحي إلى الذِّهنِ بَعضاً من مَزايا الآيةِ الخارقةِ....

ويَجبُ الآن أن أتسلَّحَ بكلِّ صِفاتِ الرُّجولةِ، كي أقولَ لكم كيفَ انتَهى ذلك العَـرضُ مـن صُـورٍ اصطَدْتُها، لأوَّلِ عَهدِي بالأدبِ «الحي»المُستَمدِّ من الواقعِ أو «الطبـيعة». قلتُ بصَوتٍ بَعيدِ القَرارِ: «هنالكَ المُستَحي ولا حَياءَ، والمتعجِّبُ من غيرِ عَجَـبٍ، وهنا.. هنا سَمعتُ قَهقَهةً، فالتَفتُّ، فإذا بالعَجوزِ البَاكي ولا دُموعَ، كأنَّه يَـضحكُ - وهـو حَقّاً يَضحكُ - من خَصمِه في النَّردِ. بل كيفَ أقولُ إنَّه يضحَكُ، بيـنَما هو لا يَزالُ يَبكي، ولا يَني يَزيدُ بكاءً، كالصَّفصافِ المُتهدِّلِ الأغصانِ... بَكَتِ السَّماءُ وقَهْقَهَ الرَّعدُ.

ولَيْتَ القِصَّةَ انتَهتْ عندَ هذا الحَدِّ! لا... إذ يلوحُ أنَّ صَاحِبَنا الصَّيادَ لم يأوِ إلى بَيـتِه إلا كي يَعودَ إلى الكِتابِ، كَما تَعودُ فَراشةٌ إلى شَرنَقتِها، وهو ما لم يَشْهَدْ مِثلَه التَّاريخُ الطَّبيعيُّ...

ذلـكَ مَـا كَانَ من شأنِ تَجرُبَتِي الأولى في الصَّيدِ الأدبيِّ. فلم أكُنْ مُتواضِعاً إذ

قلتُ لكم منذُ البِداية، إنَّها لم تكنْ موفَّقةً إلاّ بقدرِ ما يُنسَب إلى التَّوفيقِ، صَيدُ الصَّيَّادِ المُشتَري. فالصَّيادُ المُشتَري يعدُّ موفَّقاً إذا لم يَدْفَع ثَمنَ ما صَادَه غالياً.

لِـــنَعد الآنَ، إذا أذنْتُم، إلى نَفسِي الَّتي تَركْناها على الرَّصيفِ، مُعتَزِمةً المُضيَّ في تَجـــرُبَتِها الثَّانية، وقد أملَّها الانتِظارُ، بينما طباعُ إنسانِ الغَاباتِ تَجيشُ في سُويدائِها، كما لم يَسبْق لَهُ مَثيلٌ.

... إذن ما كِدْتُ أخطُو خُطوةً على الرَّصيفِ، حتَّى رأيتُ إلى جانبي، على غيرِ انــتِظارٍ، جارَنا المصوِّرَ النَّقَّالُ الأرمنيّ، وكأنَّه بَكَّرَ على غيرِ عادةٍ، ليُنافسَني في مِهنَتي الجَديــدةِ، مُنافَــسَةً غيرَ حَميدةٍ، وهو حاملٌ تلكَ «السِّيبا» المَشؤومةَ التي يَشنُقُ عليها صـــورَ الخَلقِ أو أشباحَهم... وطَفِقَ يُوازِنُ بينَ مِشيَتِه ومِشيَتي، وحَسبتُ حِيناً أنَّه يَنظرُ إليَّ، في شَيءٍ من الاستِخفافِ، فتحوَّلتُ لفَوري إلى الرَّصيفِ الآخرِ.

وهُـــنالكَ بَــصُرتُ بآدمي حَسَنِ السَّمتِ والهَيئة، يَمشي على طَرفِ الرَّصيفِ كــبَهلوان على حَبلٍ، مُتباطِئاً مُتريِّثاً، بُخطىً قَصيرةٍ مُتَّزِنةٍ، كالمتفرِّجِ بكلِّ مَعنى الكَلمة - المُتفرِّجُ الَّذي لا شَيءَ وَراءَه، ولا شَيءَ قُدَّامَه، ولكنْ عِندَه كلُّ الوَقتِ. ولمَّا حاذَيْتُه، رأيــتُه يَفــركُ يَــداً بيَدٍ، في حَركةٍ طَوعيَّةٍ طَبيعيَّةٍ، لا تَدري أتنسُبُها إلى الاضطرابِ الــشَّديدِ، أم إلى الفَـــرحِ بلُقيةٍ ثَمينةٍ. وسَمِعتُه يُتَمتِمُ بينَ شَفتيْه، بكَلامٍ لم أتبيَّنه، أوَّلَ وَهلـــةٍ، خُـــيِّلَ أنَّهُ قَريبٌ من سَجعِ الكُهَّان.. كانَ هذا الآدميّ يَقولُ بصَوتِه الخافِتِ، كَمـــنْ يُخاطِـــبُ نفسَه: «في دُنيا الكَدحِ هذه... ليستِ الحَياةُ لَهواً أو لَعباً.. ليستِ الحَياةُ لَهواً ولعِباً..» وهو يَخفتُ بهذا الكَلامِ، ثُمَّ يُرجِّعُه كالصَّوتِ وصَداهُ.

لعلَّها حَقيقةٌ يُريدُ أن تَرسَخَ في ذِهنه ، لشدَّةِ ما آذتْه وأوجَعتهُ في المَاضي، فكأنَّه يَطمعُ بأن يُثبتَها الآنَ في صَفحةِ الكَونِ، فلا هو يَنسَاها، ولا يَغفلُ عنها أحدٌ، بل لَعلَّه مُوَسْــوَسٌ تَلقَّـــفَ هذه العبارةَ من وَاعظٍ أو نَاسكٍ، أو مُعلِّمِ أخلاقٍ، فهو يَتسلَّى بها كالمـــسبحةِ... وهـــنا، أظنُّه أحسَّ وجُودي، وفَطِنَ إلى ما يَدورُ في خاطِري، فالتَفتَ

نَحـوي مُبتَسِماً، وغَمـزَ بعَينيه غَمزاً خَفيفاً يَكادُ لا يُرَى، كأنَّه يَسألُني: «ماذا؟» ويَسألُني: «كيف؟» ويَسألُني: «متى؟» في وَقتٍ واحِدٍ، فكأنَّني وإيَّاهُ على مَوعِدٍ، كي يَطرحَ عليَّ جَميعَ هذه الأسئِلة، دُفعةً واحِدةً، في ظلِّ ابتسامَةٍ على وَجهِهِ النَّحيف، وفي بَريقِ غَمزةٍ من عَينِهِ السَّاجِية. وكانَ الجَوُّ حَولَنا مُشبعاً بكَهرُبائيَّة ذلكَ الكَلامِ الغَريب: «في دُنيا الكَدحِ هذه... ليسَت الحَياةُ لَهواً ولَعباً..» فَشعرتُ بحَراجة المَوقف، وخَجلتُ من فُضُولي، وخِفتُ سُوءَ العَاقبة... أخذتُ أبحثُ بكلِّ قِوايَ عن المَخرج. قلتُ بعدَ تَردُّدٍ قَصيرٍ: «كمِ السَّاعةُ، أرجوك؟» فذهبتْ ابتسامَتُه عَرضاً حتَّى هَمَّ أنْ يَضحكَ، وازدَادَ بَريقُ عَينيهِ حتَّى أوشَكَ أن يُمطِرَ، وكَادَ لا يَملكُ نفسَهُ من الفَرحِ، كأنَّه يَترقَّبُ هذا السؤالَ لِيَثأرَ من فُضُولي... قال مُتلَطِّفاً: «الساعة؟ على وَقتِكُم أم على وَقتِنا؟» قلت: «فهمت...» وانصرَفتُ عائداً أدراجي. وبعدَ دَقائقَ كنتُ في البَيت.. حَسبي من صَيدِ النَّهارِ هذا الآدميُّ الذي لا يُقدِّمُ سَاعتَه ولا يُؤخِّرُها، رغمَ قَوانينِ الحُكومةِ... هذا الآدميُّ العَجيبُ الذي يَبدو غيرَ مُرتَبطٍ بزَمَنِنا... لله ما أعظَمها وأنفَسَها وأغرَبَها صَيْدةً!.

والآنَ لـن أحدِّثَكمُ عن القُرآنِ وأثرِهِ في بِناءِ العالمِ العَربيِّ، ولا عن «شكسبير» وأثـرِهِ في بناءِ التَّمدُّنِ الانكلوسكسوني، ولا عن دانتي وأثرِه في بناءِ الوَحدةِ الإيطاليَّة، إلى آخـرِ حلقاتِ السِّلسلةِ. فهذا الأثرُ قد يَختلفُ في نِسبتِهِ إلى العَواملِ الأخرى، بعدَ مُقارنته بها، لكنْ لا جدالَ فيه، بحدِّ ذاته. سوى أنَّني لا أجدُ نَدحةً عن الإشارةِ هنا إلى هـذه الظَّاهـرةِ العَجيبةِ حقاً: إنَّ الكتابَ العَربيَّ المبينَ، والطُّرَفَ الإنكليزيَّةَ الخالدةَ، والتُّحفةَ الإيطاليَّةَ الرَّائعةَ، لَمِنْ حَياةِ المُجتمعِ وسياسةِ العَصرِ في الصَّميمِ... وهل كانَ **الأديبُ أو الفنَّانُ إلاّ رَجلاً من أمَّة، وعُضواً في مُجتَمعٍ – كَعقربِ السَّاعةِ على الأكثرِ؟ إنَّـهُ يَتكلَّمُ بلُغتنا، ويَستَمدُّ من بيئتنا، ويَعيشُ في جَوِّنا: هو ابنُ جُغرافيَّتِه وتاريخِه. هو يأخذُ فكيفَ لا يُعطي؟** على أنَّ كلَّ مُحاوَلةٍ يأتي بها كي يَنسَلِخَ من هذه

الأصـــولِ الحَـــيَّة، خُطـــوةٌ يَخطُـــوها نحوَ الانتحارِ، انتحارُهُ هو، وتَظلُّ الحَياةُ حَياةً مُـــتطَوِّرَةً مُبتَذلَةً مُتحَوِّلَةً. وما أدرانا؟ فلعلَّ هذا ما يَخشاهُ أكثرُ أدبائنا، إذا حُمِلُوا على الانغمـــاسِ في الحَياةِ العامَّة - والحَياةُ على إطلاقِها - أو بالأقلِّ، على الاتصالِ المُباشرِ بها: يَخشَونَ تَطوُّرَ تلكَ الحَياةِ وتَبدُّلَها وتَحوُّلَها، وأنْ يَضطروا إلى اكتناهِ هذا التَّطَوُّرِ، أو مُـــسايَرتِه، أو تَوجـــيهِه، وفي الأمـــرِ مـــا فيه من جَهدٍ وخَسارةٍ أو في ما يُقالُ في وَصـــفِهما، إنَّهـــم في غِنًى عنهما، وكَفَى اللهُ المُؤمنينَ القِتالَ. هكذا تَنقطعُ الصِّلةُ بين الأدبِ والحَـــياةِ، وتَـــبعدُ الشُّقَّةُ بينَ الأديبِ والمُجتمعِ. ولكنْ يَنتهي الأمرُ بأنْ يَستَغني المُجتمعُ عن أدبٍ لا يَجدُ ذاتَه فيه، إذ تَلهو الأمَّةُ أو تَكتَفي بآدابِها العاميَّة - مَثلاً.

إنَّ في المُجـــتمعِ حَـــياةً زاخِرةً لا تُعدُّ حَياةَ أيِّ فَردٍ، مَهما يَكُنْ عَظيماً بإزائِها شَيئاً مَذكوراً، فكيفَ إذا كانَ هذا الفَردُ، ولا همّ لَه إلاّ أن يَعيشَ مُتقلِّصاً مُنكَمِشاً في نَفـــسِه؟ **وللجَماهيرِ الَّتي تَتعذَّبُ وتَكدَحُ مَطامِحُ وآمالٌ**، ولَها أمثلةٌ عُليا تَتوقُ إليها، وتَـــتطلَّعُ نَحـــوَها، وتُيَمِّمُ شَطرَها. قد يَكونُ ذلك كلُّه غامِضاً في سَرائِرِها، مُوزَّعاً في ضَمائِرِها، يَتلَجلَجُ في الأفئِدةِ، أو تُتَمْتِمُ به الألسنُ، فهو يَنتظرُ من يُبيِّنُ عنه، ويبرزُه في صُورَتِه المُثلى... فإذا لم يُوجَدْ هذا الأديبُ أو الفَنَّانُ، فهذا الأديبُ أو الفنَّانُ يكونُ غيرَ مَوجـــودٍ، **لكنَّ المُجتمعَ وحياتَه يَظلاَّن في الوُجودِ... في دُنيا العملِ والكَدحِ هذه في دُنيا الأملِ والفَرحِ هذه .**

كتاب «أديب في السوق»
من تراث عمر فاخوري
ص (٧٢-٨١)

«الأسئلة»

آ – في المعاني:

١- قال الكاتب في السطر الأول: خطر لي بادئ بدء أن أجعل عنوان هذا الفصل «أديب في السوق» أو «صيد النهار» ولا شك في أنّ العنوان يجذب القارئ.

السؤال (١) : هل كان العنوان الذي أثبته الكاتب أجمل وأكثر تعبيراً؟ أم أنّ أحد العنوانين هو الأفضل؟ لماذا؟ وهل أعجبك تشبيه نفسه بالصياد في المقطع الأول؟

السؤال (٢) : قال الكاتب «هذا الفصل» فالمقالة جزء من كتاب وهذا ما يعتمده كل من يكتب، فهل كان ما كتبه مبتوراً، وهل شعرت أنه ناقص، أم أنك لو قرأته وجدت موضوعاً مستقلاً؟ علل.

٢- يندرج هذا النص في باب «المقالة الوصفية» أين برز هذا الوصف؟

٣- ذكر الكاتب عدداً من الشخصيات في بيئات وأوقات مختلفة، هله هذا ضعف أم قوة؟

٤- أي الصور الشخصية أعجبتك؟ لماذا؟

٥- اكتب مقالة في قول الكاتب: «لقد كان الأنبياء وحدهم فيما غبر من القرون ذوي رسالة. فإذا كلّ من عليها اليوم ولَه رسالة: الطبيب والمعلم والصحافي والمحامي ويتبعهم الأديب».

* اللغة والأسلوب:

١- ما اللغة التي استعملها الكاتب في رسم صوره وشخصياته؟ استشهد على ما تقوله.

٢- غلب على النص الصور والتشابيه، فهل وفّق إليها الكاتب أم أنه لم يوفّق، هل تكلّف في رسمها وتلوينها؟

٣- اضبط المقطع الأول: «خطر... قبل».

٤- ما الذي أفاده الكاتب في استعمال ضمير المتكلم (أنا)؟

٥- ادرس تركيب الجملة في المقطع «إذا ما كدت... حميدة».

٦- أعرب المقطع التالي مفردات ومجملاً: «ولكن أئذنوا لي...حياتي».

❖ ❖

❖

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

— ٤ —

مقالة السيرة

النشأة والتربية وطلب العلم

الشيخ محمد عبده (١٨٤٩–١٩٠٥):

- ولد في إحدى قرى مصر الغربية ونشأ في محلة نصر، تعلم بالجامع الأحمدي، والأزهر.
- عمل في التعليم، وكتب في الصحافة ولا سيما في جريدة «الوقائع» المصرية، التي تولّى تحريرها.
- أجاد اللغة الفرنسية.
- نُفي إلى بلاد الشام ١٨٨١ ثم سافر إلى باريس، فأصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة «العروة الوثقى».
- عاد إلى مصر ١٨٨٨ وتولى منصب القضاء ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم مفتياً للديار المصرية ١٩٠٠ حتى توفي في الإسكندرية.
- يعدُّ من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام.
- ترك عدداً من المؤلفات أهمها: تفسير القرآن الكريم (لم يتم) شرح نهج البلاغة، شرح مقامات الهمذاني، الإسلام والرد على منتقديه... وغيرها.

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

النشأة والتربية وطلب العلم

الشيخ محمد عبده

تعلّمتُ القراءةَ والكِتابةَ في مَنْزِلِ والديَّ، ثمَّ انتقلتُ إلى دارِ حافظِ قرآنٍ، قرأتُ عليه وَحدي جَميعَ القرآنِ أوَّلَ مرَّة، ثمَّ أعدْتُ القراءةَ حتَّى أتممتُ حِفظَه جَميعَه في مُدَّةِ سَنتين، أدْرَكَني في ثانيتهما صِبيانٌ من أهلِ القَريةِ جاؤوا من مَكتبٍ آخرَ ليَقرؤوا القرآنَ عندَ هذا الحافظ، ظَنًّا منهم أن نَجاحي في حِفظِ القُرآنِ كانَ من أثرِ اهتمامِ الحافظ. بعدَ ذلكَ حَملَني والدي إلى طَنطا، حيث كان أخي لأمِّي الشَّيخُ «مجاهد» - رَحمه اللهُ - لأجوِّدَ القرآنَ في المَسجدِ الأحمديّ، لشهرةِ قُرائه بفُنونِ التَّجويد، وكانَ ذلكَ في سنة ١٢٧٩ هجريّة.

ثمَّ في سنةِ إحدى وثَمانين جَلستُ في دُروسِ العِلمِ، وبدأتُ بتلقِّي (شرح الكَفراوي على الأجرّوميّة) في المَسجدِ الأحمديّ بطَنطا، وقَضيتُ سنةً ونصفاً لا أفهمُ شَيئاً لرَداءةِ طَريقةِ التَّعليمِ، فإنَّ المُدرِّسينَ كَانُوا يُفاجئوننا باصطلاحاتٍ نَحويَّةٍ أو فِقهيَّةٍ لا نَفهمُها، ولا عِنايةَ لهم بتَفهيمِ مَعانيها لمن لا يَعرِفُها، فأدرَكني اليأسُ من النَّجاحِ، وهَربتُ من الدَّرسِ. واختَفيتُ عندَ أخوالي مُدَّةَ ثَلاثةِ أشهرٍ، ثمَّ عَثرَ عليَّ أخي فأخَذَني إلى المَسجدِ الأحمديِّ، وأرادَ إكراهي على طَلبِ العِلمِ فأبيتُ، وقلتُ لَه: قد أيقَنتُ أنْ لا نَجاحَ لي في طَلبِ العِلمِ، ولم يبقَ عليَّ إلاَّ أن أعودَ إلى بَلدي وأشتَغلَ بمُلاحظةِ الزِّراعةِ كما يَشتغلُ الكَثيرُ من أقاربي. وانتَهى الجِدالُ بتغلُّبي عليه. فأخذتُ ما كانَ لي من ثيابٍ ومَتاعٍ، ورَجعتُ إلى «محلة نصر»

على نِيَّةِ أن لا أعودَ إلى طَلَبِ العلمِ، وتَزوَّجتُ في سنة ١٢٨٢م على هذه النِّيَّة.

فهـذا أوَّلُ أثـرٍ وَجدتُ في نَفسي من طَريقةِ التَّعليمِ في طَنطا، وهي بعَينها طَريقَته في الأزهـرِ. وهو الأثرُ الذي يجدُه خمسةٌ وتسعونَ في المئة ممَّن لا يُساعدُهم القَدرُ بصُحبة مـن لا يَلتَزمونَ هذا السَّبيلَ في التَّعليمِ، سَبيلَ إلقاءِ المعلِّمِ ما يَعرِفُه أو ما لا يعرِفُه بدونِ أن يُراعـي المُتعلِّمُ ودرجـةَ استعداده للفَهمِ. غيرَ أنَّ الأغلبَ من الطَّلبةِ الذين لا يفهمون تغـشُّهم أنفـسُهم، فيظـنُّونَ أنَّهم فَهموا شَيئاً فيَستمرُّونَ على الطَّلبِ إلى أن يَبلغُوا سِنَّ الـرِّجالِ، وهـم في أحلامِ الأطفالِ، ثمَّ يَبتلي بهمُ النَّاسُ، وتُصابُ بهم العامَّةُ، فتعظُمُ بهم الـرَّزيَّةُ، لأنَّهـم يَـزيدونَ الجَاهلَ جَهالةً، ويُضلِّلونَ من تُوجَدُ عندَه داعيةُ الاسترشادِ، ويؤذُونَ بدعاويهم من يَكونُ على شَيءٍ من العلمِ، ويَحُولونَ بينَه وبين نَفعِ النَّاسِ بعلمِه.

بعدَ أن تَزوَّجتُ بأربعينَ يَوماً جاءَني والدي ضَحْوَةَ نَهارٍ، وألزَمني بالذَّهابِ إلى طَـنطا لطَلَـبِ العلمِ. وبعد احتجاجٍ وتَمنُّعٍ وإباءٍ لم أجد مَندوحةً عن إطاعةِ الأمرِ، ووجـدتُ فرسـاً أحضر فركبتُه، وأصحَبَني والدي بأحدِ أقاربي - وكَانَ قَويَّ البُنيةِ شَـديدَ الـبأسِ - ليُشَيِّعَني إلى مَحطَّةِ «إبتاي البارود» التي أركبُ منها قِطارَ السِّكَّةِ الحَديديَّـةِ إلى طَنطا. كانَ اليَومُ شَديدَ الحَرِّ، والرِّيحُ عاصِفةً مُلتَهبةً سافياء[1]، تَحْجبُ الـوَجهَ بشِبهِ الرَّمضاء[2]، فلم أستطعِ الاستمرارَ في السَّيرِ. فقلتُ لصَاحبي: أما مُداومةُ المَـسيرِ فـلا طَاقةَ لي بها مع هذه الحَرارةِ، ولا بدَّ من التَّعريجِ على قَريةٍ أنتَظرُ فيها أن يَخـفَّ الحَرُّ، فأبى عليَّ ذلك فتركتُه، وأجريتُ الفرسَ هارباً من مُشادَّته، وقلتُ: إنِّي ذاهبٌ إلى «كنيسة أورين» - بلدةٌ غالبُ سُكَّانها من خَؤولةِ أبي - وقد فَرحَ بي شُبَّانُ القَريةِ لأنِّي كنتُ مَعروفاً بالفُروسيَّةِ واللَّعبِ والسِّلاحِ، وأمَّلُوا أن أقيمَ معهم مدَّةً يَلهو فـيها كلٌّ منَّا بصاحبِه، أدرَكَني صَاحبي، وبقِي معي إلى العَصرِ، وأرادَني على السَّفرِ،

---

[1] السافياء: الغبار.

[2] الرَّمضاء: شدّة الحرّ.

فقلتُ لَه: خذِ الفَرسَ وارجعْ، سأذهبُ صَباحَ الغد، إن شئتَ قلتَ لوالدي إنَّني سَافرتُ إلى طَنطا. فانصَرفَ وأخبرَ بما أُخبِر، وبَقيتُ في هذه القَريةِ خمسةَ عشرَ يَوماً تَحوَّلتْ فيها حالَتي، وبُدِّلَت فيها رَغبةٌ غيرُ رَغبَتي.

ذلكَ أن أحدَ أخوالِ أبي، واسمُه الشَّيخُ «درويش» سَبَقتْ لَه أسفارٌ إلى صَحراءِ لِيبيا، وَوَصلَ في أسفارِه إلى «طرابلس الغرب»وجَلسَ إلى السَّيِّد «محمد المدني» والد الشَّيخ «ظافر» المشهور، الذي كان قد سَكَن «الآستانة» وتوفِّي بها، وتعلَّمَ عنده شَيئاً من العلمِ، وأخذَ عنه الطَّريقة «الشاذلية». وكانَ يحفظُ (الموطَّأ) وبعضَ كُتبِ الحَديث، ويُجيدُ حفظَ القُرآنِ وفَهمَه، ثمَّ رجَعَ من أسفارِه إلى قَريَته هذه، واشتغلَ بما يَشتَغلُ به النَّاسُ من فَلحِ الأرضِ وكَسبِ الرِّزقِ بالزِّراعة.

وإنَّ هذا الشَّيخَ جاءَني صَبيحةَ اللَّيلةِ التي بتُّها في «الكنيسة»، وبيده كتابٌ يَحتوي على رَسائلَ كَتبها السيد «محمد المَدني» إلى بعضِ مُريديه بالأطراف، بخطٍّ مَغربيٍّ دَقيقٍ، وسَألَني أن أقرأ لَه فيها شَيئاً لضَعفِ بَصَرِه، فَدفعتُ طَلَبَه بشدَّة، ولَعنتُ القِراءةَ ومَن يَشتغلُ بها، ونَفرتُ منه أشدَّ النُّفورِ، ولما وَضعَ الكتابَ بينَ يَديَّ رَميتُه إلى بَعيدٍ. ولكنَّ الشَّيخَ تبسَّمَ وتَحلَّى في ألطفِ مَظاهرِ الحُلمِ، ولم يَزلْ بي حتَّى أخذتُ الكتابَ وقَرأتُ منه بضعةَ أسطرٍ، فاندَفعَ يُفسِّرُ لي مَعاني ما قَرأتُ بعبارةٍ واضحةٍ تُغالبُ إعراضي فتَغلبُه وتَسبقُ إلى نَفسي. وبعدَ قَليلٍ جاءَ الشُّبَّانُ يَدعونني إلى رُكوبِ الخَيلِ واللَّعبِ بالسِّلاحِ والسِّباحةِ في نَهرٍ قَريبٍ من القَريةِ، فَرميتُ الكتابَ وانصَرفتُ إليهم. بعدَ العَصرِ جاءَني الشَّيخُ بكتابِه، وألحَّ عليَّ في قِراءةِ شَيءٍ منه، فقرأتُ وفسَّرَ، ثمَّ تَركتُه إلى اللَّعبِ. وفعلَ في اليَومِ الثَّاني كما فَعلَ في الأوَّلِ. أما اليَومُ الثَّالثُ فقد بَقيتُ أقرأُ لَه فيه وهو يَشرحُ لي مَعاني ما أقرأ نَحوَ ثَلاثِ سَاعاتٍ لم أملَّ فيها، وقال لي: إنَّه في حاجَةٍ إلى الذَّهابِ للمَزرعةِ ليَعملَ بعضَ العَملِ فيها، فطَلبتُ منه إبقاءَ الكتابِ مَعي، فتَركَه ومَضيتُ أقرؤُه، وكُلَّما مَررتُ بعبارةٍ لم أفهَمْها وضَعتُ عليها عَلامةً

لأسـألَه عـنها، إلى أن جاءَ وَقتُ الظُّهرِ. وعَصيتُ في ذلكَ اليَومِ كلَّ رَغبةٍ في اللَّعبِ وهَـوىً يُـنازِعُني إلى البَطالةِ، وعَصرَ ذلكَ اليَومِ سألتُه عمَّا لم أفهمْه فأبانَ مَعناهُ على عادَتِه، وظَهرَ عليه الفَرحُ بما تَجدَّدَ عندي من الرَّغبةِ في المُطالعةِ والمَيلِ إلى الفَهمِ.

كانتْ هذه الرَّسائلُ تَحتوي على شَيءٍ من مَعارفِ الصُّوفيَّةِ، وكَثيرٍ من كَلامِهم في آدابِ النَّفسِ وتَرويضِها على مَكارمِ الأخلاقِ، وتَطهيرِها من دَنسِ الرَّذائلِ، وتَزهيدِها في البَاطِلِ من مَظاهرِ هذه الحَياةِ الدُّنيا.

لم يـأتِ عليَّ اليَومُ الخامسُ إلاّ وقد صَارَ أبغضَ إليَّ ما كُنتُ أحبُّه من لَعبٍ ولَهوٍ، وفَخفَخـةٍ وزَهْوٍ، وعادَ أحبَّ شَيءٍ إليَّ ما كنتُ أبغضُه من مُطالعةٍ وفَهمٍ، وكَرهتُ صُورَ أولـئكَ الـشُّبَّان الـذين كانوا يَدعونَني إلى ما كنتُ أحبُّ، ويُزَهدُونني في عِشرةِ الشَّيخِ رَحمـه اللهُ، فكـنتُ لا أحتملُ أن أرى واحداً منهم، بل أفرُّ من لقائهم جَميعاً كما يفرُّ الـسَّليمُ مـن الأجرب. وفي اليَومِ السَّابعِ سألتُ الشَّيخَ ما هي طَريقَتُكم؟ فقال: طَريقتُنا الإسـلامُ، فقلـتُ: أوليسَ كلُّ هؤلاءِ النَّاسِ بمُسلمين؟ قال: لو كانُوا مُسلمين لما رأيتهم يَتـنازَعونَ علـى التَّافهِ من الأمرِ، ولما سَمعتهم يَحلفونَ باللهِ كاذبينَ بسَببٍ وبغيرِ سَببٍ. هـذه الكلماتُ كانتْ كأنَّها نارٌ أحْرَقَتْ جَميعَ ما كانَ عندي من المتاعِ القَديمِ - مَتاعِ تلـكَ الدَّعاوَى الباطلةِ والمَزاعمِ الفاسدةِ، مَتاعِ الغُرورِ بأنَّنا مُسلمونَ ناجُونَ، وإن كُنَّا في غَمـرةٍ ساهينَ - سألته: ما وِرْدكم الذي يُتلى في الخَلواتِ أو عَقبَ الصَّلواتِ؟ فقالَ: لا وِردَ لـنا سوى القُرآن، نَقرأُ بعدَ كلِّ صَلاةٍ أربعةَ أرباعٍ مع الفَهمِ والتَّدبُّرِ، قلتُ: أنَّى لي أن أفهـمَ القُـرآنَ ولم أتعلَّمْ شَيئاً؟ قال: اقرأْ معك، ويَكفيكَ أنْ تَفهمَ الجُملةَ، وبَركتها يَفـيضُ اللهُ عليكَ التَّفصيلَ، وإذا خَلَوتَ فاذكرِ اللهَ - على طَريقةٍ بَيَّنَها - وأخذتُ أعملُ علـى مـا قَالَ من اليَومِ الثَّامنِ. فلم تمضِ عليَّ بِضعةُ أيَّامٍ إلاّ وقد رأيتَني أطيرُ بنفسي في عـالمٍ آخـرَ غيرَ الذي كُنتُ أعهَدُ، واتَّسعَ لي ما كانَ ضَيِّقاً، وصَغُرَ عندي من الدُّنيا ما كـانَ صَغيراً، وتَفرَّقتْ عنِّي جَميعُ الهُمومِ، ولم يَبقَ لي إلاّ هَمٌّ واحدٌ هو أن أكونَ كاملَ

المَعــرفة، كامــلَ أدبِ النَّفسِ. و لم أجدْ إماماً يُرشِدُني إلى ما وَجَّهتُ إليه نَفسي إلاَّ ذلكَ الــشَّيخُ الَّذي أخرَجَني في بِضعةِ أيَّامٍ من سِجنِ الجَهلِ إلى فَضاءِ المَعرفة، ومن قُيودِ التَّقليدِ إلى إطــلاقِ التَّوحــيدِ. هذا هو الأثرُ الذي وَجدتُه في نَفسي من صُحبةِ أحدِ أقاربي وهو الــشَّيخُ «درويــش خضر» من أهل «كنيسة أورين» من مديرية «البحيرة». وهو مفتاح سَــعادَتي، إن كانــت لي سَعادةٌ في هذه الحياة الدُّنيا، وهو الذي رَدَّ لي ما كانَ غابَ من غَريزَتي، وكَشَفَ لي ما كانَ خَفِيَ عنِّي ممَّا أودِعَ في فِطرَتي.

وفي اليَومِ الخامسَ عشرَ مرَّ بي أحدُ سُكَّان بَلدَتنا - «محلّة نصر» - فأخبَرني أنَّ والِدَتي ذَهبَتْ إلى طَنطا لتَراني، فعَلِمتُ أنَّه سَيقولُ لوالدي إنَّني لا أزالُ في «الكَنيسة»، فأصــبحتُ مُبكِّــراً إلى طَنطا خوفَ عِتابِ الوالدِ واشتداده في اللَّومِ، لأنَّني لو كُنتُ أقمتُ لَه ألفَ دليل على أنَّني وَجدتُ في مَهرَبي مَطلَبَهُ ومَطلَبي لَما اقتَنعَ.

ذهــبتُ إلى طَــنطَا، وكَــان ذلــكَ قربَ آخرِ السَّنةِ الدِّراسيَّة، في شَهرِ جُمادى الآخــرى مــن سنة ١٢٨٢ هجرية، لكن اتَّفقَ أنَّ بعضَ المَشايخِ كانَتْ ماتَتْ بنتُه فعاقَه الحُــزنُ عليها عن إتمامِ (شَرحِ الزَّرقاني على العزية) وآخرَ عَرَضَ لَه عارِضٌ مَنعَه عن إتمام (شَــرحِ الشَّيخ خالد على الأجرومية)، فأدركتُ كلاًّ منهما في أوائلِ الكِتابِ الذي كان يُــدرَّسُ، وجَلستُ في الدَّرسين فوَجدتُ نَفسي أفهمُ ما أقرأُ وما أسمعُ والحمدُ لله. وعَرفَ ذلــك مــني بعضُ الطَّلبةِ فكَانُوا يَلتَفُّونَ حَولي لأطالِعَ معهم قبلَ الدُّروسِ ما سنَتلَقَّاهُ. وفي يَــومٍ مــن شَــهرٍ رَجبَ من تلكَ السَّنة كنتُ أطالِعُ بينَ الطَّلبةِ وأقرِّرُ لَهم مَعاني (شرح الــزرقاوي) فــرأيتُ أمامــي شَخــصاً يُــشبِهُ أن يكــونَ من أولئكَ الذين يُسَمُّونَهم بـــ «المجاذيــب» فلمَّا رَفعتُ رأسي إليه قال ما معناه: ما أحلى حَلوَى مِصرَ البَيضاء!!، فقلــتُ لَه: وأينَ الحَلوى معك؟ فقال: سُبحانَ الله! من جَدَّ وَجَد؟!. ثمَّ انصرفَ، فعددتُ ذلكَ القَولَ منه إلهاماً ساقَه اللهُ إليَّ ليَحملَني على طَلبِ العِلمِ في مِصرَ دونَ طَنطا.

وفي مُنتصفِ شَوَّال من تلكَ السَّنةِ ذَهبتُ إلى الأزهرِ، وداوَمتُ على طَلبِ العِلمِ

علـى شيوخه، مع مُحافَظتي على العُزلة والبُعدِ عن النَّاسِ، حتَّى كنتُ أستغفرُ اللهَ إذا كلَّمتُ شخصاً كَلِمةً لغيرِ ضرورةٍ. وفي أواخرِ كلِّ سَنةٍ دراسيَّةٍ كُنتُ أذهبُ إلى «محلة نـصر» لأقـيمَ بهـا شهرين - من منتصفِ شعبان إلى منتصف شوال - وكنتُ عندَ وُصولي إلى البَلدِ أجدُ خالَ والدي الشَّيخ «درويشاً» قد سَبقني إليه، فكانَ يستمرُّ معي يُدارِسُـني القُـرآنَ والعِلمَ إلى يَومِ سَفري، وكلَّ سنةٍ يَسألُني ماذا قرأتُ؟ فأذكرُ له ما دَرَسـت، فيَقولُ: ما دَرستَ المَنطقَ؟ ما دَرستَ الحِسابَ؟ ما دَرستُ شَيئاً من مبادئِ الهَندسـةِ؟ وهكذا كُنتُ أقولُ لَه: بعضُ هذه العُلومِ غيرُ مَعروفِ الدِّراسةِ في الأزهرِ، فيقول: طالبُ العلمِ لا يَعجزُ عن تَحصيله في أيِّ مَكان. فكنتُ إذا رَجعتُ إلى القاهرةِ ألـتمسُ هذه العلومَ عندَ من يَعرفُها، فتارةً كنتُ أخطِئُ في الطَّلبِ وأخرى أصيبُ إلى أن جَاءَ المَرحومُ السَّيِّدُ جَمالُ الدِّين الأفغاني إلى مصر أواخر سنة ١٢٧٦[1].

وقـد صَاحبتُه من ابتداءِ شَهرِ المُحرَّم سنة ١٢٨٧[2]، وأخذتُ أتلقَّى عنه بعضَ العُلـومِ الرِّياضيَّةِ والحكميَّةِ (الفلسفية) والكَلاميّة، وأدعو النَّاسَ إلى التَّلقي عنه كذلك. وأخذَ مَشايخُ الأزهرِ والجُمهورُ من طَلَبتهِ يَتقوَّلونَ عليه وعَلينا الأقاويلَ، ويَزعمونَ أنَّ تَلقِّـي تلـكَ العلـومِ قد يُفضي إلى زَعْزَعةِ العَقائدِ الصَّحيحةِ، وقد يَهوي بالنَّفسِ في ضَـلالاتٍ تَحرمها خيري الدُّنيا والآخرة، فكنتُ إذا رَجعتُ إلى بَلدي عَرَضت ذلك علـى الـشَّيخ «درويش» فكانَ يقولُ لي: **إن الله هو العليمُ الحَكيمُ، ولا عِلمَ يَفوقُ عِلمَه وحِكمَته، وإنَّ أعدَى أعداءِ العَليم هو الجَاهلُ، وأعدى أعداءِ الحَكيمِ هو السَّفيهُ، ومـا تقـرَّبَ أحدٌ إلى الدُّنيا بأفضلَ من العِلمِ والحِكمةِ**، فلا شَيءَ من العِلمِ بمَقوت عندَ اللهِ، ولا شَـيءَ مـن الجَهلِ بمَحمودٍ لَديهِ، إلا ما يُسمِّيه بعضُ النَّاسِ عِلماً وليسَ في الحَقيقةِ

[1] هجرية (١٨٩٦م) وهي الزيارة القصيرة الأولى لمصر، وكان في طريقه إلى الحجاز، ثم عاد بعد ذلك ليقيم بمصر من سنة ١٨٧١ حتى سنة ١٨٧٩م.

[2] هجرية، مارس سنة ١٨٧١م.

بعلمٍ، كالسِّحرِ والشَّعوذةِ ونَحوهما، إذا قَصَدَ من تَحصيلهما الإضرارَ بالنَّاسِ.

إنَّ أبي وَهَبَني حَياةً يُشارِكني فيها «علي» و«محروس»، والسيد جمال الدين وَهَبَني حياةً أشارِكُ فيها محمد وإبراهيم وموسى وعيسى، والأولياء والقديسين...

قلتُ: إنَّني كنتُ في أوائلِ مدَّة طَلَبِ العلمِ، بعدَ مَجيئي إلى الأزهرِ، في عُزلةٍ عن النَّاسِ إلاَّ من أستفيدُ منه علماً أو نَصيحةً. لكن، وبعدَ مضيِّ سبعِ سنينَ على ذلك، والشَّيخُ[1] يَقودُني في سَبيلِ الرِّياضةِ وقَهرِ النَّفسِ على المَكارِهِ، بالصَّومِ تارةً، وبِلُبْسِ الخَشِنِ، والتَّعرُّضِ لانتقادِ النَّاسِ تارةً أخرَى؛ قال لي عندما رجعتُ إلى «محلة نصر» في سنة ١٢٨٨: إلى متى هذه العُزلةُ؟ ما الفائدةُ في العلمِ وتَحصيله إذا لم يَكنْ لكَ نُوراً تَهتدي به ويَهتَدي به النَّاسُ؟ **إنَّ من المَكروهِ أن تَستأثِرَ بالفائدةِ دونَ أهلِ ملَّتكَ، وإنَّ مَنْ لم يَنفعْ بما تعلَّمَ فقد أضاعَ أهمَّ ثمرةٍ تُقصَدُ من غِراسِ المَعرفةِ، فعليكَ أن تُخالطَ النَّاسَ وتَعظَهُمْ وتُرشِدَهم إلى الطَّريقِ القَويمةِ والسُّنَّةِ الصَّالحةِ.** فذكرتُ له اشمئزازي من النَّاسِ وزَهادَتي في مُعاشَرتهم وثِقْلهم على نَفسي إذا لقيتهم، وبُعْدهم عن الحَقِّ ونَفرتهم منه إذا عَرَضَ عليهم، فقالَ لي: هذا من أقوى الدَّواعي إلى ما حَثَثْتُكَ عليه، فلو كانُوا جَميعُهم هُداةً مَهديينَ لما كانُوا في حاجَةٍ إليك. ثمَّ أخَذَ يَستَصْحِبُني في مَجالسِ العامَّةِ ويَفتحُ الكَلامَ في الشُّؤونِ المُختَلفةِ ويُوجِّهُ إليَّ الخِطابَ لأتكلَّمَ فيتكلَّمَ الحاضِرونَ فأجيبَهم وأنطلقُ في القَولِ على وَجلٍ في أوَّلِ الأمرِ، وما زَالَ بي حتَّى وَجدَ عندي شَيئاً من الألفةِ مع النَّاسِ والاستئناسِ بمُكالَمَتهم. وفي شَوَّالَ من تلكَ السَّنةِ وَدَّعَني وبَكى بُكاءً شَديداً، ومات في السَّنةِ الثَّانية، رَحِمه اللهُ تَعالى.

مختارات محمد عبده

ص(٤٢-٥٤)

---

[1] الإشارة للشَّيخ «درويش».

*** التطبيق:**

١- السيرة الذاتية سيرة إنسان كاتباً كان أم فناناً أم عالماً أم غير ذلك، واختلفت الكتابة في هذا الباب، فقد كتب بعضهم عن غيرهم، وكتب كثيرون عن حياتهم، وتميّز طه حسين في «الأيام» الذي كتبه سيرة ذاتية لنفسه، وتميّز نعيمة في الكتابة عن «جبران»، والعقاد في «أنا»، وقد أكثر الكُتّاب في الكتابة عن أنفسهم، لأنهم وجدوا أنّ ما يكتبونه صادق أكثر مما لو كتب الآخرون عنه.

وفي الصفحات السابقة بعض حياة الشيخ محمد عبده بقلمه، يتناول فيها أول ما تعلّم، ثم ارتحاله مع والده إلى طنطا، ثم محلة نصر، وأشار إلى طريقة تعلمه على أيدي المعلمين والشيوخ في المساجد التي أمّها. ثم تحدث عن زواجه وارتحاله مرة أخرى وهذه المرة إلى محطة «إيتاي البارود» وبلدة «كنيسة أورين».

ولم ينسَ أن يتكلم على خاله الشيخ درويش الذي ارتحل كثيراً فأخذ من العلم وعرض ما كان يفعله وزملاؤه في الأمكنة التي كان يرتادها.. ويستطرد في هذا الوصف إلى أن يعود إلى طنطا ١٢٨٢هـ ثم وصول جمال الدين الأفغاني إلى مصر ١٢٧٦ ومصاحبته إياه بدءاً من ١٢٨٧ وتلقي العلوم عنه وينهي هذه الفترة بموت جمال الدين الأفغاني.

٢- إنّ أهم ما يميز كتابة السيرة الذاتية أشياء يجب أن تذكر: الأماكن، التاريخ، الأسماء أو الأعلام الذين لقيهم. وقد ذُكر هذا كلُّه.

فمن التواريخ:

- ١٢٧٩هـ أول ما تعلّم التجويد.
- ١٢٨٢هـ زواجه.
- ١٢٨٢هـ بعد زواجه بأربعين يوماً.

- ١٢٧٦هـ وصول الأفغاني إلى مصر.
- ١٢٨٧هـ ملازمته الأفغاني.
- ١٢٨٨هـ العودة إلى محلة نصر.

بل دقّق أكثر: وفعل في اليوم الثاني..

أما اليوم الثالث..

وفي اليوم السابع..

في اليوم الخامس عشر.

ومن الأسماء:

- خاله لأمّه الشيخ مجاهد.
- خال أبيه الشيخ درويش.
- محمد المدني.
- جمال الدين الأفغاني.

ومن الأماكن:

- طنطا.
- المسجد الأحمدي.
- محلة نصر.
- إيتاي بارود.
- كنيسة أورين.
- طرابلس الغرب.
- الآستانة.
- الأزهر.
- القاهرة.

(الأسئلة)

١- هل شعرت أنك تقرأ قصة؟ فهل جذبك الكاتب؟ مثّل لذلك ببعض الجمل.

٢- هـــل كان عنوان هذا الفصل من حياة محمد عبده ملائماً لما كتبه، وما الهدف الذي أراده من العنوان؟

٣- هل تستطيع أن تعكس هذه الأيام الأولى على حياة الطفل أو الكاتب في هذه الأيام؟ لماذا؟ .

٤- ثمة أفكار أساسية برزت في النص؟ حددها.

٥- هل وجدت أن وسائل الحياة أي الحركة مناسبة لما كتبه.

٦- اكـــتب مقالـــة تقلّد فيها ما قرأت تتذكر فيها ما تستطيع من سنواتك الأولى مستفيداً من عبارات محمد عبده.

جامعة دمشق Damascus University

-٥-

المقالة التأملية

آثار الجمال وجمال الآثار

أحمد لطفي السيد (١٨٧٢-١٩٦٣):

- أحمد لطفي السيد مفكر وفيلسوف عربي ورائد من رواد الحركة الوطنية. ولد ١٨٧٢، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب في «كتّاب القرية» وأتم دراسته الابتدائية والثانوية في المدارس المصرية. وظهرت عليه علامات النبوغ منذ الصغر، ولحق بكلية الحقوق وخرج له باع في الفلسفة والمنطق وعلوم الاجتماع.
- في سنة ١٨٩٤ حصل على ليسانس الحقوق ولحق بخدمة القضاء.
- استقال من وظيفته سنة ١٩٠٥ واشتغل بالسياسة فشارك في تأسيس حزب الأمة. وفي الفترة بين سنتي ١٩٠٦ و١٩١٤ تولى رياسة تحرير «الجريدة».
- عين مديراً لدار الكتب المصرية بين سنتي ١٩١٥-١٩١٨.
- عين مديراً للجامعة المصرية الحديثة ١٩٢٥ ثم وزيراً للمعارف ١٩٢٨ ثم عضو مجمع اللغة العربية ١٩٤٠ فرئيساً له.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

آثار الجمال وجمال الآثار

أحمد لطفي السيد

لا أظـــنُّ أنَّه يوجدُ إنسانٌ صحيحٌ لا يَشعرُ في نفسه بتأثيرِ الجَمالِ أو لا تتحرَّك عـــواطفُه حَـــركةً لذيذةً أو مقبولةً توجبُ الرِّضَا برؤيةِ الجَميلِ. **ولقد تَختلفُ أذواقُ الأفـــرادِ والأمـــمِ اخـــتلافاً قَليلاً في تَحديدِ جَمالِ الأشخاصِ والأشياءِ تبعاً لتربيةِ الخاصَّـــةِ النَّفسيَّةِ التي تتعرَّفُ الجَمالَ.** فكلَّما كانَتْ هذه الخاصَّةُ التي نُسمِّيها الذَّوقَ مُصفاةً من شَوائبِ الخُشونةِ بحُكمِ التَّركيبِ الجسمانيِّ والوِراثةِ ودَرْسِ الفُنونِ الجَميلةِ، كانتِ النَّفسُ أكثرَ إحساساً بالجَميلِ وأدقَّ حُكماً في الجَمالِ. ومَهما كانَ رأيُ جَماعةِ الـــزُّهادِ في الدُّنيا الذين لا يُقيمون وَزناً لِلَّذائذِ الإنسانيَّةِ ولا يَحفلونَ بالصُّورِ الجَميلةِ، وجماعـــةُ الفـــنانينَ في كَسْبِ الأموالِ الذين يَجدُونَ ما عدا ذلكَ في الحَياةِ من سَقَطِ المَـــتاعِ، فإنَّ إجماعَ بني آدَمَ أصحَّاءَ الأجسامِ والعُقولِ، واقعٌ على أن نفوسنا هي أيضاً كأبدانِـــنا مُحـــتاجةٌ إلى الغِذاءِ، ومن أطيبِ غِذائها الجَمالُ، فإنَّ مُشاهدتَه حيثُ كان تلقَـــى في نَفـــسِ الإنسانِ سُكوناً يُلَطِّفُ آثارَ حَركاتِ المَشاغلِ ويُنوِّعُ حالَ المَشاعرِ فيَحمـــيها مـــن الكَلَلِ والسَّآمةِ ويُعيدُ قُوَّتَها سيرتَها الأولى. فإذا كانَ الجَمالُ على هذا القَدرِ من تَغذيةِ الرُّوحِ الإنسانيَّةِ، كانَ تعرُّفُه بمرانةِ النَّفسِ على رُؤيَتِه حَيثما كانَ، من الأمورِ الضَّروريَّةِ للعيشةِ المَدنيَّةِ والتَّربيةِ الإنسانيَّةِ، لا أنَّه – كما يزعمونَ – أمرٌ كماليٌّ يَتشبَّثُ به أهلُ البَطالةِ وأتباعُ الهَوى وخِفافُ الهُومِ:

زَعـــمٌ باطِـــلٌ وإغراقٌ في اعتبارِ الحَياةِ حمأةَ آلامٍ يتمرَّغُ فيها الأحياءُ لا يَذوقونَ فـــيها مـــن طُعومِ اللَّذَّةِ إلا تنقُّلاً من ألمٍ قَديمٍ إلى ألمٍ جَديدٍ! إذ ليسَ ذلك ما يشعرُ به عامَّتُنا نحنُ الأحياءَ.

نحنُ لا نَعرفُ ماهيةَ الجَمالِ. ولا يَهمُّنا الآنَ البحثُ عن ذلكَ ما دَامَتْ تشعرُ به أنفُـــسنا من غيرِ تَعريفٍ مَنطقيٍّ. يَقولونَ إنَّ الجَمالَ هو عِبارةٌ عن مَظهرِ أسرارِ الكَمالِ في هـــذا العـــالَمِ الماديِّ. أو أنَّه مرآةُ حُسنِ التأليفِ بينَ الصُّورِ والألوانِ. ويقولونَ غيرَ ذلكَ.

ولستُ أظنُّ أنَّهُ يهمُّنا كَثيراً أن نَسبحَ فيما وَراءَ الطَّبيعةِ لنَرجعَ بتعريفٍ للجَمالِ. وهـــو هو بعينِه ذلك الذي نَشعرُ به في أنفسنا عندَ رُؤيةِ ما نُسمِّيه الجَميلَ، سَواءٌ كانَ هـــذا الجَميلُ مَخلوقاً حَيّاً أو جَامداً أو فِعلاً من الأفعالِ التي تَهزُّ عَواطفنا، أو مَعنى من المَعـــاني التي تَقعُ من النَّفسِ مَوقعَ الجَميلِ بالحسِّ. وإذا كُنَّا حاصلينَ على مَعنى الجَميلِ بالفعلِ داخلَ نفوسنا فخيرٌ من تَلمُّسِ حُدودِه فيما وَراءَ مَعلوماتنا، أن نَستَمتعَ بآثارِه إذ الوَاقِـــعُ أنَّ الجَمالَ مَعنى من المَعاني القُدسيَّةِ التي لا تَزالُ مُحْجُوبَةً عن أبصارِنا الكَليلةِ، مَصونةً من التَّدهورِ في هَاويةِ أبحَاثِنا الوَضعيَّةِ، رَفيعةً عن إدراكِنا المَحدودِ. مع ذلكَ فإنَّ آثـــارَه ماديَّـــةٌ نَراها بأعيُنِنا في الصُّورِ الحَيَّةِ وفي التَّماثيلِ الجَميلةِ ونسمعُها في أصواتِ المُوســـيقَى ونـــشعرُ بها رُوحاً تَفيضُ على مَشاعرِنا رضَىً بمشهدِ الأعمالِ العَظيمةِ أو بـــسَماعِ أخـــبارِها، **ذلكَ الأثرِ السَّعيدِ، أثرِ الجَمالِ، هو الَّذي يجبُ علينا أن ننمِّيَ مقدارَه في أنفسنا لنحصُلَ بها على أكثرِ ما نَستطيعُ من العيشةِ الرَّاضيةِ.**

إنَّ تَـــربيةَ الحسِّ الصَّادقِ الذي يتعرَّفُ الجَمالَ ويتأثَّرُ منه، لَيستْ على ما نَظنُّ خاضِـــعةً لقَوانينَ مُعيَّنةٍ، لأنَّها هي تَربيةُ الذَّوقِ. **والذَّوقُ شَيءٌ ليسَ في الكُتبِ. على أن نُبوغَ مُصوِّرِ التَّماثيلِ أو رَسَّامِ الألواحِ أو صانعِ التُّحفِ أو المُوسيقيِّ ليسَ نتيجةً لازمـــةً للعِلمِ بأصولٍ مُعيَّنةٍ بل هو إلهامٌ من اللهِ وفيضٌ من الفُيوضِ،** أو كما يَقولونَ

استعدادٌ خاصٌّ قد تُفسِدُه قَوانينُ العِلمِ وينمِّيه في نفسِ العَبقريّ خُروجُهُ في صِناعتِه عن حُدودِ المألوف.

أجَـلْ.. إنَّ أربابَ الفُنونِ الجَميلةِ في كلِّ زَمانٍ لم يُقيِّدُوا حُرِّيَتهم عَمداً بأقيسةٍ فنـيَّةٍ، ولكـنَّهم كَانُـوا دَائمـاً خاضعينَ لانفعالاتِهم الذّاتيَّةِ المُتولِّدةِ عن عَقائدِهم ومَـشاعرِهم ومَشاعرِ أهلِ زَمانِهم وحاجاتِ البيئاتِ التي نَشؤوا فيها. ولذلكَ كانتْ آثـارُ الفُـنونِ الجَميلةِ في كلِّ عَصرٍ من العُصورِ مُؤتلفةً غايةَ الائتلافِ مع عَقائدِ ذلكَ العَصرِ ومَشاعرِه وحاجَاتِه واصطلاحِ الجَمالِ فيه. فترى من السَّهلِ على كلِّ ذي إلمامٍ بالـتَّاريخِ والآثارِ أن يعرفَ الأثرَ الذي تقعُ عينُه عليه، في أيِّ العُصورِ صُنِع، ومن أيِّ البلادِ هو. فإنَّ هذه الآثارَ الصَّامتةَ تحدِّثُ الذي يعرفُ أن يسمَعها. تحدِّثُه بأهلِ زَمانِها صَادقةً، كما قيلَ: «**إنَّ أصدقَ الكُتبِ هو مَا كُتبَ بالحجارة**».

لـيسَ الحـسُّ الصَّادقُ الدَّقيقُ في مَعرفةِ الجَمالِ مَحلاً لتربيةٍ مُعيَّنةٍ ذاتِ أوضاعٍ مُـتَّفقٍ علـيها. كذلك لا يعرفُ التَّاريخُ أنَّ أمَّةً من الأممِ - مهما كانَتْ آثارُ فُنونِها الجَميلةِ ذاتَ شَخصيَّةٍ مُستقلّةٍ عن غَيرِها - قَطَعتِ النَّسبَ بينَ فُنونِها الجَميلةِ وغيرِها، ونَـبَغتْ فيها. بل التَّاريخُ يدلُّ على أنَّ الفُنونَ الجَميلةَ الفَرعونيَّةَ، إنَّما كانَ أصلُها من أثيوبـيا دَخلتْ عندَ المصريِّين، فأخذتْ طابعَ عقائدِهم الخاصَّةِ ومَشاعرِهم وحاجَاتِهم فتغيَّرتْ عن أصلِها وصَارتْ ذاتَ شَخصيَّةٍ مُستقلّةٍ. فلمَّا أخذَها عنهم الرُّومانُ تغيَّرتْ تَغييراً جَديداً، وإن كَانَ هَؤلاءِ لم يتفوَّقُوا فيها على أساتذَتِهم اليُونانيِّين. وهكذا أخذت الفُـنونُ الجَمـيلةُ العَـربيَّةُ من غيرِها وكَانتْ في يدِها خَليطاً ثمَّ أفاضَتْ عليها الرُّوحُ العَربيَّةُ الإسلاميَّةُ جَمالَها الخاصَّ فأصبَحَتْ ذاتَ شَخصيَّةٍ مُستقلّةٍ عن غيرِها مميزةً عمَّا عَداها، سَواءٌ كانَ ذلكَ في الأنغامِ المُوسيقيَّةِ أو في تُحفِ الآثارِ والصِّناعةِ الفنِّيةِ والرَّسمِ والتَّماثـيلِ. وإن كانتِ الصُّورُ والتَّماثيلُ قليلةً في الفُنونِ الجَميلةِ العَربيَّةِ، إلاَّ أنَّ الذي وُجِـدَ مـنها في بعضِ الآثارِ كالحَمراءِ بغَرناطةَ والقَصْرِ في إشبيليةَ وفي دارِ المُستنصرِ

وغيرِه من بعضِ المُلوكِ والخُلفاءِ، قد دلَّ أهلُ الفَنِّ على أنَّ الرَّسمَ والتَّصويرَ في الإسلامِ لهما طابعٌ خاصٌّ.

على هذا الاعتبارِ يمكنُنا أن نقولَ: **إنَّ الحسَّ الصَّادقَ الَّذي يتعرَّفُ الجَمالَ في الآثـارِ لا يَجوزُ أن يُهملَ أمرُه ويُتركَ للمُصادفة الصِّرفة، اعتماداً على أنَّ الذَّوقَ لـيسَ في الكُـتبِ**، بل يجبُ أن تُمرَّنَ النَّفسُ على رُؤيةِ الجَميلِ من الصُّورِ والألواحِ والمَصنوعاتِ وسَماعِ الجَميلِ من الغناءِ حتَّى يرقَّ شُعورُها وتَحصلَ لها هذه اللَّذَّةُ الَّتي تأتي من مَعرفةِ الجَمالِ وتَقديرِه، فإنَّها لا تَعدلُها في صَفائها وعُلوِّ مَكانَتها لذَّةٌ أخرَى. لـذَّةٌ ضَروريَّةٌ للفَردِ نافعةٌ للمَجموعِ. وأقربُ ما يَكونُ هذا المِرانُ العَمليّ في زِيارةِ دارِ الآثارِ المِصريَّةِ ودارِ الآثارِ العَربيَّةِ وزِيارةِ العِمارات الأثريَّةِ الفِرعونيَّةِ والعَربيَّةِ كالهَياكلِ والمَعابدِ والمَساجدِ القَديمةِ، ثمَّ زِيارَتِها في كلِّ فُرصةٍ تُمكِّنُ من ذلكَ.

يجـد الإنـسان آثار الجمال في الطبيعة فإنه إذا صفت نفسه واتسع أفق بصره، وعلت مرتبة إدراكه، يرى الجمال في الطبيعة حيثما أدار عينيه. يرى في الرياض جمالاً. وفي البحـر الفـسيح جمـالاً. بل يرى في الطبيعة الجدوب والجبل الأقرع والصحراء الجـرداء، جمالاً من نوع خاص. كما يرى الجمال في بعض الإنسان وبعض الحيوان. غير أن للجمال في نفوس الناس قيداً خاصاً يقيدون به معناه العام، وهو جمال الخلقة في بني الإنسان على الخصوص. فإذا أقبلت على أحد الشبان تلقي عليه بغتة هذا السؤال: هل تحب الجمال! تكيف هذا السؤال العام في ذهنه بصورة امرأة حسناء وكان جوابه عنه مقيداً عنده بهذه الصورة، إلا إذا الفتّ ذهنه إلى معنى الجمال على إطلاقه.

ذلـك أمـرٌ مهـمٌّ لا نَعني باستقصاءِ مَصْدَرِه في النَّفسِ. ولكنَّنا يجبُ علينا أن نُطـاوعَ هذا الاصطلاحَ العامَّ بعضَ الشَّيءِ في تَربيةِ الذَّوقِ. ومن غيرِ المُمكنِ أن يوفَّقَ المرءُ إلى رُؤيةِ امرأةٍ مثلِ (زَهرةِ رُوفائيل) في الجَمالِ. بل قد يكونُ بينَ جسمِ المَرأةِ الحيَّةِ الجَمـيلةِ وبينَ زوجِها، فوارقُ واضحةٌ تنقصُ مقدارَ جمالِها إلى ما دونِ المَرأةِ العاديَّةِ.

وكذلك الرَّجلُ. أما ذلك التِّمثالُ الصَّامتُ، فإنَّه لا يَلوحُ عليه من الآثارِ المَعنويَّةِ إلاَّ ما أرادَ المصوِّرُ أن يجعلَه مثلاً أعلى للمَعاني التي تشفُّ عنها أوضاعُ الجسمِ. على أنَّه من كثيرِ الوُقوعِ أنَّ المَرءَ لا يقصرُ النَّظرَ إلى الأجسامِ الحيَّةِ المُتحرِّكةِ على مُشاهدةِ الجَمالِ المُجرَّدِ، بل قد يُشارِكُ مَعنى الجَمالِ في ذهنِ الرائي معانٍ شتَّى تُشوِّشُ على النَّفسِ استطلاعَ الجَمالِ. وليسَ الأمرُ كذلك في رُؤيةِ الألواحِ والتَّماثيلِ الجَميلةِ. فإنَّ النَّظرَ إليها يَكونُ دائماً خالياً عن كلِّ ما يَزحُمُ مَعنى الجَمالِ في خَيالِ الرائي: ولهذا الاعتبار نَكادُ نقولُ **إنَّ خيرَ نموذجٍ لتربيةِ الذَّوقِ في إدراكِ آثارِ الجَمالِ هو استدامةُ النَّظرِ إلى جَمالِ الآثارِ**. وربَّما كانَ هذا النَّموذجُ هو النَّموذجَ الَّذي اتَّخذه النَّاسُ من قبلُ عندَ التَّشبُّثِ بتعلُّمِ الفُنونِ الجَميلةِ. لأنَّهُ لو كانَت الطَّبيعةُ كَفيلةً بتَقديمِ نَماذجِ الجَمالِ لاكتفتْ كلُّ أمَّةٍ بما لَديها من النَّماذجِ الطَّبيعيَّةِ من غيرِ أن تَستعيرَ نَماذجَ الفُنونِ الجَميلةِ من غيرِها كَما ذَكرنا. لا شَكَّ في أنَّ الأمَّةَ الأولى أخَذَتْ نَماذجَها عن الطَّبيعةِ، ولكنَّ من خَلَفَها من الأممِ قد رأى الأخذَ عَنها أقرَبَ من الأخذ عن نَماذجِ الطَّبيعةِ. فإذا كانَ شُبَّانُنا المُتعلِّمونَ يَجعلونَ من بعضِ هَمِّهم زيارةَ دورِ الآثارِ واستقصاءَ تَرقِّي التَّصويرِ والصِّناعةِ الفنِّيةِ فيها من عَصرٍ إلى عَصرٍ، واعتَادُوا على ذلكَ حَصَّلوا لذَّةً لا يُحصِّلُها الذين يَصرفونَ وقتَ الفَراغِ في غيرِ لذَّةٍ بَريئةٍ، بل في سُكونٍ وسآمةٍ، واستفادَ منهم المستعدُّ في صَحَّةِ حُكمِه عن الأشياءِ. وزادَ علمُه بمصرَ وحبُّه لَها وتَقديرُه تَقديراً صَحيحاً مَجْدَها في المَدنيَّتين الفرعونيَّةِ والعَربيَّةِ، واحترَمَ قومَه ونفسَه بالتَّبَع. إذ الوَاقعُ يَشهدُ أنَّنا لا نَعلمُ من قيمةِ وَطنِنا ومَجدِه ما يَعلمُه السَّائحونَ. فإذا نَحنُ تَتبَّعنا آثارَ الجَمالِ وَعُنينا بجَمالِ الآثارِ، حَصَلنا على بُزورٍ جَديدةٍ تَنفعُنا في تَمصيرِ المَدينةِ الغَربيَّةِ الحَاليَّةِ لأنَّ أذواقَنا تَكونُ بعدئذٍ خَليطاً ممَّا تَعلَّمناهُ من المَبادئِ الغَربيَّةِ وما كَسبته مَشاعرُنا من التَّربيةِ الغَربيَّةِ، ومن ذَوقٍ مَصريٍّ ونَزعاتٍ مصريَّةٍ مَصدرُها مَشاعرُ جنسِنا الوِراثيَّةُ مُضَافاً إليها المَشاعرُ المَصريَّةُ التي تَتكيَّفُ في نُفوسنا

تَكيُّفاً مَصريّاً حَقيقاً بالإيغالِ في تعرُّفِ الآثارِ المصريَّةِ فرعونيَّةً وعربيَّة.

لا شَكَّ في أنَّ آثارَنا جَميلةٌ ورُؤيَتها تَبعثُ في النَّفسِ الرِّضَى الَّذي يَحصُلُ برؤية الجَميلِ. **وخيرُ الفَوائدِ ما وَجَدَ منه المُستَفيدُ رِضىً ولَذَّةً.** فلا يَغلُو الَّذي يَقولُ إنَّ الوَقتَ الضَّائعَ هو ذلكَ الوَقتُ الَّذي يصرِفُه أبناؤُنا وبَناتُنا المُتروِّضونَ في غيرِ مَواضِعِ الآثارِ.

لئن قامَ عذرُ عُلمائنا الأثريِّين في أنَّهم لا يُظهِرونَ حُبَّهم لنَشرِ مَعلوماتِهم الأثريَّةِ بالمُحاضَرات، فَما هو عُذرُ الشُّبَّانِ في هَجرِ دُورِ الآثارِ الَّتي إنْ لم يَجِدُوا من يعلِّمُهم فيها، ويوضِّح لهم جَمالَها، و لم يَستَطيعُوا أن يَستَفيدُوا ممَّا كَتَبه العُلماءُ من وَصْفِها وسِنِّها، فلا أقلَّ من أنْ يُدرِكُوا جَمالَها ويَحصُلوا لذَّةَ رُؤيَةِ الجَميلِ. **إنَّه لا تتمُّ وَطنيَّةُ المَرءِ إلاَّ إذا عَرَفَ أمَّتَه قَديمَها وحَديثَها، فإنَّ من جَهِلَ قَديمَها فهو مُدَّعٍ في حُبِّها، لأنَّ من جَهلَ شَيئاً عَاداهُ.**

من كتاب

تأملات ص (١٨-٢٤)

Damascus University

• **التطبيق:**

وقف الكاتب على الأفكار التالية:

١- تأثير الجمال في نفس كل إنسان صحيح.

٢- اختلاف الأذواق.

٣- الجمال تغذية الروح الإنسانية.

٤- ضرورة الاستمتاع بآثار الجمال.

٥- أرباب الفنون لم يقيّدوا حريتهم عمداً بأقيسة فنية.

٦- اتصال الفنون بعضها ببعض.

٧- آثار الجمال موجودة في الطبيعة.

٨- ضرورة الاهتمام بآثارنا العربية.

(الأسئلة)

آ - في المعنى:

١- هل في العنوان تكلُّف في الألفاظ؟ وهل كان مناسباً للنص؟!

٢- حدِّد الجمل والأساليب التي تشير إلى أن المقالة تأملية.

٣- ادرس استعمال الحواس في النصّ.

٤- ادرس الألفاظ من حيث: ملاءمتها للنص - سهولتها وصعوبتها وجزالتها.

ب - في اللغة:

١- استخرج من المقطع الأول: «لا أظنّ.. الأحياء» المنصوبات، وحدد أنواعها.

٢- استخرج من المقطع الثاني: «ولست أظنّ... العيشة الراضية» أنواع الجموع بحسب الجدول التالي:

جمع مذكر سالم	مفرده	جمع مؤنث سالم	مفرده	جمع تكسير		
				قلة	كثرة	صيغ منتهى الجموع

٣- كثر استعمال أسلوب الشرط في النص، استخرج عدداً منها محدداً أركان الأسلوب (الأداة - فعل الشرط - جواب الشرط).

٤- اضبط بالشكل المناسب المقطع: «يجد الإنسان... إطلاقه».

٥- أعرب المقطع الأخير من النص: «لئن قام... عاداه».

ج - الإنشاء:

اكتب مقالة تأملية في موضوع تحياه في محيطك.

❖ ❖
❖

Damascus University

الفصل الثاني

نماذج من المقالة الموضوعية

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

-١-

المقالة النقدية

مصير اللغة العربية في المهجر الأمريكي

سامي الكيالي (١٨٩٨-١٩٧٢):

- ولد في حلب ١٨٩٨، ودرس في المدرسة السلطانية (التجهيز)، وأولع بالأدب والتاريخ والرحلات منذ صغره.
- عمل في الإدارة، ومن المهام التي تسلّمها: مدير دار الكتب الوطنية، ومدير المركز الثقافي العربي بحلب، وشغل منصب مستشار ثقافي للوفد السوري في الأونسكو.
- أصدر مجلة الحديث ١٩٢٧ التي استمرت حتى ١٩٦٠، وكانت من أشهر المجلات جذبت إليها كبار الكتّاب، مثل طه حسين وحسين هيكل، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، ومحمد كرد علي، وشفيق جبري، وكثيرين آخرين.
- ترك مؤلفات كثيرة تزيد على الثلاثين منها: نظرات في التاريخ والنقد والأدب، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، أبو العلاء (دفاع ابن العديم عنه)، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره، الراحلون، المرأة هذا اللغز الأبدي، الأدب العربي المعاصر في سورية.
- هذا غير مئات المقالات والدراسات والقصص.
- مات ١٩٧٢ بعد معاناة مع المرض.

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

مصير اللغة العربية في المهجر الأمريكي

سامي الكيالي

... لنا في الأمريكيتين جاليةٌ كَريمةٌ رَفَعت اسمَ العربِ عالياً.

كانتْ كُتلةً صَغيرةً فأصْبَحتْ مَجموعةً كَبيرةً وهَيئاتٍ مُختَلفةً.

عَبَـرتِ البَحرَ إلى العَالمِ الجَديدِ خاليةَ الوِفاضِ لا تَحملُ في أطواءِ صَدْرِها سِوى إيمانِها القَويِّ وإخلاصِها الأكيدِ للعَملِ.

دَخَلتْ مُغامرةً وما زالتْ تَدأبُ وتَكدُّ وتَعملُ بصَمتٍ وصَبرٍ وجَلدٍ حَتَّى بَلَغتِ الذُّروةَ وشَارفتْ القِمَّةَ.

كـانَ المَفروضُ أن تَذوبَ وأن تَمَّحي في ذلكَ الأوقيانوسِ العَظيمِ بينَ صَخَبِ المـادّةِ ودَوِّيها ولكنَّها لم تَذُبْ ولم تَمَّحِ بل صَمَدتْ للأحداثِ واحتَفظتْ بالخَصائصِ القَومـيَّةِ الَّتي هي شِعارُ العَربيِّ أينَ اتَّجَهَ وفي أيَّةِ بُقعةٍ هَبَطَ.. وما زَالتْ حَتَّى انبَثَقَ لنا هُناكَ، على ضِفافِ «الهِدسن» و«الأمازُون»، هَدْيٌ جَديدٌ كَثيرُ الإشعاعِ، قَويُّ النُّورِ واللَّمعانِ.

وكَمـا نَقـلَ العَربُ لُغتَهم إلى الأندَلُسِ فكانَ لنا من وَراءِ فَتحِهم هذا الأدبُ الأندَلُـسيُّ النَّضيرُ فقَد حَملَ المُغتَربونَ مَعهم لُغتَهم فكانَ لنا هذا «الأدبُ المهجَريُّ» الذي يَحلو للكَثيرينَ أن يُطلِقُوا عليه «الأدبَ الأندَلُسيَّ» إطلاقَهم «الأندلُس الجَديدة» على البِيئاتِ العَربيَّةِ الَّتي تَكتَّلتْ في العَالمِ الجَديدِ، وكُلُّها من سُوريَّةَ ولُبنانَ وفِلسطينَ،

وكَـوَّنتْ عُنصُراً لَه قُواهُ الماديَّةُ والمَعنويَّةُ، أطلَقُوا على هذه البيئاتِ (الأندلسَ الجَديدة) تَـشبيهاً بالأنـدَلُسِ القَديمةِ الَّتي فَتحَها العَربُ، وهم في تَشبيههم لا يَنْأونَ كَثيراً عن الحَقـيقة، **فالفَـرقُ أنَّ العَربَ «دَخلوا الأندلسَ فاتحينَ فَفَرضُوا سُلطانَهم ونَشَروا هَيبَـتهم وحَمَـوا بسُيوفِهم مُؤسَّساتِهم ومَعاهدَهم ولُغتهم فَدَرجَ العلمُ والأدبُ في ظِـلالِ أعلامِهـم، وزَها الشِّعرُ في خَمائلِ مَجدِهم، في حين أنَّ قَومَنا دَخلُوا أرضَ «كُولُومبُس» مُستَرزِقينَ، طَالبينَ عَطفاً، سَائلينَ عَدلاً**، أمَّا وَجهُ الشَّبه ففي هذه الدَّولة الأدبيَّة الَّتي بَناها قَومُنا هُناكَ شَأنُ العَربِ في الأندَلُسِ، فالأندلُسُ الجَديدةُ نَشيئةُ الأديبِ المُغتربِ الذي استُشهِدَ في سَبيلِ قَومِه ومن أجلِ لُغَتِه، زَهِدَ في كُلِّ شَيءٍ ما خَلا وَطَنَه، وقَـنعَ بالبيـئةِ لكي يُحافظَ على لسانِه، ولَيسَ الفَضلُ أن تَصونَ لُغَتَك وأنتَ قابعٌ في ديـارِكَ وبـينَ عَشيرَتِك، وإنَّما الفَضلُ كُلُّ الفَضلِ أنْ تَصُونَها وتَحتَضنها وتَشقى من أجلِهـا وأنتَ في ديارٍ غَريبةٍ عَنكَ لِساناً وعادَةً وعُرفاً»[1]. **إنَّ الأندلسَ الجَديدةَ هي نَـشيئةُ الأديـبِ المُغتَربِ**، فقد استَطاعَ غيرُ واحدٍ من فُحولِ الأدباءِ مُنذُ نصفِ قَرنٍ تَقـريباً، أن يُبدِعَ أدباً جَديداً، يَجمعُ بينَ النَّزعةِ الإبداعيَّة، وأنْ يَتَّجه في بَعضِ صُورِه اتِّجاهاً صُوفيَّاً أو إنسَانيَّاً، كَانَ لَه أثَرُه في عُقولِ الأمريكيِّينَ أنفُسِهم حينَ تُرجِمَت لهم بَعضُ نَماذجه ممَّا كَتَبه جُبرانُ وغيرُه.

وقـد أقبَلَ قُرَّاءُ الأدبِ في مُختَلفِ الأقطارِ العَربيَّةِ يَقرؤُونَ هذا الأدبَ فيَجدونَ صُـوراً جَديـدةً في مَنازِعِه واتِّجاهَاتِه، وحينَ أطلَقُوا عليه صِفةَ «الأدبِ الأندَلُسيّ» أرادُوا مـن ذلكَ رِقَّتَه وجَزَالَتَه وتَصويرَه للخَوالجِ النَّفسيَّةِ والنَّبضاتِ الحِسيَّةِ والنَّوازِعِ العَاطفـيَّة، وقد تَلقَّاهُ القُدماءُ كأدبٍ هَزيلٍ لا يَمُتُّ إلى العَربيَّةِ بِصلة، وأخَذُوا يَنقُدُونَه نَقـداً يَتناولُ المَبنى أكثرَ من المَعنى، والعَرضَ أكثرَ من الجَوهرِ، وبالرَّغمِ من ذلكَ فقد

---

[1] مجلة العصبة: حبيب مسعود.

عاشَ في قُلوبِ القُرّاءِ وفي أخيلتهم لأنّه صَدىً لما هَجَسَتْ به نُفوسُ طَائفة من المَوهُوبينَ أبدَعُوا أجملَ القَصَصِ الوَجديّ، وأروعَ القَصائد الحيَّة، وأمتعَ التأمُّلات الفَلسفيَّة، ولم يَقف إنتاجُهم عندَ هذا المَحصولِ الأدبيِّ الَّذي ازدَانَتْ به مُجتَمعاتُهم بل ألَّفُوا عَشَراتِ الكُتبِ في مُختلفِ المَباحثِ وأصدَرُوا الصُّحُفَ والمَجلاّت، وبذلكَ كوَّنُوا للعَربيَّةِ مَقاماً عَظيماً، إلى جَانبِ عَشراتِ اللُّغاتِ المُتبايِنَةِ الّتي تَعيشُ في أمريكا.

* * *

لأدبِ المَهجرِ لَونُه الخاصُّ به، فهو لَونٌ رائعُ الصُّورِ، لا يُمكنُ لأحد أن يُنكرَ جَمالَه إلاّ مَنْ كانَ ذَوقُه من فَهمِ الأدبِ الخَبَلَ والسَّقامَ. على أنَّ هذه الهَناتِ الّتي تَعتورُ أسلوبَهُ، وتَمسُّ أحياناً بعضَ تَعابيرِه، مَردُّها، على ما أعتَقدُ، إلى هجرة المُغتَربينَ لتلكَ الأوطانِ في فَترةٍ كانتِ الأساليبُ العَربيَّةُ نَفسُها تَشكُو العِللَ والسَّقَمَ، ثمَّ بُعدُهم عنِ المَواطِنِ العَربيَّةِ واندماجُهم في الحَياةِ الأمريكيّة... وبالرُّغمِ من هذه الهَنات التي يُشيرُ إليها النُّقادُ فقد ظلَّ أدبُ المَهجرِ ذا شَخصيَّةٍ مُستقلَّةٍ بمنازعِه واتّجاهاته وصُوَرِه وتَلاوينِه، أريدُ الأدبَ الذي أبدَعَه جبرانُ والرَّيحانيّ ونُعيمةُ وأبو مَاضي وغيرُهم وغيرُهم من الَّذينَ انتظَمتْهم «الرَّابطةُ القَلميَّةُ» في فَترةٍ من الزَّمنِ، وهو بشَخصيَّته المُستقلَّة كانَ أدَباً احتلَّ مَكانَتَه الرَّفيعةَ بينَ أدبِنا الحاضرِ لا يَزالُ أثرُه قَويّاً في نُفوسِ النَّاشئةِ تَلتهِمُه كَلَونٍ جَديدٍ من ألوانِ الأدبِ الرَّفيع.

واتساءلُ: وَقَدْ يَتساءلُ القَارئُ، اينَ هوَ انتاجُ «الرَّابطةِ القَلميَّةِ»؟ ويُؤلمُني ان اقولَ انَّ انتَاجَها قد وَقفَ او كادَ لولا هَذه التَّأمُّلات الفَلسفيَّة التي يُرسلُها ناسكُ الشّخروبِ ميخائيل نُعيمة، والشَّاعرُ الفَيلَسُوفُ ايليا أبو مَاضي الَّذي اجتَذَبتهُ الصَّحافةُ الى رِحابِها، وصَيحات من بَعضِ ادباءَ عَاشُوا مع جُبران في ظِلال الرَّابطةِ. ولا اريدُ ان اقولَ انَّ صَوتَ الادبِ في امريكا الشَّماليَّة قد خَفَتَ، وانَّ صَفحَتَه قد طُوِيَت، وانَّ شُعلَتَه قد خَمَدَتْ بخُمودِ شُعلةِ «الرَّابطةِ القَلميَّةِ»... لا فَلا يَزالُ هناكَ أدباءُ وصَحفيُّونَ

ومُفكّـــرونَ وشُـــعراءَ يَنظُمونَ شعراً، ويَكتُبونَ نَثراً، ويُبدِعُونَ في شَتَّى مَيادينِ الفكرِ، ولكنَّه أدبٌ ضَعيفٌ رَخوٌ غَلبتْ عليه النَّزعةُ المادِّيةُ و لم يَعدْ يَشعُّ بتلكَ النَّزعةِ المثاليَّةِ التي يتميَّـــزُ بها أدبُ جبران مثلاً. أي لم نَعُد نَسمعُ بعدَ انفراطِ عقدِ «الرابطةِ القَلميَّة» تلكَ الأهـــازيجَ الَّـــتي كانَ يُرسِلُها جُبرانُ والرّيحانيّ ونُعيمةُ والدَّرويشُ وعَريضة، ولا تلكَ الدِّراســـاتِ القَـــيِّمةَ الَّـــتي كانَ يُحاوِلها أدباءُ جَريئونَ تَحرَّروا من مواضَعاتِ الرِّياءِ والمُداهَنة، داءِ الأدبِ الوَبيل!

إنَّ أدبَ المَهجرِ قد انتَقلَ من الشَّمالِ إلى الجَنوبِ إلى البَرازيل، فقد قامَ هناكَ نفرٌ من الأدباءِ والشُّعراءِ اتَّسَمُوا بحريَّةِ الفكرِ وبحُبِّ الأدبِ، بَينهم اللُّغويُّ المُدقِّقُ، والشَّاعرُ المُنطَلقُ في الأجواءِ، والمُنشئُ النَّاصعُ الدِّباجةِ وأسَّسُوا رابطةً أدبيَّةً أطلَقُوا عليها اسمَ «العُصبة الأندَلسيَّة» وأصدَرُوا مَجلَّةً تَنطِقُ باسمِهم وتَكونُ مرآةً لأدبِهم وصُـــورةً لنَـــزعاتِهم التَّحرريَّةِ وأطلَقُوا عليها اسمَ «العُصبة» وقَد سَلَختْ إلى الآنَ عـــشرَ سَـــنواتٍ مـــن حَياتِها المَديدة، وهي تَقومُ بعملٍ جَبَّارٍ، وكأنَّها قد حَمَلتْ عن «الـــرَّابطةِ القَلمـــيَّة» عِبْءَ التُّراثِ الأدبيِّ في المَهجرِ. والأدبُ العَربيُّ في البَرازيلِ الآنَ، كَما يَقولُ عَميدُ العُصبة، بينَ مَدٍّ وجَزرٍ، وقد تَنازَعتْه عَواملُ البَقاءِ والفَناءِ مراراً.. وُلِدَ فَقـــيراً بينَ حَفنةٍ من البَشرِ نَزَحتْ عن وَطَنِها طَلباً للرِّزقِ.. ودَرَجَ هَزيلاً لسُوءِ غِذائِه المـــاديِّ والأدبـــيِّ، وشَبَّ نَشيطاً يَجري في عُرُوقِه دَمٌ استَمدَّه من قَافلةٍ أدبيَّةٍ جَديدةٍ لَحِقَتْ بالقَافلةِ الأولَى، وتَعطفُ عَليه بيئةٌ ارتَفَعَ مُستواها العَقليُّ وباتَتْ تَتذوَّقُ الأدبَ وتُقبلُ على جَيِّدِه، وقد دَخلَ اليَومَ في طَورِ كُهولتِه فأينَعتْ ثِمارُه وطابَ شَرابُه..

ولكن ما بعدَ الكُهولة؟.

هذا ما لا نُريدُ أن نتوَقَّعَ حُدوثَه؟ فالوَاقعُ، **أنَّ «العصبة الأندلسيَّة» في البَرازيلِ تَقـــومُ بحَملِ رِسالةِ الأدبِ وتُراثِ العَربِ بأمانةٍ وإخلاصٍ، ولا نُكرانَ أنَّها اليَومَ في أوجِ حَماســـها تَـــضطَلِعُ بحَملِ هذا التُّراثِ الأدبيِّ الذي أصبَحَ جُزءاً مُتمِّماً لأدبِنا**

المعاصر. وكلُّ ما نرجُوهُ أن يَظلَّ هذا الحماسُ مُضطَرِمَ الأُوارِ وألاّ يُصبحَ مَصيرُ «العصبة» غداً - لا سَمَحَ اللهُ - كمَصيرِ «الرابطة» بالأمسِ..

إن «العصبة» **تقوم الآن على إنتاج أدباء حملوا شعلة الأدب بين جوانحهم قبل أن ينزحوا عن هذه الأوطان، وقد ظلت هذه الشعلة تضطرم وهم في تلك المهاجر البعيدة، بل زادها الحنين إلى الوطن وهجاً ونوراً والتماعاً**.. ولكن ما مصير الأدب غداً إذا آل أمره إلى أبنائهم وأحفادهم؟.. ويتلقى أولادهم في المدرسة والمجتمع، لغة غير لغة آبائهم وأجدادهم... لا شك أن «التأمرك» سيلعب دوره بقوة في نفوس هؤلاء الأطفال الذين ستنقطع صلتهم لا بالأدب العربي فحسب بل باللغة العربية التي لن يعرفوا منها غير كلمات يرطنون بها دون أن يكتبوا بها. وإذا هزت «آلهة الشعر» بعض الأفئدة لكتابة قصيدة أو مسرحية، وإذا أراد واحد منهم أن يؤلف في موضوع اجتماعي أو علمي كانت لغته الإنكليزية أو البرتغالية لا لغة آبائه وأجداده!

وقَدْ أخذَ أدباءُ المَهجرِ يُشيرونَ إلى الخَطرِ الّذي يَتهدَّدُ العَربيَّة بل لم يَتردَّد بعضُهم أن يَذكُرَ كلمةَ «الاضمحلال» في مَعرضِ حَديثِه عن الأدبِ العَربيِّ في أمريكا.

يَقولُ أحدُ شُعراء المَهجرِ «ما نحنُ من المُتشائمينَ، ولكنَّها الحقيقةُ، فكَيفَ نَصدُفُ عنها وإن آلَمتْ. إنَّ الأدبَ العَربيَّ في المَهاجرِ الأمريكيَّةِ صائرٌ إلى الاضمِحلال». وقد أشارَ إلى هذا صَاحِبُ الهُدى المَرحُومُ الأستاذُ مَكرزل بقولِه:

«ما صُدورُ الصُّحفِ باللُّغة العَربيَّةِ في المَهاجِرِ الأمريكيَّة إلاّ لأنَّ من المُهاجِرِ الأوَّلِ، من مُتكلّمي هذه اللُّغة، عَدَداً وافياً للقيامِ بأودِ هذه الصُّحف، وما وُجودُ هذا العَددِ الوافي إلاّ لحداثةِ مُهاجَرتنا نسبيّاً.. أمَّا بانقراضِ الجيلِ الأوَّلِ من المُهاجِرينَ فالصُّحفُ مَقضيٌّ عليها حَتماً بالزَّوالِ وإن كابَرَ في إنكارِ هذه الحَقيقةِ نَفرٌ من المَدفوعينَ بالعَاطفة أكثرَ منهم بالمَنطقِ».

إنَّ البيئةَ الأمريكيَّةَ والمَدارِسَ الأمريكيَّةَ تَحتَضِنُ أبناءَ المُهاجِرينَ وتُلقِّنُهم لُغتَها

وعَقليَّـــتَها ونَـــزَعاتها وعادَاتها فما يَكادُ هَؤلاء الأطفالُ يَترَعْرَعونَ ويَشِبُونَ ويَدخلونَ غمـــارَ الحَياةِ ويَتسلَّمُونَ هذه المَتاجرَ الكَبيرةَ والمَصانعَ الضَّخمةَ والأعمالَ الوَاسعةَ الَّتي أسَّـــسَها آباؤُهم وأجدادُهم حتَّى يَكُونوا قد أصْبَحُوا «أمريكيين» رُوحاً وفِكراً وقَلباً وقـــد قَطعُوا عَلاقَتهم بلُغتهم وَوَطنهم إلاَّ بَقايا حَنينٍ قد يَذكُرونَه بالمُناسبات الطَّارئة، قَوميَّةً أو دِينيَّةً، ثمَّ لا يَلبَثُونَ أن يَعُودوا إلى سُلطانِ البيئة الَّتي أحالَتهم «آلات مُتحرِّكة» تَـــدورُ مُـــسرِعةً مـــعَ الزَّمنِ في تِلكَ البَوتَقةِ الكَبيرةِ الَّتي صَهرَتْ ولا تَزالُ تَصهرُ في جَحِيمِها أو نَعِيمِها لا أدري، مُختَلفَ الجَماعاتِ وشَتَّى الثَّقافاتِ!.

من الأدب المعاصر

ص (٧٢-٨٤)

جامعة دمشق Damascus University

«الأسئلة»

آ ــ في المعنى:

١- في النص عددٌ وافر من الأفكار الرئيسية، حدِّدها.

٢- ما الرابط بين الأندلس والمهجر، وما الصلة بين الأدبين؟

٣- تكلم على أسلوب الكاتب.

٤- اكتب مقالة تتحدث عن إنتاج الأدب المهجري ودوره في الثقافة المعاصرة.

ب ــ في اللغة والأسلوب:

١- اضبط بالشكل المناسب المقطع التالي: «إن العصبة... وأجداده».

٢- أعرب المقطع التالي مفرداتٍ وجملاً «لأدب المهجر... الأمريكيتين».

٣- ضع همزة القطع في المقطع التالي معللاً:

«وأتساءل... الرابطة القلمية»

٤- وردت كلمة التأمرك، وهذا دليل على الاشتقاق في لغتنا، هات عدداً من الكلمات الأخرى على الوزن نفسه

٥- استخرج من النص: آ - (٥) أفعال ناقصة وحدد أسماءها وأخبارها.

ب - (إلاّ) أينما وردت وأعرب ما بعدها.

كثر استعمال أسلوب العطف، ولهذا دلالة فعلام يدلّ. ادرس هذا في المقطع التالي: «إنّ أدب المهجر... شرابه».

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

زكي نجيب محمود (١٩٠٥-١٩٩٣):

- ولد بقرية ميت الخولي عبد الله محافظة دمياط سنة ١٩٠٥. حيث تلقى تعليمه الأول وجزءاً من تعليمه الابتدائي. ولما صار عمره تسع سنوات انتقل مع أبيه إلى السودان وأقاموا بمدينة الخرطوم حيث أكمل تعليمه الابتدائي وتعليمه الثانوي. وفي سنة ١٩٢٦ عاد إلى القاهرة والحق بمدرسة المعلمين العليا وتخرج فيها بعد أربع سنوات وعمل مدرساً.
- ومن ثم تخصص في دراسة الفلسفة. ونال فيها درجة الدكتوراه من جامعة لندن. وعاد إلى مصر سنة ١٩٤٧وقام بتدريس الفلسفة في قسم الفلسفة بكلية الآداب بالجامعة.
- وقد عده النقاد من أبرز مفكري العصر الحديث من العرب، كما وصفه العقاد ذات يوم بأنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، باعتباره المفكر الذي يصوغ فكره أدباً، والأديب الذي يجعل من أدبه فلسفة.
- وقد كان التطلع إلى مجتمع أفضل هو الأساس الذي انطلقت منه الإسهامات الفكرية للدكتور زكي نجيب محمود الذي كان يحلم منذ بداياته الأولى بتحقيق أرض الأحلام في مصر. فأصدر سنة ١٩٣٩ كتاباً يتحدث فيه عن «اليوتوبيات الفاضلة» - نسبة إلى عالم خيالي كامل أسماه «أرض الأحلام» - وعلى الرغم من ذلك فلم يتعارض ذلك مع منهجه الوضعي الذي اختاره المفكر الكبير لنفسه.
- وقد ترأس الدكتور زكي نجيب محمود «مجلة الفكر المعاصر» التي أصدرتها وزارة الثقافة في مصر سنة ١٩٦٥، ومنح جائزة الدولة التقديرية في الأدب سنة ١٩٧٥.
- وظل يكتب في جريدة الأهرام مقاله الرئيسي بين يوم وآخر حتى أدركته الوفاة في ٧ سبتمبر سنة ١٩٩٣.
- من مؤلفاته: تجويد الفكر العربي - المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري - الكوميديا الأرضية - شروق من الغرب - ثقافتنا في مواجهة العصر - موقف من الميتافيزيقا - عن الحرية أتحدث - عربي بين ثقافتين - في تحديث الثقافة العربية.

-٢-

المقالة الفلسفية

شعر وتنجيم

«إخوان الصفا - نموذجاً»

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

سحر وتنجيم

زكي نجيب محمود

لعلَّ قمَّة اللامعقول في حَياة الإنسان العمليَّة - والعلميَّة الزَّائفة كذلكَ - هي أن يَدخُلَ السِّحرُ عاملاً من عَوامِلِ المَسيرِ والمَصيرِ، إذ ما السِّحرُ إن لم يَكنْ هو تَعليلَ الأحداثِ بغيرِ أسبابِها الطَّبيعيَّة؟ فإذا كانَتْ علَّةُ المَطرِ الطَّبيعية - مثلاً - هي مقدارَ ما يَتكثَّفُ في الهَواءِ من بُخارِ المَاءِ، جَعلها السَّاحرُ وَرقةً يَكتُبُ عليها أحرُفاً يَختارُها أو عِبارات، يَزعمُ لها القُدرةَ على إنزالِ المَطرِ، وإذا كانتْ علَّةُ الشِّفاء من مَرضٍ مُعيَّنٍ هو أن تُزالَ الجَراثيمُ الَّتي تُحدِثُه، كانتْ هذه العِلَّةُ عندَ السَّاحرِ عفريتاً سَكنَ الجَسَدَ العَليلَ، والشِّفاءُ من المَرضِ إنَّما يَكونُ بطَردِ هذا العفريتِ بأقوالٍ تُقالُ وبَخورٍ يُعطِّر جَوَّ المَكانِ ويُطهِّرُه من الكَائناتِ الشَّيطانيَّةِ العَابثة بأجسادِ النَّاسِ، وهكذا.

ولَئنْ كانتْ هذه الصُّورُ الصَّارخةُ من أشكالِ السِّحرِ أمراً يأْلَفه النَّاسُ في حَياتِهم العَمليَّة على أنَّهُ سِحرٌ عَلَنيٌّ مَكشُوفٌ، فهُنالكَ ضُروبٌ أخرَى منه خافيةٌ إلاَّ من أعيُنِ الخُبراءِ، كأنْ يُحاولَ شَعبٌ أن يَتغلَّبَ على عَدوِّهِ في سَاحةِ القِتالِ بدَعوات يُوجِّهُها إلى السَّماءِ، في حِينٍ لا تَكونُ الغَلَبةُ إلاَّ بطائرات ودَبَّابات يَحسُن إدارتُها وتَوجيهُها، أو أن يَرقُبَ شعبٌ ازدِهارَ مَعيشَتِه ببركاتِ الأولياءِ، سَواءٌ أُحكمتْ خُطَطُ الإنتاجِ الاقتصاديِّ أو تُرِكتْ سَبَهْللاً في أيدي السُّفَهاءِ... هذه وأمثالُها تَندرجُ تحتَ مَقولةِ «السِّحرِ» لأنَّها جَميعاً ربطٌ غيرُ عِلميٍّ بينَ المَعلولِ وعِلَّتِه.

ولقد تجدُ في تُراثنا القَديمِ أحاديثَ عن السِّحرِ والتَّنجيمِ والتَّعزيمِ والرُّقَى والتَّمائمِ وسَائرِ أعضاءِ هذه الأسرةِ غيرِ الكَريمةِ من أدواتِ الجَهلِ، ألوفُ الصَّفحاتِ مُبعثرةٌ هنا وهناكَ في أنفسِ ما خلَّفَه الآباءُ من ميراثٍ ثَقافيٍّ، ولم تَكُنْ أمثالُ هذه الأحاديثِ لتُشغلَنا بخَطَرِها وخُطورَتِها، لو لم تَحدْها واردةً في أماكنِها من الكُتبِ مَسوقةً على نَحوٍ يُشعرُ القَارئَ بأنَّها أمورٌ لا تَحتَملُ الجَدلَ، فترى الكاتبَ - وقد يَكونُ من جَهابذةِ الأعلامِ المُفكِّرينِ - تَراهُ يُحدِّثُكَ عن التَّأثيراتِ السِّحريَّةِ بكُلِّ أنواعِها وكأنَّهُ يُحدِّثُكَ عن طُلوعِ الشَّمسِ وجَريانِ النَّهرِ واخضرارِ الزَّرعِ، فهي عندَه أمورٌ تَجري مَجرى الطَّبيعةِ المَألوفةِ في اطِّرادِها، وربَّما كَانَ لهَؤلاءِ الآباءِ أعذارُهم في ذلكَ إذا نَسَبنا الأمرَ إلى مَرحلتِهم التاريخيَّةِ والحَضاريَّةِ، **ولكنَّ كارثَةَ الكَوارثِ التي تُكْرِثُنا اليَومَ - نَحنُ «المُعاصرينَ» - أنَّنا ما زِلنا نَقرأُ هذه الأشياءَ، بل ونُدخلُ بعضَها في شُؤونِ حَياتِنا العَمليَّةِ والعلميَّةِ**، بروحِ مَن لا يَجدُ فيها غَضاضَةً ولا دَاعياً للشَّكِّ والتَّردُّدِ، ثمَّ تعظُمُ المُصيبةُ حينَ نُدرِجُها تَحتَ مَقولةِ «الإيمانِ» ونَصُبُّ الوَيلَ على مَن تحدِّثُه نَفسُه بمجرَّدِ المُراجعةِ الفاحصةِ.

ولَيسَ بذي نَفعٍ كَثيرٍ أن نَتقصَّى الأمثلةَ من تُراثِنا على نَحوٍ يُشبهُ الحَصْرَ والشُّمولَ، بل لَيسَ كذلكَ في مَقدورِنا حتَّى لو أردنَاهُ، لأنَّكَ إنَّما تُسلِّحُ نَفسَكَ بالشَّواهدِ الكَثيرةِ لو كنتَ تَعلمُ أنَّكَ ستُواجهُ من يُعارِضُكَ في زَعمِكَ، بيدَ أنَّ الأمرَ هنا مَعكُوسٌ، فالأرجحُ جدًّا ألاَّ يُطالعَ الأسطرَ قارئٌ إلاَّ وهوَ ذو عَقيدةٍ سَابقةٍ بحَقيقةِ السِّحرِ وبَقيةِ أفرادِ أسرَتِه من تَنجيمٍ وتَعزيمٍ..الخ، وإنَّما الغَضْبةُ منصَبَّةٌ على كَاتبِ هذه الأسطُرِ لاجترائِه على التَّشكُّكِ في مُسلَّماتٍ كهَذه، والدَّعوةِ إلى تَنحيَتِها فيما ينْبَغي أن نُنَحِّيَه من تُراثِنا، وإذن ففيمَ كَثرةُ الشَّواهدِ على مَوقفٍ مُسلَّمٍ به ولا يُطلَبُ لَه شَهادةُ إثبات؟

ومعَ ذلكَ فيَكفينا في هذا السِّياقِ مَثلٌ واحدٌ من «رَسائلِ إخوانِ الصَّفا»، وما

أدراكَ مـــا إخوانُ الصَّفا؟ هم ذُروةُ المُثقَّفينَ في القَرنِ العَاشِرِ الميلاديِّ (الرَّابعِ الهجريِّ) الـــذي هـــو بِدَورِهِ ذُروةُ ما صَعَدَ إليه الفِكرُ العَربيُّ القَديمُ، فإذا وَجدنا صَفوةَ الصَّفوةِ هَـــؤلاءِ، برغمِ نُزوعِهم القَويِّ نحوَ التَّفكيرِ العلميِّ ما وَسِعَهم ذلكَ، يَختمون رَسَائلهم برِسالةٍ يُخصِّصونها «لماهيَّةِ السِّحرِ والعَزائمِ والعَينِ» لا ليُحيطُوا المَوضوعَ بما يُثيرُ الرِّيبةَ، بـــل ليُحـــيطُوهُ بما يُؤيِّدُ كلَّ ما يُقالُ عنه من قُوَّةٍ وتأثيرٍ، أقولُ إذا وَجدْنا تلكَ الصَّفوةَ المُمـــتازةَ من المُثقَّفينَ تقفُ هذه الوقفةَ من مَوضوعِ السِّحرِ وفُروعِه عَلمنا أنَّ المَسألةَ لم تكـــنْ عـــندَ القَومِ مَوضعاً لسُؤالٍ. وهذا هو مَصدرُ خَوفِنا من هذا الجَانبِ من التُّراثِ الفِكريِّ المأثُورِ عن أسلافنا.

يـــبدأ إخـــوَانُ الـــصَّفا **الرِّسالةَ الثَّانيةَ والخَمسينَ** من رَسائلهم، وهي الأخيرةُ، بقـــولِهم إنَّهم رَتَّبوا «**فنونَ العلمِ وغَرائبَ الحِكمةِ**» في الرَّسائلِ السَّابقةِ، ولَمَّا كانتْ رِسالةُ «السِّحرِ والعزائمِ والعين» هي آخرَ الطَّريقِ وَجبَ ألا تُعرضَ إلاَّ على مَنِ ارتَقوا بعقولِهم ونفوسِهم دَرجاتِ الصُّعودِ إلى الكَمالِ دَرجةً دَرجةً ومَرتبةً مَرتبةً.

«وهـــذه الرِّســـالةُ هي آخرُ الرَّسائلِ» - هكَذا يَقولون - «نُريدُ أن نَذكرَ فيها ماهـــيةَ الـــسِّحرِ وكَيفـــيَّةَ عَملِ الطِّلسماتِ، وأنَّها كأحدِ العُلومِ والمَعارفِ المُتعارفةِ، وكَـــبعضِ الحِكَمِ المُستعملةِ، ونَستَشهدُ عليها بما سَمعناهُ من العُلماءِ وعَرفناهُ من كُتبِ القُدماءِ الَّذينَ كَانُوا فيما مَضَى قَبلنا» - وليَلحظِ القَارئُ هنا أنَّهم يُشيرونَ إلى السِّحرِ وتَفـــريعاتِه على أنَّها «علوم» من جهةٍ، و«حِكَمٌ مُستعملةٌ» من جهةٍ أخرَى، أي أنَّها أمـــورٌ تَدخلُ في الحَياةِ العلميَّةِ وفي الحَياةِ العَمليَّةِ على حَدٍّ سَواء، ثُمَّ ليَلحظُ مَرَّةً أخرَى أنَّ الـــشَّاهدَ علـــى صِدْقِها - في رأيهم - أنَّهم «سَمِعُوها من العُلماءِ» و«عَرفوها من كُـــتبِ القُـــدماءِ»، أي أنَّ أحداً منهم لم «يُجرِّبها» تَجربةً مُباشَرةً! وما زِلنا إلى يَومِ النَّاسِ هذا، وهو اليَومُ الذي أكتبُ فيه هذا السَّطرَ من هذا الكتابَ، يَومَ السَّبتِ السَّابعَ عَشرَ من شَهرِ مارسَ سَنةَ ١٩٧٣، أقول إننا ما زِلنا إلى يَومِ النَّاسِ هَذا نَسمَعُ من كلِّ

مـــن يُحيطُ بنا تَوكيداتٍ مُرتَعشةً لحَقيقةِ السِّحرِ وأفرادِ أسرَته، حتَّى إذا مَا سألتَ أيّاً منهم، هَل رأيتَ؟ أجابَكَ بل سَمعت!

والـــذي نُريدُ إثباتَه هنا هو **أنَّ اليَومَ شَبيهٌ بالبَارِحة، مما قَد يَدلُّ على أنَّ تُراثَنا قَد سَرى في عُروقِنا أكثرَ مما كَانَ يَنبَغي لَه أنْ يَفعلَ لَو وَجدَ المَوانِعَ والضَّوابطَ**، فما زِلـــنا إلى الـــيَومِ نَـــستَنكرُ مَنْ يُنكرُ أنْ يَكونَ السِّحرُ وأتباعُه من «العلوم» كما كانَ أســـلافُنا يَستنكِرونَ، ثمَّ ما زِلنا اليَومَ كما كَانُوا بالأمسِ لا نَجدُ غَضاضةً في أن نَدرُجَ أفعالَ السِّحرِ فيما يَجوزُ للعقلِ أن يَقبَله، ولو شَربنا من ثَقافةِ عَصرِنا العلميَّة، بمَنهَجِها التَّجـــريبيِّ الـــصَّارِمِ، لوَجبَ أن نَعكسَ الوَضْعَ، فمن عدَّهم إخوانَ الصَّفا «متعالمين» لإنكـــارِهم أن يَكونَ هذا التَّخريفُ جُزءاً من العلمِ، عَددناهم نَحنُ «العُلماء» بالمَعنى الـــصَّحيح لهـــذه الكَلمة، من عَدوِّهم «علماء» لقولهم ما «سمعوه» عن الأقدَمينَ وما «قَـــرؤوهُ» في الكُتبِ الغَابرة، أخرَجناهُم نَحنُ من عِدادِ العُلماءِ والمُتعالمينَ مَعاً، لأنَّهم عِندَئذٍ إنَّما يُسلَكونَ في زُمرةِ البُلهاءِ الخَرفينَ الذينَ أشارَ إليهم «الإخوان» منذُ حين.

وبَعدئـــذٍ يأخـــذُ إخوانَ الصَّفا في حَديثٍ طَويلٍ يَزيدُ على ثَمانينَ صَفحةً، عن المَوضـــوعِ بمـــا يَظنُّونَهُ «علماً»، ولَيسَ في وُسعِنا هنا أكثرُ من أن نَسوقَ قَبساتٍ من أقـــوالِهم «العلمـــية» هـــذه، ليَـــرى القَارئُ مَعي كَيفَ أنَّنا بإزاءِ كُتلةٍ ضَخمةٍ من «اللامَعقول» الذي يَنبغي ألاَّ نَدَّخرَ جُهداً في تَنقيةِ عَصرِنا من آثارِه وشَوائبِه... بعدَ أن يَذكُروا لَنا كم هُنالكَ من الكَواكبِ وكم من الأفلاكِ والبُروجِ، يَقولونَ إنَّه ثَمَّةَ سِواها أشـــياءُ، «منها العُقدَتانِ اللتانِ تُسمَّى إحداهُما الرَّأسَ والأُخرى الذَّنَبَ، فالرَّأسُ يدلُّ على السُّعودِ، والذَّنبُ يدلُّ على النُّحوسِ، ولَيسا هُما كَوكَبينِ ولا جسمَينِ ظَاهرَينِ، ولكـــنَّهما أمرانِ خَفيَّانِ، فخَفاءُ ذاتَيهِما وظُهورُ أفعالِهما يَدلُّ على أنَّ في العَالمِ نُفوساً خَفـــيَّةً عـــن الحسِّ، أفعالُها ظَاهرةٌ وذاتُها خَفيَّةٌ، يُسمَّونَ الرُّوحانيينَ... وهم أجناسُ المَلائكـــةِ وقَـــبائلُ الجِـــنِّ وأحزابُ الشَّياطينِ، ويُعرِّفُ ذلكَ أصحابُ العُلومِ والسِّحرِ

والطِّلسمات...» (الرَّسائل، ج٤، ص٢٨٥).

«واعلـــمْ يـــا أخي أنَّ الكَواكبَ مَلائكةُ الله ومُلوكُ سَمواته، خَلقَهم لعمارة عالَمـــه، وتَدبيرِ خَلائقه، وسياسة بَريَّته، وهم خُلفاءُ الله في أرضه، يَسوسونَ عبادَه، ويَحفَظونَ شَرائعِ أنبيائه، بإنفاذ أحكامه على عباده، لصَلاحهم وحفظ نظامهم على أحسنِ الحَالات».

«واعلـــم يـــا أخي - أيَّدكَ اللهُ - أنَّه لا يَكادُ يَعرفُ كَيفيات تأثيرات هذه الكَـــواكب وأفعالها في جَميعِ ما في هذا العَالم من الأجسامِ والأرواحِ والنُّفوسِ إلاَّ الرَّاســـخُونَ في العلم، البَالغونَ في المَعارف، والنَّاظرونَ في العُلومِ الإلهيَّة، المُؤيَّدونَ بتأييد الله وإلهامه لَهُم» (ص٢٨٥).

تلـــكَ هـــيَ الـــنَّغمةُ الَّتي كَتبَ بها «الإخوان» عن السِّحر وما هو إلى السِّحر بـــسَبيل، وهم يَستَنكرونَ كلَّ من يُنكرُ حَقيقَته عن نيَّة صَادقة أو عن كَذب وادِّعاء، اســـتناداً إلى أنَّـــه كانَ موضعَ القَبول من فَلاسفة أقدَمينَ من أصحاب المَكانات العَالية كأفلاطُـــون، يَقولون: «... فلا بُدَّ مما يُوردُ على هَؤلاء المُنكرينَ لهذا العلم، والمُكذِّبينَ لمـــن يدَّعـــي صحَّته، من الشَّهادات: بعضُ ما ذَكرَ المُتقدِّمونَ في كُتبهم وسَطَّروهُ من أخبارهم، ويُحكى من ذلكَ ما كانَ واضحَ الشُّهرة لا يَخفَى مَوضعُه على طَالبيه، ولا يُكذِّبُ قَائلُه، حتَّى لا يَجدُ السُّفهاءُ إلى تَكذيبنا سَبيلاً، فنَقولَ: إنَّ أفلاطونَ الفَيلسوفَ قـــد ذَكرَ في المَقالة الثَّانية من كتاب السِّياسة... الخ» ثمَّ يَروي لنا المُؤلِّفونَ قصَّةَ خاتم ذي قـــوَّة سحريَّة أورَدها أفلاطُون في تلكَ المَقالة المَذكورة (ص٢٨٧-٢٨٨) وبعدَ أن يفـــرغَ الرُّواةُ من الحكاية عن أفلاطُون، يَتساءَلونَ في استنكار: هل يمكنُ لرَجلٍ له ما لأفلاطُـــونَ من مَنْزلة رَفيعة أن يَقولَ عن السِّحر ما قَالَه كذباً وزُوراً؟! «وإنَّما السَّببُ الـــذي يَدعُو هَؤلاء الأحداثَ إلى التَّكذيب والإنكار لمثل هذا، هو ما فيهم من الكَسل وقلَّة الرَّغبة في التَّعلُّم والأنفة وقلَّة الحَياء!» (ص٢٨٨).

وبالطَّبعِ لم يَفُت «الإخوان» أن يَستَشهِدُوا على حَقيقةِ السِّحرِ وقُوَّةِ فِعلِه بما قد أورَدُوهُ من آياتٍ قُرآنيَّةٍ كَثيرةٍ، لو قُرِئتْ من السَّطحِ ظَنَّ قارِئُها أنَّها حُجَّةٌ لهم، وربَّما كـانَ لَها من التَّأويلِ ما يَخرجُ منها المَعنَى الصَّحيح الذي يتَّفِقُ مع نَظرةِ العَقلِ في فَهمِ الأحـداثِ وتَعليلِها، ثُمَّ عقَّبوا على شَواهِدِ القُرآنِ بأخرَى من التَّوراةِ «ممَّا يَعتبرُه ويقرّ بصحَّته أمتان من الأممِ، وهما اليَهودُ والنَّصارَى جَميعاً، والتَّوراةُ مَوجودةٌ بأيدي اليَهودِ والنَّصارى باللُّغةِ العِبرانيَّةِ وباللُّغةِ السِّريانيَّةِ، وباللُّغةِ العَربيَّةِ، لا خلافَ بينهم فيها» (ص ٢٩١)، وكـذلك وردتِ الشَّواهدُ على صِدقِ السَّحرةِ في دَعواهُم. «في كُتبِ أخبارِ مُلـوكِ بـني إسرائيلَ الَّتي تَجري عندَ اليَهودِ مَجرى التَّوراةِ...» (ص٢٩٣) وهكذا تعـدَّدتِ المَصادرُ التي تؤيدِ فعلَ السِّحرِ والسَّحرةِ، «فَمنها ما هُو من جِهةِ الفَلاسفةِ، ومِـنها ما هو من جِهةِ الأنبياءِ وكتبِ الشَّرائعِ، ومنها ما هو مَذكورٌ في القُرآنِ» (ص ٢٩٤) «أفتَـرى هـذا كُلَّه كَذِباً لا أصلَ لَه، وسُخفاً وحَماقةً ممَّن يَذكره عندَ هَؤلاءِ المُتعجِّـبينَ المُنكِرينَ بأنفسِهم، المُكذِّبينَ بما يُسمُّونَه بجَهلِهم، تَكبُّراً منهم وتِيهاً وصَلفاً، لقلَّـةِ عُقـولِهم وقِصَرِ عُلومِهم وقُصورِهم عن نَيلِ العُلومِ الحَقيقيَّةِ، فيَجدونَ الإنكارَ والتَّكذيبَ أخفَّ عليهم» (ص٢٩٤-٢٩٥).

إنَّ همَّـنا في هذه الصَّفحاتِ هو أنْ نُبيِّنَ للقارِئِ كَيفَ غَلبَ «اللاعقلُ» على أسـلافِنا في بعـضِ المَواقـفِ، ممَّا يَستوجِبُ انصِرافَنا عن تُراثِهم في هذا الجانبِ اللاعقليِّ، ومَهما يَكُن من أمرِ السِّحرِ على حَقيقَتِه، فها أنتَ ذا تَرى إخوانَ الصَّفا يَركنون – في تأييدهم لصِدقِ تأثيرِه – أوَّلُ مـا يَـركُنونَ وآخرُ ما يَركنون علـى ما «سَمِعوه» من أخبَارِ الأوَّلينَ، وما «نَقلوه» عن أسفارِ الأقدَمينَ، والعَجبُ بعـدَ ذلـكَ أن تَراهُم يَنعَتونَ المُنكِرينَ «بقلَّةِ العَقلِ»، في الوَقتِ الذي نَرى هَؤلاءِ المُنكـرين لا يَعـتمِدونَ إلاَّ على مَنطِقِ العَقلِ وحدَه، وأما «الإخوان» فيأخُذونَ ما يأخُذونَه في هذا البَابِ سَمعاً ونَقلاً، ولا «عقل» هناك.

ولعلَّ المؤلِّفينَ لتلكَ الرَّسائلِ قد أحسُّوا بضَرورةِ التَّحديدِ للمَعنى المَقصودِ بكَلمةِ «سِحر» بعدَ أنْ أفاضُوا القَولَ فيه، وقَبلَ أن يَمضوا في حَديثٍ مُطوَّلٍ عن طَرائقِ فعله وتـأثيره، فقَالُـوا: «إنَّ السِّحرَ يَنصرفُ في اللغة العَربيَّة على مَعانٍ كَثيرةٍ، قد ذَكرَها أصـحابُ اللُّغـةِ العَارِفُـونَ بها وأصحابُ التَّفسيرِ لَها، ونُريدُ أن نَذكرَ منها ما يَليقُ بكِتابِـنا هذا لِيَكونَ دَليلاً على ما نُورِدُه من القَولِ في هذا الفَنِّ، فمن ذلكَ أنَّ السِّحرَ **في اللُّغةِ العَربيَّةِ هو البَيانُ والكَشفُ عن حَقيقةِ الشَّيء.. ومنه الإخبارُ بما يَكونُ قَبلَ كونِه، والاستدلالُ بعلمِ النُّجومِ ومُوجبات أحكامِ الفَلكِ، وكذلكَ الكَهانةُ والزَّجرُ والفـألُ**، فإنَّ كلَّ ذلكَ إنَّما يُوصَلُ إليه ويُقْدَرُ عليه بعلمِ النُّجومِ ومُوجباتِ الأحكامِ الفَلكـيَّةِ والقَضايا السَّماوِيَّة... وهو يَنقسمُ أقساماً كَثيرةً ويَتنوَّعُ أنواعاً شتَّى... منه سِـحرٌ عَملـيٌّ ومـنه سِحرٌ عِلميٌّ، ومنه حَقٌّ ومنه باطلٌ، ومنه ما رُميتْ به الأنبياءُ ووُسِـمتْ بـه الحُكماءُ، ومنه ما يَختصُّ بعلمه النِّساءُ...» (ص٣١٢-٣١٣) - وإنَّه لَيَكفينا أن تَكونَ لكلمةِ «سِحرٍ» كلُّ هذه المَعاني، لنَقولَ إنَّه لا يَجوزُ لكاتبٍ أن يَحتجَّ لَـه بآياتٍ قُرآنيَّة أو بمأثوراتٍ من أقوالِ الأقدَمينَ، قبلَ أن نَعرفَ أوَّلاً لأيِّ مَعنىً من هذه المَعاني تَكونُ الحجَّةُ؟

في أحاديـثِ إخـوانِ الـصَّفا مَـزيجٌ عَجيبٌ بينَ حَقائقِ «العلم» وأخبارِ «السِّحر» كأنَّهما طَرفانِ مَتعادلانِ يَقسمانِ الميدانَ بشَرعيَّةٍ واحدةٍ! فمَثلاً قد تَراهُم يَقُولـونَ: إنَّ للعَقـاقيرِ والأدويـةِ خَواصَّ مُعيَّنةً هي التي تَجعلُها تَصلحُ لما تَصلحُ لَهُ، وتُـؤذي بما تُؤذي، ثمَّ يُلحقونَ بهذا القَولِ كَلاماً شَبيهاً به عن «الرُّقى والعَوذ والنُّشر» (النُّشَر: جمع النشرة، وهي رُقْيَة يُعالجُ بها المَجنُون والمريض) وهم في ذلك يَقولونَ: «إنَّ الـسِّحرَ يُؤثِّـرُ في أنفسِ الآدَميينَ وأجسادِهم... وأمَّا هذه الرُّقى والنُّشر والعَزائم وما يُـشاكِلُها فإنَّما هي آثارٌ لَطيفةٌ رُوحانيَّةٌ من النَّفسِ النَّاطقة تؤثِّرُ في النَّفسِ البَهيمية وفي الحَـيوانِ» (ص٣٠٩) ويَـستَطردونَ في القَولِ ليوضِّحُوا كيفَ تَفعلُ نفسُ السَّاحرِ في

نَفــسِ المَسحُورِ، مثلَ ما تَفعلُه النَّارُ فيما يُجاوِرُها، فإذا كانَ ما يَنبعثُ من النَّارِ شَرراً، فمـــا يَنــبعثُ من النَّفسِ المُؤثِّرةِ شَيءٌ رُوحانيٌّ لَطيفٌ، وقد يَبلغُ التَّأثيرُ حدَّ أن يُصرعَ المَــنظورُ إليه أو أن يُشجَّ رأسُه، وقد تَرى «الرَّاقي يَستعينُ على الرُّقيةِ بالنَّفثِ والنَّفخِ وغيرِ ذلكَ، لأنَّ النَّفثَ والنَّفخَ هما من جَوهرِ هذه البَهيمة» (ص٣١١).

إنَّني ما كَتبتُ هذه الصَّفحاتِ إلاَّ تَوضيحاً لوُجهةِ نَظري الَّتي حاوَلتُ بَسْطَها في هذا الكتابِ، وهي أنَّ تُراثَنا الفِكريَّ قد اختَلطتْ فيه العَناصرُ المُتباينةُ، الَّتي رُبَّما كانَت كلُّها منبثقةً من طَبيعةِ حَياةِ الأسلافِ وما اعتَرضَهم من مَواقفَ ومُشكلاتٍ، والــتي إذا ما ألقَينا عليها النَّظرَ الآنَ بكلِّ ما يُحيطُ بِنا نحنُ اليَومَ من مَناخٍ ثَقافيٍّ، ألْفَينا بعضَها ما زَالَ صالِحاً لنا وبعضَها الآخرِ لم يعدْ صالِحاً.

المعقول واللامعقول

ص(٤٣٧-٤٥٣)

❖ ❖

❖

* التعليق والأسئلة:

١- للكاتب موقف متطرِّف جداً من قضية السحر والتنجيم، وبدا هذا في ما كتبه في الصفحات السابقة، وقد ضَمَّنها عدداً من الأفكار الرئيسية، المطلوب:

آ - حدِّد الأفكار الرئيسية في النص.

ب - اكتب رأيك الشخصي في ما قاله مؤيداً أو معارضاً.

٢- ادرس اللغة التي كتب بها الكاتب مقالته.

٣- هل تجدُ أن أسلوب الكاتب ساخر أم علميّ، أم ساخر علميّ؟! وهل استطاع أن يُوْصِل إلى القارئ ما أراد؟

٤- هل وُفِّق الكاتب بدراسة النموذج «إخوان الصَّفا»؟

٥- ادرس طريقة عرض رسالة إخوان الصفا من قِبل الكاتب.

٦- برزت في النص آراء خاصة للكاتب، استخرجها من النص.

٧- اكتب مقالة عن عالم السحر والتنجيم الذي ما زال منتشراً في أماكن من قطرنا.

٨- اكتب مقالة عن شغف الناس بالأبراج والحظ، واعتمادها سبيلاً لحياتهم.

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

-٣-

المقالة التاريخية

«سيرة تاريخية»

قاسم أمين

جرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤):

- جرجي بن حبيب زيدان، يعد واحداً من زعماء النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.
- ولد في بيروت ١٨٦١، درس في مدرسة «الثلاثة الأقمار» ثم في الكلية الأمريكية.
- هاجر إلى مصر سنة ١٨٨٢ واشتغل بالصحافة، ونشر عدداً من المقالات في المجلة الأكثر شهرة - آنذاك - المقتطف.
- أسس مجلة «الهلال» في مصر سنة ١٨٩١ التي لا تزال تصدر حتى الآن، وكتب فيها أكثر مقالاته.
- له مؤلفات كثيرة، اشتهر منها ما يتصل بالتاريخ، وشخصياته، وكان له فيه عدد من الروايات. ومن أشهر مؤلفاته: تاريخ الآداب العربية، تاريخ التمدّن الإسلامي، عجائب الخلق، تاريخ العرب قبل الإسلام، تراجم مشاهير الشرق، الفلسفة اللغوية، تاريخ اللغة العربية و٢٢ رواية.
- توفي في مصر ١٩١٤.

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

قاسم أمين

١٣٢٦-١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥-١٩٠٨م

جرجي زيدان

كان للمرأة العربية مقامٌ رفيعٌ في التَّمدُّن العربي القديم، فمارست الكتابة وتولَّت شـــؤون الإدارة، وأعانت في سائر أعمال الرجال طوال القرن الثالث قبل الميلاد، أي منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة. وعرفنا دُولاً عربية في أعالي الحجاز لا يتولَّى المُلك فيها إلا النـــساء. ناهـــيك بما تناقله العرب من أخبار **بَلقيس صاحبة اليمن والزبَّاء (زنوبيا)** صاحبة تَدْمر. عدا اللواتي اشتهرن في أثناء الجاهلية من العرَّافات والكاهنات، ولا يتولى الكِهانة إلا الممتازون بالعقل والتدبير، بعد أن ينالوا المقام الرفيع ويحرزوا العلم الواسع. ويقال بالإجمال: إن المرأة في الجاهلية كان لها شأن وإرادة وأنفة ورأي وحَزم. ونبغت غـــيرُ واحدةٍ منهن قُبيلَ الإسلام وفي أوائله في السياسة، والحرب، والأدب، والشعر، والتجارة، والصناعة، على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول يومئذ، فاشتهر جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الأمثال. وممن اشتهرن بالحزم والرأي **خديجة بنت خويلد زوج النبي (ﷺ) وأسماء بنت أبي بكر وسكينة بنت الحسين وغيرهن.**

ظلـــت المـــرأةُ العربيَّةُ على أنفَتِها وعزَّة نفسِها وسُموِّ منزلتها في أيام الراشدين، وزاد توسُّعها في طلب المعرفة إذ اتسعَ المَجالُ للعقول والمواهب، فنبغت غيرُ واحدة في الشعر والأدب وأتت بعضُهن أعمالاً يعجزُ عنها كبارُ الرجال. فلما أفضت الدولة إلى

بني أمية في أواسط القرن الأول للهجرة، أصاب المرأة العربية صدمة قوية غيَّرت كثيراً من طبائعها لتكاثر الجواري والغلمان في دُورِ الأمراء وانغماس بعض الخلفاء في التَّرف والقَصْف، وسَماع الغناء وانتشار الجواري والقِيان في القصور وتكاثُر المُخنَّثين في المدن وغير ذلك.

ولمَّا استَبحرَ عمرانُ المسلمين في العصر العباسي زادوا انغماساً في القصف واللَّهو والخلاعةِ وفسدتِ النِّيَّةُ بين الرجل وامرأته وهو صاحب الذنب لأنه بدَّد مشاعرَه وميولَه بين عدة نساء فقلَّتْ ثقةُ امرأته به. ولم ينضج التمدُّنُ في ذلك العصر حتى تنوسيت المرأةُ العربية وذهبت حريتها، وانحطت نفسُها وذهبت أنفتُها واستقلالُ فكرها. فاحتقرها الرجلُ وأساءَ الظنَّ بها وصار يعاشرُها على غِلٍّ وسوءِ رأيٍ، يقفل عليها الأبواب والنَّوافذ. وأصبح الطَّعنُ في طِباعها وسوء سريرتها شائعاً على ألسنة الناس، حتى ألَّفوا فيها الرِّوايات والقصصَ ونَظموا فيها الشعرَ، وتفنَّنوا في وضعِ الحكمِ والأمثالِ والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها. هذه قصة «ألف ليلة وليلة» تمثل حال المرأة في العصور الإسلامية والوسطى بعدَ شيوع التَسَرِّي وانغماس المسلمين في الترف. وأما الأشعار فإليك ما قاله أبو العلاء المعري:

إذا بلغَ الوَليدُ لديكَ عَشرا ... فلا يَدخلُ على الحُرَمِ الوَليدُ

وإن خالفْتَني وأضعْتَ نُصحي ... فأنتَ وإن رُزِقتَ حجاً بليدُ

ألا إنَّ النِّساءَ حِبالُ غَيٍّ ... بهنَّ يُضيَّعُ الشَّرفُ التَّليدُ

وأصبحَ الكاتبُ إذا أراد تعزيةَ صَديقٍ على فَقدِ بنتٍ لَه قال ما قالَه أبو بكر الخوارزمي، إذ كتب إلى رئيس بهراه يعزيه في بنته:

«ولولا ما ذكرته من سترها. ووقفت عليه من غرائب أمرها. لكنت إلى التهنئة أقرب من التَّعزية. فإنَّ سترَ العَوراتِ من الحسنات. ودفنَ البناتِ من المكرمات. ونحن في زَمان إذا قدَّمَ أحدُنا في الحُرمةِ. فقد استكملَ النِّعمة. وإذا زَفَّ كَريمةً إلى القبرِ، فقد

بلغَ أمنيته من الصّهر. قال:

ولم أرَ نِعمــةً شَــملت كَريماً ... كــنعمةِ عَــورةٍ سُــتِرت بقَبر

وقال آخرُ:

تَهوى حَياتي وأهوى موتَها شَفقاً ... والمــوتُ أكرمُ نَزّالٍ على الحُرَم

وقال آخر:

وددت بُنَـــــيَّتي وودت أني ... وَضَــعتْ بُنـيَّتي في لَحْــد قبرِ

وقال آخر:

ومــن غايةِ المَجدِ والمَكرُمات ... بقــاءُ البَـنينَ ومَــوتُ البَناتِ

وقال آخر:

سَـمينُها إذا ولــدت تَموت ... والقَــبرُ صـهر ضــامن وبيت

هذا مِثالٌ من آراء أدباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجـــرة، وقد زادت حِطَّة وصَغاراً في الأجيال الإسلامية الوسطى تبعاً لتقهقر العام، وبلغــت غايــة ذلك في القرون الأخيرة قبل النهضة، **وقد تساوت في ذلك الانحطاط المــرأةُ المــسلمةُ وغــيرُ المسلمةِ من نِساء الشَّرقِ الإسلامي على الإجمال والناسُ ســكوتٌ. لأن القــرائح جامــدةٌ والنفوس ميتة بما تولى الناس من فساد الأحكام وتفشي الجهل.**

فلما أخذ القومُ بأطرافِ التمدُّن الحديث، واستنارتِ العقولُ بالعلمِ تنبَّه العقلاء إلى المــرأةِ وعمدوا إلى النَّظرِ في تَحسينِ حالِها ورفعِ شأنِها، لعلمهم أنَّ الأمةَ يتوقَّفُ إصــلاحُها على إصلاح المرأةُ. فطَفِقوا يتَهامَسونَ في ذلكَ تَهيُّباً من مُقاومةِ تَيّارِ العامةِ الذينَ يعدُّونَ التَّضييق على المرأةِ من حقوق الرجل.

ثم أخذَ بعضُهم يَتظاهرون بنُصرتِها، وأنشئتِ المَدارسُ لتَعليمها، وظهر القائلونَ بوجــوبِ إصــلاحِها، ولــيسَ بينهم من تصدَّى للمجاهرةِ بذلك على الملأ بالكِتابةِ

والخَطابــة، لأنَّ الــشَّجاعةَ الأدبيةَ كانتْ قَليلةً بينَنا. وأسبقُ المسلمينَ إلى طلبِ تَحرير المــرأةِ في هــذا العصرِ، الأتراكُ في الأستانة، لكثرة اختلاطهم بالأجانبِ وسَبقَهم في الاطلاعِ على أسبابِ التَّمدُّنِ الحَديث. ولذلكَ كانَ كتابُهم أسبقَ إلى المجاهرةِ بوجوبِ رَفــعِ الحِجــابِ، وأوَّلُ مــن فعلَ ذلكَ من العربِ هناكَ الشَّيخُ أحمد فارس صاحبُ الجوائب.

أما في مِصرَ فقد ظَلَّ العُقلاءُ يَتهامسونَ في هذا المَوضوعِ، وفي غيرِه مما يشعرون بحاجَــتِهم إلــيه مــن الإصلاحِ الاجتماعيِّ، أو الدِّينيِّ، حتَّى صَرَّح الشَّيخُ محمد عبده بآرائــه، فلاقى كلَّ ما لاقاه من المعارضةِ والنَّقمة، وكانت وِجهته الإصلاح الإسلاميّ علــى العُمــومِ، بحلِّ قيودِ التَّقاليدِ وتَحكيمِ العَقلِ في التَّفسيرِ والتَّأويلِ إلى ما فيه تَرقيةُ شُــؤونِ المُسلمينَ. فكَثُرَ مريدوه والمُؤمِّنون على أقواله، وإنْ قَلَّ المُجاهرونَ بذلك على المَنابــرِ، أو في الصُّحف. ومن أولئكَ القَلائلِ، قاسم (بك) أمين فإنَّه أخَذَ على عاتقِه القِــيامَ بأهمِّ أسبابِ الإصلاحِ المَطلوبِ، نَعني تَحريرَ المَرأة. فقد تَصدَّى لذلك بشَجاعةٍ يندُرُ مثلُها.

الشجاعة الأدبية

الشَّجاعةُ الأدبيَّةُ أن يقولَ الإنسانُ ما يعتقدُ، ولو كانَ فيه ما يُؤلِمُ غيرَه، أو يهيجُ عليه العامَّةُ، ممَّا يَؤولُ إلى الخَطرِ على حَياته أو مَصلَحته. وأصحابُ هذه المَنقبة قَليلونَ ولا سيما في الشَّرق، بعد ما تَوالَى على أهلِه من أصنافِ الذُّلِّ والخَسف. وأما في إبَّان تَمدُّنه فقد اشتُهرَ من رِجاله جَماعةٌ تُضربُ الأمثالُ بشجاعتهم الأدبيَّة لسيادةِ العَــدلِ ونُزوعِ ولاةِ الأمورِ إلى نُصرةِ الحَقِّ، والضَّربِ على أيدي الظَّالمينَ. فلم يكنِ النَّاسُ يَخافُونَ أن يَقولوا ما يَعتَقدونَ حتَّى كانَ الرَّجلُ من العامَّة ربَّما انتَقدَ الخَليفةَ أو الأمــيرَ في وَجهِه، لا يَخشَى بأساً. وقد تَعوَّدَ المُسلمونَ ذلك منذُ زَمنِ الرَّاشدينَ. فلمَّا أفضَتِ الدَّولةُ إلى بَني أميَّةَ وعَمَدُوا إلى الدَّهاءِ والشِّدَّةِ في تأييدِ سُلطانِهم، أمسَكُوا على

النَّاسِ حُرِّيتهم. ومع ذلكَ فقد نَبَغَ غيرُ واحدٍ بذلُوا حَياتَهم في سَبيلِ شَجاعَتهم، كما أصابَ «أبا ذَرٍّ الغفاري» و«حجر بن عُدَيّ الكندي» و«سعيد بن جُبير» وغيرهم. **ولا تَقتَصرُ تلكَ الشَّجاعةُ على المَسائلِ السِّياسيَّةِ أو الدِّينيَّةِ بل هي لازمةٌ في العلمِ والأدبِ، فقد عَرضَ «غاليليو» حياتَه للخَطرِ لمخالفةِ الأولينَ في قولِهم عن ثُبوتِ الأرضِ.**

والإنسانُ منذ فِطرتِه حرُّ الفِكرِ يدُلُّكَ على ذلكَ ما يَبدو في كَلامِ الأطفالِ من الصَّراحةِ والحُرِّيةِ، ولكن تَربيَته على الخَوفِ والحَذرِ وتَضييقِ الفِكرِ منذُ الصِّغرِ بالخُرافاتِ والأوهامِ تُقيِّدانِ العَقلَ حتَّى يَعجزَ صاحبُه عن التَّفكيرِ إلاَّ على القَالبِ الذي صُبَّ عقلُه فيه - فعلى طالبِ الإصلاحِ قبلَ أن يحلّ لسانَه من خوفِ العقابِ أن يحلّ فكرَه من قُيودِ التَّقليد - هذه هي الخُطوةُ الأولى نحوَ الشَّجاعةِ الأدبيَّةِ. **وجُمهورُ العامَّةِ مقيَّدو الفكرِ لا تتمَشَّى أفكارُهم إلاَّ على الخطَّةِ الَّتي رَسمتها عاداتُهم فتبدو آراؤهم مَسبوكةً في القَوالبِ الَّتي اقتضَتها تَربيَتُهم أو مُعتَقداتُهم.** فقبلَ أن نُطالبَهم بحرِّيَّةِ القَولِ والشَّجاعةِ الأدبيَّةِ يجبُ علينا أن نعلِّمهم «حرِّيَّةَ الفكرِ» أي أن نَجعلَهم يَنظرونَ فيما يعرِضُ لهم من المَسائلِ بعينِ العَقلِ لا بعينِ الغَرَضِ، وأن يَبحثوا عن الحَقيقةِ المُجرَّدةِ بقَطعِ النَّظرِ عَمَّا غُرِسَ في أذهانِهم ممَّا يُخالفها، فيحكِّمُوا عُقولَهم لا عاداتِهم ومُعتَقداتِهم.. وذلكَ ما يُعبِّرونَ عنه باستقلالِ الفكرِ.

فمَتى أطلقَ الرَّجلُ فكرَه من قُيودِ التَّقليدِ بَقيَ عليه أن يصرِّحَ بما يرشدُه إليه عَقلُه، إذ قد يَكونُ في تَصريحِه ما يَعودُ عليه بالضَّررِ فيُمسكُ عنه خَوفاً أو مُسايَرةً فيَسكُت. وقد يَتمادَى في جَرِّ المَنفعةِ لنفسِه فيَقولُ عكسَ ما يَعتَقدُه التِماساً لرِضَى الآخرينَ، ونَرى أمثلةً من ذلكَ شائعةً بَينَنا لهذا العَهد.

فالنَّاسُ من هذا القَبيلِ ثَلاثُ طَوائفَ: طَائفةٌ غَلَبَتْ عليها الأوهامُ وقيَّدتها التَّقاليدُ فلا تَنظرُ في الأمورِ إلاَّ بعينِ الغَرَضِ، وبما تَقتَضيه تلكَ القُيودُ فلا يُلامُ أصحابُها إلاَّ

علـــى الجَهـــلِ. وطَائفةٌ حَلّتْ أفكارَها من تلكَ القُيودِ، ونَظرت في الأمورِ بعينِ العَقلِ فَظهـــرَ لأصحابِها في شُؤونِ العامَّةِ خَلَل يَقتَضي إصلاحاً فمنهم من يَسكتُ عن إبداءِ رأيـــهِ خَـــوفاً من غَضَبِ الجُمهورِ، أو مُراعاةً لرَئيسٍ أو صَديقٍ - وهو جُبنٌ وضَعْفٌ. ومـــنهم مـــن لا يَكتَفي بالسُّكوتِ عن الحَقِّ بل يُجاري تيَّارَ الجُهلاءِ فيَقُولُ عَكسَ ما يَعتَقِد - وهو النِّفاقُ والرِّياءُ. ومنهم من يَقولُ ما يَعتَقده بشَجاعةٍ وصَراحةٍ لا يُبالي بما قـــد يَلحقُـــه بسَبَبِ ذلكَ من الضَّررِ - وهي الشَّجاعةُ الأدبيَّةُ، وأصحابُها هم رِجالُ الفَـــضلِ علـــى المُجتَمعِ الإنسانيِّ، ومنهم كِبارُ المُصلِحينَ والشَّارِعينَ. وليسَ المُصلحُ أو الـــشَّارِعُ إلاَّ رَجـــلاً دَعـــا النَّاسَ إلى غيرِ ما أَلِفُوهُ أو تَعوَّدُوهُ من الإصلاحِ الدِّينيِّ أو الاجتماعـــيِّ، وضَـــحَّى بنَفسِهِ أو مَصلَحتِهِ في هذا السَّبيلِ - وصَاحبُ التَّرجمةِ من أولئكَ المُصلِحينَ.

ترجمة حياته:

كـــان أبوه أمين (بك) ابن أمير من أمراء الأكراد، أُخِذَ رَهينةً في الأستانَة على أثـــرِ خِـــلافٍ وقعَ بين الدَّولةِ العُثمانيَّةِ والأكرادِ. ثمَّ جاءَ إلى مِصرَ على عَهدِ إسماعيل (باشـــا)، وانـــتظم في الجيش المصري ورُقِّيَ إلى رتبة أمير الاي، وتَزوَّجَ بكريمة أحمد (بـــك) خطـــاب، أخـــي إبـــراهيم (باشا) خطاب، فولدت لَه أولاداً أكبرهم قاسمُ صاحبُ التَّرجمة.

ولـــيسَ في تَـــرجمةِ قاسم أمين ما نَراه في تَراجمِ رِجالِ الحَربِ أو السِّياسةِ من الحَـــوادثِ العَديدةِ، فقد **رُبِّيَ كما يُربَّى أمثالُه من أولاد الوُجهاءِ، وتَثقَّفَ في مَدارسِ الحُكومةِ المَصريَّةِ، وكانَ مُمتازاً من صِغرِهِ بالذَّكاءِ وتَوَقُّدِ الذِّهنِ.** ولَمَّا أكملَ دُروسَهُ كـــانَ في جُملـــةِ الذينَ اختارتهم الحُكومةُ للبعثةِ إلى أوروبا يَتعلَّمون على نَفقتِها على جَـــارِي العـــادةِ في ذلكَ الحينِ، فدرسَ الحُقوقَ في فَرنسا وعادَ إلى مصرَ سنةَ ١٨٨٥ فتَعيَّنَ وَكيلاً للنَّائبِ العامِ في مَحكمةِ مصرَ المُختلطةِ وما زالَ يَرقى حتَّى صَارَ مُستَشاراً

في الاستئناف، وكانَ في كلِّ أعمالِه مثالَ الأمانة والنَّشاطِ واستقلالِ الفكرِ حتَّى توفَّاهُ اللهُ بالسَّكتةِ في ٢١ أبريل عام ١٩٠٩ وهو في الثَّالثةِ والأربعينَ من عُمرِه.

صفاته وأعماله:

كانَ رَحمه اللهُ رَبعَ القامة، أسمرَ اللَّون، كَثيرَ التَّفكير، قَليلَ الكَلام. وكانَ حُرَّ الفِكرِ، صَادِقَ اللَّهجة، وقد زادَهُ التَّبحُّرُ في القَوانينِ والنَّظرُ في أقوالِ الفَلاسفةِ الاجتماعيينَ استقلالاً في الفكرِ، وصَراحةً في القَولِ، لأنَّ القَضاءَ يُعوِّدُ صاحبَه التَّمسُّكَ بالحَقِّ وإجلالَ قَدرِ الحَقيقة. ومُمارسَةُ القُضاةِ الأحكامَ، وتَعوُّدُهم إذعانَ النَّاسِ لأقوالِهمْ بلا مُراجَعة يَزيدُهم جُرأةً لإبداءِ آرائِهم في كلِّ مَسألةٍ تُعْرَضُ عليهم، ولذلكَ رَأيتُ المُحاباةَ والرِّياءَ نادرَيْنَ فيهم.

وكانَ كَبيرَ النَّفسِ شَديدَ الحِرصِ على كَرامَتِها، ولذلكَ رأينَاهُ مُحبَّاً لأمَّته راغباً في رَفْعِ مَنزلَتِها لأنَّ حُبَّ الأمَّةِ من حُبِّ الذّاتِ ولا يحبُّ أمَّته إلاَّ الذي يُحبُّ كَرامةَ نَفسِه، ومن يتَفانَى في خِدمةِ أمَّته فإنَّما يفعلُ ذلكَ حُبَّاً بنَفسِه.

واطَّلَعَ قاسمُ على أحوالِ الأممِ الرَّاقيةِ في أثناءِ إقامَته بأوروبا، فتَمنَّى أن تَكونَ أمَّتُه مثلَها، فنَظرَ في أسبابِ الرُّقيِّ فرآها كَثيرةً تَناولها دُفعةً واحدةً، ولا يتيسَّرُ تَناولُ شَيءٍ منها قَبلَ إصلاحِ العَائلة، لأنَّ الأمَّةَ تَكونُ كمَا تَكونُ العائلةُ والعائلةُ تكونُ كما تُريدُ المَرأةُ.. فوجَّه عنايَتَهُ إلى إصلاحِ المَرأةِ المُسلمةِ وليسَ هو أوَّلَ من رَأى ذلكَ أو فَكَّرَ فيه كما قُلنا ولكنَّه كانَ حازِماً مِقداماً لا يَكتَفي بالقَولِ والتَّذمُّرِ أو الاستِسلامِ علَى عادةِ أكثرِ المُفكِّرينَ بينَنا، ومنهم طائفَةٌ لا يقلُّونَ تَعقُّلاً وسَداداً عن المُفكِّرينَ في العَالمِ المُتمدِّن، ولكنَّهم يَقولنَ ولا يَفعلُونَ.

وهذه آفةُ المَشارِقة. أما قَاسِمُ أمين فكانَ فَعَّالاً، إذا اقتنعَ بصَوابِ فكرٍ أخرَجَه إلى حَيِّزِ العَملِ. فلمَّا عَرفَ الطَّريقَ المُؤدِّي إلى إصلاحِ أمَّتِه بادَرَ إلى مُباشَرتِه وهو يَعلمُ مَا يَعتَورُ مَشروعَه من العَقباتِ، وما سَيلقَاهُ من مُقاوَمةِ تَيَّارِ الرَّأيِ العامِّ. لأنَّ إصلاحَ

المَــرأة يَقتَــضِي مَــنحَها الحُرِّيَّةَ، ويَتناوَل تَقبيحَ الحِجاب، والنَّهيِ عن الطَّلاقِ وتَعدُّدِ الــزَّوجات، مما يعدُّهُ العامَّةُ من قَبيلِ العَقائد الدِّينيَّة وهو ما لَمْ يُبحْه الدِّينُ إلاَّ لِضَرورة، فاضــطَرَّ أن يُبَــيِّنَ ذلكَ في أثناء بَحْثه. وبعدَ إعمالِ الفكرَ أَلَّفَ كتابَهُ «تَحريرُ المَرأة» واسمُهُ ينمُّ على مَنْزلة المَرأةِ المُسلمة في اعتبارِه فهو يَعدُّها مُستَعبدَةً وقد أخذَ على نَفسه أن يُحررَها. وعلمَ أنَّ النَّاسَ سَيكبُرونَ قوله ويُنكِرونَ عليه مَشروعَه - حتَّى المَرأةَ لأنَّها أَلِفَــت الذُّلَّ وتَعوَّدتْ أن تَعتبرَ نَفسَها من أدوات المَنْزلِ. فلم يَكنْ يَتوَقَّعُ أن يَرى ثَمرةَ سَعيه في حَياتِه، فَرضِيَ أن يَضعَ الأساسَ لِسواهُ فَصَدَّرَ كتابَهُ المُشارَ إليه بقَوله:

«وغايَــةُ ما أريدُ هو أن أستَلفتَ الذِّهنَ إلى مَوضوعٍ قَلَّ المُفكِّرونَ فيه لا أن أضَــعَ كِتاباً يَوفي الكَلامَ في شأنِ المَرأة ومَكانَتِها من الوُجودِ الإنسانيِّ. وقد يُوضَعُ مِــثلُ هــذا الكتابِ بعدَ سنينَ متى نَبَتَتْ هذه البِذرةُ الصَّغيرةُ ونَما نَباتُها في أذهانِ أولادِنا وظَهرتْ ثَمراتُها وعَمِلُوا على اقتطافِها والانتفاعِ بها».

ثُمَّ بــيَّنَ حاجَةَ المَرأة المصريَّة أو المُسلِمة إلى الإصلاحِ مُوجِّهاً كَلامَه إلى الخاصَّة والعُقَــلاءِ فــأورَدَ فَصلاً في «أنَّ حالَ المَرأة في الهَيئة الاجتماعيَّة يَتبعُ حالَ الآدابِ في الأمَّة» لا يَقرَؤُه قارئٌ إلاَّ تَوسَّمَ من خِلالِ سُطورِه الحماسةَ، ونُصرةَ الحَقيقة، وصِدقَ اللَّهجةِ. فقد افتَتحَ كَلامَه بقَوله:

«إنِّــي أدعو كلَّ مُحبٍّ للحقيقة أن يَبحثَ مَعي في حالةِ النِّساءِ المصريَّات، وأنا علــى يَقينٍ أنَّه يَصلُ وَحدَه إلى النَّتيجةِ الَّتي وَصَلتُ إليها، وهي ضَرورةُ الإصلاحِ فيها. هــذه الحَقــيقةُ الَّــتي أنشرُها اليَومَ شَغلتْ فِكري مُدَّةً طَويلةً كنتُ في خِلالِها أُقلِّبُها وأمتَحــنُها وأحلِّلُها حتَّى إذا تَجرَّدتْ عن كلِّ ما كانَ يَختلطُ بها من الخَطأ استَولتْ علــى مَكــانٍ عَظيمٍ من مَوضوعِ الفِكرِ منِّي وزاحَمَتْ غيرَها وتَغلَّبَتْ عليه وصارتْ تَــشغلُني بوُرودها وتُنبِّهُني إلى مَزاياها وتُذكِّرُني بالحاجةِ إليها فرأيتُ أنْ لا مَناصَّ من إبرازِها من مَكانِ الفِكرِ إلى فَضاءِ الدَّعوةِ والذِّكرِ.

ثمَّ أخــذَ يَـبحثُ في عَلاقــةِ المَــرأةِ بالأمَّــةِ ويُوردُ الأدلَّةَ والبَراهينَ التَّاريخيَّةَ والاجتماعــيَّةَ ويَستنهضُ الهِمَمَ ويُستَحثُّ القَرائحَ على العَملِ بِعباراتٍ مِلؤُها الحَماسةُ والإخلاصُ قال:

«ولا يَــركُنُ إلى حُــبِّ السَّكينةِ إلا أقوامٌ على شاكِلَتنا. فقد أهْمَلنا خدمةَ عُقولِــنا حتَّــى أصبَحتْ كالأرضِ البَائرةِ الَّتي لا يَصلُحُ فيها نَباتٌ. وحتَّى مالَ بنا الكَــسَلُ إلى مُعــاداةِ كلِّ فِكرٍ صَالحٍ ممَّا يَعدُّه أهلُ الوَقتِ حَديثاً غيرَ مألوفٍ سَواءٌ كانَ من السُّنَنِ الصَّالحةِ الأولَى أو قَضَت به المَصالحُ في الأزمنة».

«وكَــثيراً مــا يَكتَفي الكَسُولُ وضَعيفُ القُوى في الجَدلِ بأن يَقذفَ بكَلمةٍ باطلةٍ على حَقٍّ ظاهرٍ يُريدُ أن يَدفَعَه فيَقول: تلكَ بدعةٌ في الإسلامِ. وما يَرمي بهذه الكَلمــةِ إلاَّ حُبَّاً في التَّخلُّصِ من مَشقَّةِ الفَهمِ أو الخُروجِ من عَناءِ العَملِ في البَحثِ أو الإجراءِ. كأنَ اللهَ خَلقَ المُسلمينَ من طِينةٍ خاصَّةٍ بهم وأقالهم من أحكامِ النَّواميسِ الطَّبيعيةِ الَّتي يَخضَعُ لسُلطانِها النَّوعُ الإنسانيُّ وسَائرُ المَخلُوقاتِ الحَيَّةِ».

«سَــيَقولُ قَــومٌ إنَّ ما أنشُرُه اليَومَ بِدعةٌ. فأقولُ نعم إنِّي أتيتُ ببِدعةٍ ولكنَّها لَيستْ في الإسلامِ، بل في العَوائدِ وطُرُقِ المُعامَلةِ الَّتي يُحْمَدُ طَلَبُ الكَمالِ فيها».

وأفــاضَ في بَــسطِ المَوضوعِ وتأييده فأفرَدَ فَصلاً لتَربيةِ المَرأة، وهو يَعتَقدُ أنَّها مُــساويةٌ للــرَّجلِ لا تَختَلفُ عنهُ إلاَّ بما يَستَدعيه اختلافُهما في التَّكوينِ. وأنَّ تَعليمَها العَلــومَ الطَّبيعيَّةَ والعَقليَّةَ والأدبيَّةَ يُساعِدُها على القيامِ بواجباتِها المَنْزليَّةِ وتَرقيةِ نُفوسِ أبنائِها. وقسَّمَ الكَلامَ في التَّربيةِ إلى التَّربيةِ بالنِّسبةِ إلى الوَظيفةِ الاجتماعيَّةِ وبالنِّسبةِ إلى الوَظيفةِ العائليَّةِ. ثمَّ تَكلَّمَ في الحِجابِ.

وكانَ قد ألَّفَ كِتابَهُ بالفَرنسيَّةِ قبلَ **«تَحريرِ المَرأة»**.. ردَّ به على كِتابِ الدُّوك **«داركور»** الذي طَعنَ فيه على المِصريينَ وقَبَّحَ أخلاقَهم وعاداتِهم، واختَصرَ قاسمُ في دِفاعِــهِ عَــنِ الحِجَــابِ هناكَ فأفاضَ هنا في حَقيقةِ الحِجابِ من الوجهةِ الدِّينيَّةِ ومن

الـوجهةِ الاجتماعيـةِ، واستأنفَ الكَلامَ في «المرأةِ والأمّةِ» وبيَّنَ ارتباطَهما في فصلٍ طَويل.

* * *

وختَمَ كَلامَه بفصلٍ في «العائلة» وتَوسَّعَ في الكَلامِ على الزَّواجِ وشُروطِهِ وبيَّنَ أنَّ الـشَّريعةَ الإسـلاميَّةَ تأمـرُ بحُسنِ المُعامَلة، وتَنهى عن تَعدُّدِ الزَّوجات وتَقبحُ الطَّـلاق، مُـستمدّاً أقـوالَه من القُرآنِ والحَديثِ والقَواعدِ الاجتماعيَّةِ والأحكامِ العَقليـَّةِ. وفي كلِّ فَقرةٍ دَليلٌ على صَراحةِ فِكرِهِ وصِدقِ لَهجَتِهِ وتَفانيهِ في خِدمةِ أمَّتِه. ومـع ذلكَ فلم يَكدْ يَظهرُ كِتابُه وتَتناقَلُه الأيدي حتَّى تَصدَّى لتَخطئته أقوامٌ جاهَروا بالـسُّخطِ على صَاحِبِه بينَ مُنقذٍ وهازئٍ إمَّا تمسُّكاً بالقَديمِ أو مُحاراةً لإحساسِ العامَّةِ لارتـباطِ ذلـكَ بمَصالحِهم وطُرُقِ مَعيشتِهم. وفيهم مَن فَعلَ ذلكَ عن اعتقادٍ خالصٍ ولكـنَّ بعضَهم تَجاوَزَ حدَّ الانتقادِ إلى الاستِهزاءِ والقَولِ الهُراءِ فاتَّهمه بعضُهم بالمُروقِ مـن الـدِّينِ وآخـرونَ بالخُروجِ عن الآدابِ، وزعمَ غيرهم أنَّه يَرمي إلى قلبِ الهَيئةِ الاجتماعيَّةِ المَصريَّةِ ومُمالأةِ الإنكليزِ على ضَياعِ البلادِ.

أمَّـا هـو فأغضَى عن ذلكَ كلِّه ورَجَعَ إلى المَوضوعِ فزَادَه بَسْطاً بكِتابٍ آخرَ سَـمَّاه «المرأة الجَديدة» تَكلَّمَ فيه على «المرأة في حُكمِ التَّاريخ» من أقدمِ أزمِنتِهِ إلى الآنَ في الأمـمِ القَديمـةِ والحَديثةِ تأييداً لرأيِهِ في وَجُوبِ تَحريرِها، ورَفعِ شَأنِها، كما تَكلَّمَ على «الوَاجِبِ على المَرأةِ لنَفسِها» و«الواجِب على المَرأةِ لعائِلتِها» و«التربية والحِجاب».

ولم يَكـتفِ بطلبِ تَحريرِ المَرأةِ لكنَّه وَضَعَ لحرِّيتها حُدوداً وبيَّنَ ما يَجبُ عليها ما يحقُّ لها. ووَضَعَ للطَّلاقِ نِظاماً جَعلَه نَموذجاً تنسجُ الحُكومةُ على مِنوالِه إذا شَاءتْ تَحريـرَ المَـرأةِ وإعطاءَها حَقَّها الشَّرعيَّ والمَدني. فقيَّدَ إرادةَ الرَّجلِ في الطَّلاقِ بحكمِ القاضِـي أو المـأذون، بعـد أن يرشدَ الزَّوجَ إلى ما جاءَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ من كُرهِ

الطَّـــلاقِ عندَ اللهِ وينصحُه ويبيّنُ له تَبعةَ عَمله، وإذا أبى الإصغاء بَعَثَ حُكماً من أهلِه وحُكمـــاً من أهلِها للإصلاحِ بينَهما فإن لم يُفلِح في ذلكَ كلِّه فلَه إذن أن يُطلِّقها. ولا يَخفَـــى مـــا في ذلكَ من تَدارُكِ الأضرارِ الّتي تُصيبُ العائلاتِ بتَسرُّعِ البَعضِ في تَنفيذِ طَلَـــبِ الطَّـــلاقِ، وقد يَكونُ طَلبُه عن غَضَبٍ مُؤقّتٍ فإذا ثابَ إليه رشدُه نَدِمَ على ما فَرّط منه.

* * *

ظَهرتْ كتاباتُ «قاسم أمين» في هذا الشّأنِ من تِسعِ سَنوات، فشغلتِ الألسنةَ والأقـــلامَ عامـــاً أو عامينِ فأيقَظتِ العُقولَ وثارتِ الخَواطِرُ، وقامَ النّاسُ وقَعَدوا. وقد لاقَـــى من العُقلاءِ إعجاباً كثيراً فنَصَره بعضُهم بألسنتهم وأقلامهم وسَكَتَ الآخرونَ مُجـــاراةً للعامَّةِ ونُصرائهم. وأكثرُ مُجاهرةً في نُصرتِه وأخذ بيدِه زَميلُنا إبراهيم (بك) رَمـــزي فإنّــــه أنـــشأ بومئذٍ مَجلّةً سَمّاها «المرأةُ في الإسلام»، جَعلَها وَقفاً على هذا المَشروعِ ظَهرتْ سنةً ثُمّ احتَجبتْ ثمّ سَكَتَ النّاسُ لا عن إهمالٍ أو إغفالٍ ولكنَّها فترةُ الحَضَانة، رَيثما تتكيّفُ عقولُ الأمّةِ لقبولِ تلكَ الآراءِ. وقد أخذتْ نتائجُ ذلكَ السَّعي تَظهـــرُ برغبةِ النّاسِ في تَعليمِ بناتِهم، وإنشاءِ المَدارسِ لهذه الغايةِ. وهذا من أدلّةِ تَسرُّبِ فكرةِ قاسم أمين بالتَّدريج.

ســـتَتوالَى الأجيـــالُ وتَمرُّ السُّنونَ قبلَ أن تتحرّرَ المَرأةُ المُسلمةُ، لكنّها ستَتحرَّرُ وتَرتَقِـــي، وتتولَّـــى الأعمالَ الهامَّةَ، وتَرفعُ شأنَ العائلةِ كما كانتْ سالِفاتُها في جَزيرةِ العَربِ منذُ آلافٍ من السِّنين، فإذا بلغتْ إلى ذلك الرُّقيِّ تَذكَّر أنه كانَ صاحبَ الفَضلِ عليها ويعظمُ ذكره فيَبقَى اسمُه مَنقوشاً بحُروفٍ من نُورٍ في تاريخِ الاجتماعِ الشَّرقيِّ في التَّمدُّنِ الحَديث.

أعماله في تَحرير المرأة:

قـــد تَمرُّ القُرونُ والنّاسُ على ما ساقَتهم إليه الفِطرةُ في طَلَبِ المَعاشِ، لا يَفقهونَ

مَعنى الحَياة ولا الاجتماعِ حتَّى تَتمخَّضَ الطَّبيعةُ فتَلدَ من أبنائها أفراداً يَنهضونَ بالأمَّة إلى ما يظُنُّونَ فيه خَيرَها. هَؤلاء هم أقطابُ العالمِ ودَعائمُ الهَيئة الاجتماعيَّة، فمنهم من يَـرى ثَمـرةَ سَـعيه ويَنالُ الفَخرَ في حَياته، ومنهم من لم يَرَها في حَياته، فتَكون له الذِّكرى الحَسَنةُ، يَخلِّدُ بها اسمَه بعدَ موته.

وصـاحبُ التَّرجمة واحدٌ من هَؤلاء لم يَجنِ ثَمرةَ سَعيه، ولكنَّ مُعاصريه عَرفوا فَـضْلَه واعتَـرفوا بما طُبِعَ عليه من سَعة الأُفُق وسَداد الرَّأي والرَّغبة في خدمة الأمَّة، فعَهـدوا إليه بأعزِّ المَشروعات لديهم، نَعني إنشاء «**الجامعة**» فولُّوهُ رِياسَةَ اللَّجنة فلم يَدَّخِرْ وُسعاً في سَبيلها إلى آخرِ سَاعة من حَياته.

* * *

ذَكَـرنا للفَقيد فَضْلَهُ في نُصرة المَرأة، لأنَّه أظهرَ أعمالَه الاجتماعيَّة، ولكنَّه كانَ راغِـباً في سَـائرِ سُبلِ الإصلاحِ، يَطلُبها من أبوابها القَانُونيَّة مع تَطبيقِها على القَواعد الاجتماعـيَّة الـصَّحيحة، لا يُغريه إطراءٌ ولا يَخفيه صِياحٌ، ولا يَستغربُ نَقمةَ النَّاس وتَخوُّفَهم من كلِّ جَديد. وكانَ يُشيرُ إلى ذلكَ في أثناءِ أقواله ويَحتاطُ له ويَدفَعُه. ولَه في الإصلاحِ على إجماله مَقالاتٌ كانَ يَنشُرُها في جَريدة «**المؤيَّد**»، عُنوانُها: «**أسبابٌ ونَتائجُ وأخلاقٌ ومَواعظُ**» لم يَذكُرْ فيها اسمَه وكانَ لَها وَقعٌ حَسَنٌ.

ولَهُ أقوالٌ مأثُورةٌ وجُمَلٌ يَتناقَلُها النَّاسُ عنه، ويتَّخذُونَها قاعِدةً أو مَثلاً، نَشَرَها إدارةُ الجَريدةِ في كتاب سَمَّتهُ: «**كلماتٌ لقاسم (بك) أمين**» هو عِبارةٌ عن مُختاراتٍ أفكـاره، أو مُذكَّراته، وفيه حِكَمٌ فَلسَفيَّةٌ اجتماعيَّةٌ، وشَذَراتٌ علميَّةٌ، يَجدرُ بالأدباءِ الاطِّلاعُ عليها والتَّمثُّلُ بها، وهذه أمثلةٌ منها:

- **إنَّ الذي مَدحَكَ بما لَيسَ فيك إنَّما هو مُخاطِبٌ غيرَكَ.**
- **إذا استَـشارَكَ عَـدوُّكَ فأخلِصْ له النَّصيحةَ**، لأنَّه باستِشارَتكَ قد خَرجَ من عَداوَتكَ ودَخلَ في مَودَّتكَ.

- **تعصُّبُ أهلِ الدِّينِ وغرُورُ أهلِ العلمِ هما مَنشأُ الخلافِ الظَّاهرِ بينَ الدِّينِ والعلمِ.** وليسَ بصَحيحٍ أنَّه يُوجدُ بينَهما خلافٌ حَقيقيٌّ لا في الحَالِ ولا في الاستقبالِ، ما دامَ مَوضوعُ العلمِ هو مَعرفة الحَقائقِ المُؤسَّسة على الاستقراء. فمهما كَثُرَت مَعارفُ الإنسانِ لا يَلبَثُ الفكرُ بعدَ كلِّ اكتشافٍ يُحقِّقُه العلمُ، يَبحثُ عن اكتشافٍ آخرَ. وفي نهايةِ كلِّ مَسألةٍ تَحلُّها تَظهرُ مَسألةٌ جَديدةٌ تُطالبُه بحلِّها. الآنَ وغَداً يَشتَغلُ عقلُ الإنسانِ بالعلمِ، أي بمَعرفة الحَوادثِ الثَّابتةِ، ولا يَمنعُه ذلكَ من التَّفكيرِ في المَجهولِ الَّذي يُحيطُ بها من كلِّ طَرَف. هذا المَجهولُ الذي لا قَرارَ لَه ولا حدَّ، لا في الزَّمانِ ولا في المَكانِ، هو دائرةُ اختصاصِ الدِّينِ.

* * *

- من اختباري لأربابِ الأفكارِ الذينِ اختلطت بهم، يظهر لي أن الحمية عندهم سطحية، لا تذكيها نار تتوقد في القلب. حمية ألفاظ متى انتشرت عادت هباء لا تترك أثراً بعدها.
- لا أدري ما هي غاية الكتاب الذين إذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد، يجهدون أنفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها، كاستعمالهم مثلاً كلمة السيارة بدلاً من كلمة «الأوتوموبيل». إن كان القصد تقريب المعنى إلى الذهن، فالكلمة الأجنبية التي اعتاداها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه أتم من الكلمة العربية، وإن كان قصدهم إثبات أن اللغة العربية لا تحتاج إلى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم أمراً مستحيلاً.. إذ لم يوجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها.
- لا تكمل أخلاق المرء إلا إذا استوى عنده مدح الناس وذمهم إياه وجملة القول أن قاسم أمين من المصلحين العظام الذين يحفظ التاريخ ذكرهم، وتزداد من-

زلتهم رفعة وفضلهم ظهوراً بتوالي الأجيال. وفضله يشمل العالم الإسلامي على الإجمـــال بنصرته للمرأة المسلمة، وله فضل خاص على القطر المصري بما نشره بـــين المـــصريين من النصائح الخاصة بهم. وبما كان له من القدوة الحسنة بين زملائه وأصدقائه وغيرهم. لأنه خدم القضاة ٢٣ سنة كان فيها مثال النـزاهة واســـتقلال الفكـــر والشجاعة الأدبية، لا يخشى في الحق صداقة ولا قرابة ولا مقاماً.

بناة النهضة العربية

ص (١٠٢-١١٥)

Damascus University

*** التعليق والأسئلة:**

١- كتب جرجي زيدان مقدّمة مطوّلة لما أراد أن يكتب فيه، فما رأيك بها، وهل هي مناسبة، وهل يمكن اختصارها؟ وهل يمكن حذف الأبيات الشعرية؟

٢- بــدا الكاتب مؤيداً تأييداً شديداً آراء قاسم أمين، اذكر الجمل والعبارات التي تبرز هذا.

٣- وضع الكاتب لمقالته عناوين فرعية، فهل هذا جائز في كتابة المقالة أم لا؟ وما أهمية هذه العناوين؟

٤- ادرس دراسة موسَّعة ما ورد تحت عنوان «أعماله في غير تحرير المرأة». وقارن مع آرائه في تحرير المرأة.

٥- اضبط بالشكل المناسب المقطع الأخير «من اختباري... آخر النص».

٦- أعرب من النص الأبيات الشعرية الثلاثة الأولى.

٧- اكتب مقالة تردّ فيها على قول الشاعر:

ومــن غايــة المجد والمكرمات ... بقـــاء البـــنين وموت البنات

❖ ❖ ❖

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

أحمد زكي (١٨٩٤-١٩٧٥):

- أديب كيميائي، أفاد من العلمين الأدب والكيمياء، ومزج بينهما في كتاباته.
- ولد في السويس بمصر ثم سافر إلى إنكلترا، وحاز فيها البكالوريوس في العلوم، والدكتوراه في الفلسفة، والدكتوراه في العلوم.
- درّس العلوم في كلية العلوم بالقاهرة وعُيّن عميداً لها مرتين.
- عيّن وزيراً للشؤون الاجتماعية.
- عيّن مديراً لجامعة القاهرة حتى أحيل على التقاعد.
- شارك في التحرير بمجلتي «الرسالة» و«الثقافة».
- رأس تحرير مجلة «الهلال» ثم «العربي» واشتهر فيها لسنوات طويلة، وكانت افتتاحيته مما اشتهر به.
- انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ودمشق.
- له مؤلفات كثيرة أشهرها: سلطة علمية – بين المسموع والمقرر – قصة الكيمياء – جان دارك – مع الله في السماء – مع الله في الأرض – في سبيل موسوعة علمية... وغيرها.

-٤-

المقالة العلمية

عود الكبريت

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

عود الكبريت

أحمد زكي

لـــيت شعري أي الناس، وأي الشعوب، بل أي القبائل الإنسانية، اهتدى أول مهـــتد إلى النار، يشبها، ثم هو بعد ذلك يقوم عليها يغذيها، خشية أن يبوخ أوارها، ويذهب حرها. لقد زعم الزاعمون أن برقاً أصاب أول الأمر شجرة فأحرقها، فألهبها، فـــتعلم الإنسان من ذلك معنى النار، ومن تلك النار الأولى اقتبس ثم اقتبس، حتى جاء الـــوقت الـــذي تعلم فيه كيف يحدثها، في كل وقت وعند كل مشيئة. ويؤيد هؤلاء الـــزاعمون زعمهـــم بما لقي المكتشفون الجغرافيون في عصورنا الحديثة هذه من قبائل همجية، في أفريقية الغربية، لا تعرف معنى النار إلا اقتباساً. فظلت على أصولها تحييها، ناراً ونارين وعدة من نيران، ومنها تقتبس. ومهما يكن من أمر هذا الزعم وذاك، فلا شك أن الأقدمين، حتى تلك الأمم العتيقة التي كان لها في المدينة سابقة، ولها في الفكر الإنساني، والفن الإنساني، سوابق، هذه الأمم، روعتها النار، فأراعتها، فعبدتها.

فالإغـــريقُ يحكُـــونَ عن بَطلٍ من أبطالِهم، اسمُه **بروميتيوس Prometheus**، غاضَـــبَ كَـــبيرَ آلهتهم دِفاعاً عن الإنسانِ. فلمَّا رَفضَ الإلهُ الأكبرُ أن يُسديَ إلى بَني البَشرِ نِعمةَ النَّارِ، غافَلَه بروميتيوس، فصَعِدَ إلى الشَّمسِ، وبِعُودٍ في يَدِهِ قَبَسَ من لَهيبِها، ثمَّ عادَ به إلى الأرضِ، فكانتِ النَّارُ. **فهي إلهيَّةٌ سَماويَّةٌ.**

والرُّومانُ كانَ عِندَهم للنَّارِ **إلهةٌ أنثى**، أوقَدُوا لَها نَاراً قامَ على إحيَائِها العَذَارَى

حتّى لا تَخمُدَ أبداً.

والفُرسُ، اتّبعوا **زرَادشت**، **فعَبَدوا** النّارَ الّتي جاءَ بها من السَّماءِ، وظَلّت نيرانُهم تَشتَعلُ في مَعابِدهم لَيلَ نَهارَ، صَيفَ شتاءَ، عاماً بعدَ عامٍ، وقَرناً بعدَ قرنٍ، غِذاؤُها الخَشَبُ المُختارُ، والصَّمغُ العَطِرُ، والبَخُورُ الفَاخِرُ.

وغيرُ الفُرسِ، وغيرُ الإغريقِ والرُّومانِ، **عبَدَ النّارَ أممٌ كثيرةٌ كانَ فيهم للنّارِ آلهةٌ**، منها ما حَملَ الخَيرَ، ومنها ما حَملَ الشَّرَّ. فكانَ في الهُندوسِ للنّارِ آلهةٌ، وكانَ لَها آلهةٌ في السُّلافِ البيضِ وفي الهُنودِ الحُمرِ، وفي السِّلتِ وغيرِ السِّلتِ. «**والنّارُ مَعبُودَةٌ مذْ كانتِ النّار**».

* * *

واستَعصتِ النّارُ على طُلاّبِها أيَّ استعصاءٍ، فلم يَكُونوا يُحدثُونَها إلاّ على التّعبِ وبعدَ الجُهدِ والجِهادِ. وكانتْ لهم في ذلكَ طُرُقٌ عدّةٌ، اختَلفتْ باختلافِ البِلادِ، واختلافِ الأجواءِ. فكانَ منها حكُّ عودِ الخَشَبِ بأخيه، وهو من خَشَب. يَجعلُ القَادحُ عودَه الأوّلَ قَائماً، طَرفُه في الأرضِ، وطَرفُه الآخرُ مُثبَّتاً في صَدرِه، أو في بَطنِه. ثمّ يأخذُ العُودَ الثّاني فيُمسكُه أُفقيّاً بكِلتا يَديه، بكلِّ يَدٍ طَرفٌ، ثمّ يحكُّه على أخيه القَائمِ، رَفعاً وخَفضاً، ثمّ رَفعاً وخَفضاً، في تَتابعٍ سَريعٍ، حتّى يحترَّ العُودُ ويتّقدَ. ولا بُدَّ للعُودَينِ ليتّقدا من حَظٍّ من الجَفافِ وافِرٍ.

ومن طُرقِهم في إحداثِ النّارِ أن يأخذَ الرّجلُ بأحدِ العُودَينِ، فيَفرُكَه وهوَ قَائمٌ بينَ كفّيه. والعُودُ إذ يَدُورُ تَدورُ سِنُّه السُّفلَى في نُقرةٍ في العُودِ الآخرِ وهو مُلقًى على الأرضِ، قد ثبّته الرّجلُ بقَدمَيه. عندئذٍ تَحترُّ السِّنُّ. وتنتقلُ منها الحَرارةُ إلى أوراقٍ للشّجرِ جافّةٍ رَكَمها الرّجلُ حَولَها، فتشتَعلُ. ومن شُعلَتِها يَقتبسُ القَابسُ ما يَشاءُ من نَارٍ.

ومن الطُّرقِ ما لم يُعتَمدْ على الحَكِّ، ولكنّه اعتمَدَ على الطَّرقِ، تَطْرُقُ حَجراً صَلداً بحَجرٍ صَلدٍ، أو تَضرِبُ صَوّاناً بحَديدٍ، فيَخرُجُ منهما الشَّرَرُ، فيمسُّ عُوداً حاضراً

من حَشيشٍ جافٍّ، أو فَتيلاً أُشرِبَ زَيتاً، فيَلتَهِبُ. ومن شُعلَتِه تَقتَبِسُ.

وحـــيثُ اســـتَطاعَ النَّاسُ الزُّجاجَ، واستَطاعُوا صِناعَتَه، استَخدَموا مَراياهُ، أو عَدَســـاتِه، لتَركيزِ ضَوءِ الشَّمسِ، فتَركيزُ حَرارَتِها على شَيءٍ سَريعِ إلهابِه فالتِهابُه. فإذا الـــتَهبَ اتَّخَـــذُوهُ قَبـــساً. وإلى الزُّجاجِ كانَ يَلجأُ الرُّومانيُّونَ كلما غَفَلَتْ في المَعابِدِ عَذاراهم، فانطَفأتْ من جَرَّاءِ غَفلَتِهنَّ نيرانُهم.

* * *

لقـــد عبدَ النَّاسُ النَّارَ لنَفعِها، وعَبَدُوها لجَهلِهم إيَّاها وانبِهامِها، ولكنْ كانَّي بهم أيضاً عَبَدوها لاستعصائِها. وظَلَّت النَّارُ مُستَعصيَةً طَوالَ القُرونِ، يُنتِجُها النَّاسُ حَكّاً أو قَدْحاً، وأحياناً بالزُّجاجِ مَرايا أو عَدساً.

* * *

ثمَّ وُلِدَ عُودُ الكِبريتِ. وُلِدَ آخرَ الدَّهرِ.

ولـــدَ في القَرنِ الماضِي (التَّاسعَ عَشَرَ) لا في قَرنٍ سِواهُ. ولكنَّا تَعوَّدنا الكِبريتَ، وألِفـــناهُ استِخداماً، وألفناهُ كَثرةً، وعَرفناهُ من يَومِ عَرفنا الدُّنيا، فحَسِبناهُ بعضَ أشياءِ هـــذه الدُّنيا العَتيقةِ قِدماً، وبَعضَها أزَلاً، وما هو بذلكَ. وبعُودِ الكِبريتِ تَيسَّرتِ النَّارُ حتَّى لم نَعُد نَفقَهُ أنَّ قَوماً قَبلنا كانَ لَهم منها إجهادٌ وكانَ إعناتٌ. وفهِمنا النَّارَ كيفَ تَحدُثُ، وفَهِمنا الحَريقَ كيفَ يَكون، فلمَ تَعدِ النَّارُ مَثارَ إعجابٍ ولا مَطلباً لعِبادةٍ.

وكانَ لا بدَّ لابتداعِ عُودِ الكِبريتِ من تَقدُّمِ الكِيمياءِ، فعُودُ الكِبريتِ نَتيجةٌ من أنـــتِجةِ الكِيمـــياءِ صَرْفةً، والكِيمياءُ الحَديثةُ لم يَمضِ عليها مذ خَلقِها قَرنان. وكَيفَ يَكـــونُ قَـــدْ مَضَى عَليها قَرنانِ والهَواءُ الجَويُّ لم نعرفْ ما هو، ولا من أيِّ العَناصرِ تألَّـــفَ، إلاَّ عندَ خِتامِ القَرنِ الثَّامنَ عَشَر. عرَّفنا إيَّاه فمن عَرَّف، الكِيماويُّ الفَرنسيُّ **لافـــوازيه Lavoisier**. ولافوازيه قَتلَه الثُّوارُ الفَرنسيُّونَ في الثَّورةِ الفَرنسيَّةِ عام ١٧٩٤. ومـــن لافوازيه عَرفنا أنَّ بالهَواءِ عُنصُراً سَمَّاهُ بالأكسجين، وأنَّ به عُنصراً آخرَ سَمَّاه

بـــالآزُوت أي النِّتـــروجين. وأنَّ احتراقَ الفَحمِ واحتراقَ الخَشبِ يَكونُ، لأنَّ الفَحمَ عُنصرٌ، وأنَّه يُوجَدُ في الخَشبِ وفي الحَطبِ وفي كلِّ مُحترقٍ مما يَستَوقدُ النَّاسُ. وأنَّه إذ يَحترقُ يتَّحد الفَحمُ، ويُسمُّونَه في العلمِ الكَربون، يَتَّحدُ بأكسجين الهَواءِ، فَيكوّن غازاً هـــو أكـــسيد الفَحمِ أي أكسيد الكَربون. فالحَريقُ هو على الأكثرِ اتِّحادٌ بينَ الفَحمِ وأكسجين الهَواءِ. أمَّا الآزوتُ فملطِّفٌ يُهدِّئُ من الحَريقِ حتَّى لا يَكونَ انفجار.

* * *

ولكـــنَّ الكيمياءَ عَلَّمتنا شَيئين خَطيرين عن احتراقِ الفَحمِ، ظَاهراً كما هو في الفَحـــمِ النَّباتيِّ وفَحمِ الكُوك، أو مُختَفياً كما هو في تَركيبِ الخَشَبِ والقُطنِ والسُّكَّرِ والصَّمْغِ والغِرا والزَّيتِ واللَّحمِ والشَّحمِ وكلُّ ما هو من أصلٍ نَباتيٍّ أو أصلٍ حَيوانيٍّ. علَّمتنا الكيمياءُ شَيئَين خَطيرين عن اتِّحادِ هذا الفَحمِ بأكسجين الهَواءِ.

أمَّـــا الأمرُ الأوَّلُ فهو أنَّ هذا الاتِّحاد لا يَكونُ على البُرودة، لا يكونُ في دَرجةِ الحَـــرارةِ العَاديَّة. فلا بُدَّ من رَفعِ دَرجةِ حَرارةِ الفَحمِ، وكلِّ شيءٍ به فَحمٌ يُرادُ حَرقُهُ، إلى دَرجةٍ خاصَّةٍ يتمكَّنُ عندَها من أن يتَّحدا بأكسجين الهَواء. وهذه الدَّرجةُ تَختلفُ باخـــتلافِ الأجسامِ. فالسُّكَّرُ لا يَحترقُ إلاَّ إذا بَلغَ دَرجةَ ٣٨٥ (الماء يغلي عندَ دَرجةِ مـــئة). والجـــاز أي الكيروسين لا يَحترقُ إلاَّ إذا بَلغَ دَرجةَ ٢٩٥. والخَشَب واللَّحمُ والـــشَّحمُ والصَّمغُ لها كُلِّها دَرجاتٌ لا بُدَّ هي بالغتها حتَّى تَحترقَ، أو على الأصحِّ حتَّـــى تأخـــذَ في الاحتـــراق. وما إحداثُ النَّارِ في أعوادِ الشَّجرِ بالحَكِّ، أو إحداثُها بالطَّـــرق، علـــى ما وَصفنا، إلاَّ وَسيلةٌ لرَفعِ دَرجةِ الحَرارةِ إلى الحَدِّ الذي عندَه يَلتهبُ الخَـــشبُ أو يَـــشتعلُ عـــودُ الحَشيش. ومن هذا **نَرى أنَّ البُرودةَ نعمةٌ من نعمِ اللهِ الكُـــبرى، فلَولاها، في هذا الجَوِّ الأرضيِّ، لاحتَرقَ النَّاسُ واحتَرقَتِ الأشيَاءُ.** ومن هـــذا نَـــتعلَّمُ أنَّ بينَ النَّاسِ والأشياءِ من جهةٍ، وبَينَ أكسجينِ الهَواءِ من جهةٍ أخرى، خُـــصومةً في الطَّـــبعِ، من شأنِها أنْ تَفنينا وتَفنيه، ولكن يَمنعُ من هذا الفَناءِ أنَّ حَرارةَ

الجَوِّ مُنخَفضةٌ. فنَحنُ في هُدنة ما انخَفضَت تلكَ الحَرارةُ، حَرارةُ الأرضِ، وحَرارةُ الجَوِّ، وهي بَاقيةٌ على انخفاضِها إلى أنْ يَشاءَ اللهُ.

أمَّـــا الأمرُ الثَّاني فهو أنَّ أكثَرَ الاتِّحاداتِ الكيماويَّة، بينَ عنصرٍ وعُنصرٍ، ومنها الحَـــريقُ، تَخـــرجُ الحَرارةُ فيها من ذاتِ نَفسِها. فأنتَ إذا أردتَ أن تَحرقَ شَيئاً، فما عَليكَ إلاَّ أن تَبدَأَ احتراقَه، أي أن تَرفَعه إلى الدَّرجةِ الَّتي يَبدأ عندَها اتِّحادُه بأُكسجينِ الهَـــواءِ، فـــإذا أنتَ فَعلتَ ذلك، فقد فَرَغَ واجبُكَ، واستَمرَّ الشَّيءُ يَحترقُ من ذاتِ نَفسِه، أي يَتَّحِدُ، ومن اتِّحادِه تَخرجُ الحَرارةُ نَتيجةً مَحتُومةً تُعينُ على احتراقِ سَائِرِه.

* * *

وبعـــدَ فَهـــمِ الاحتراقِ، أخذَ يَلعبُ الكيماويون بالأجسامِ، وأخَذُوا يَتفحَّصُونَ المَـــوادَّ، ويَدرُسُونَها، في نِظامٍ أحياناً، واعتباطاً أحياناً أخرَى؛ وتَوجَّهُوا، بعدَ مَحصولٍ غيرِ قَليلٍ من علمِ الكيمياءِ، إلى استِحداثِ النَّارِ بالطُّرقِ الكيماويَّة. فكانتْ مُحاولاتٌ كَثيرةٌ، ابتَدأت مُعقَّدةً، ثمَّ أخَذَتْ تتبَسَّطُ إلى أن وَصلتْ إلى ما نَعرفُ اليَومَ من عِيدانٍ. واعتَمدَتْ كلُّها، أو حاولتْ أن تَعتَمدَ، على شَيئَين:

أوَّلهمـــا اختيارُ مادَّةٍ مُشتَعلة، قَريبةِ الاشتِعالِ، أي تَشتعلُ عندَ درجةِ حَرارةٍ غيرِ عالـــية، فوَجدوا ذلكَ في السُّكَّرِ الأبيضِ وفي الكِبريتِ الأصفرِ، ومن أجلِ هذا سُمِّيَ العُـــودُ عودَ كِبريت، ثمَّ وَجَدوه من بعدِ ذلكَ في عُنصرِ الفُسفُورِ لما اهتَدوا إلى كَشفِ هذا العُنصرِ، ثمَّ إلى طَريقةِ صُنعِه.

أمَّا الأمرُ الثَّاني الذي اعتَمدُوا عليه فهو استِبدالُ أكسجينِ الهَواءِ بمادَّةٍ كيماويَّةٍ هـــا الأكسجين أحدُّ وأنشطُ، وأغزَرُ، وأكثرُ امتزاجاً بالمادَّةِ المُلتهبةِ وهي من سُكَّرٍ أو كِـــبريتٍ أو فُـــسفُور. ووَجـــدُوا هذه المادَّةَ، كَثيرةَ الأكسجينِ، غَزيرَته، في كلُورات البُوتسيوم، أو بيكروماته.

وكانَ أوَّلَ عودٍ للكِبريت عوداً صَنعَه رَجلٌ فَرنسيٌّ اسمُه شَانسِل Chancel،

عـام ١٨٠٥. جـاءَ بعـودٍ مـن الخشبِ، طُولُه كَطُولِ القَلمِ، وغَمسَ طَرفَه في الكِبريتِ، كِبريتِ العَمودِ، السَّائحِ، ثمَّ أخرَجه. فغطَّته طَبقة رَقيقةٌ منه جَمَدتْ عليه لـمـا بَرَدتْ. ثمّ على رأسِ هذا الطَّرفِ، فوقَ الكبريتِ، أرادَ أن يَضعَ شيئاً من السُّكَّرِ، وأن يَمـزجَه بـشَيءٍ مـن الكلورات، مَصدراً للأكسجين. ولكنَّ السُّكَّرَ مَسحوقٌ، وكـذلكَ الكُلورات، فكيفَ يُثبتان على طَرفِ العُودِ؟ ثبَّتهما بالصَّمغِ، عَجنَهما بمائه. فلمَّا جَفَّ العُودُ، وأرادَ أن يُلهِبَه، بلَّله بحامضِ الكبريت، المَعروف بحامضِ الكبريتيك، فمـا ابتلَّ حتَّى أخرَجَ الحامضَ من الكلورات أكسُجيناً حادًّا فعَّالاً، هَجمَ على السُّكَّرِ فألهَبَه. وبالتِهابِ السُّكَّرِ التَهبَ الكبريت، وبالتهابِ السُّكَّرِ التَهبَ الكبريتُ. وظَلَّ هذا العُودُ، عُودُ الكبريتِ الأوَّل، رائجاً في النَّاسِ، مُحبَّباً إليهم حِقبةً من الزَّمانِ.

* * *

ولم يَخـطُ عُـودُ الكِـبريتِ خُطـوةً كَبيرةً أخرَى بعدَ ذلكَ، إلاَّ عندَما عَمَدَ الكيماويونَ إلى استخدامِ الفُسفورِ في صِناعةِ الكِبريتِ. والفُسفور عنصرٌ يُستَخرجُ من العظـامِ ومن غيرِ العظامِ. وهو مادَّةٌ كالشَّمعِ، تَضربُ إلى اصفرارٍ، يُحفَظُ دائماً تَحتَ المَـاءِ ليُحْجَبَ عن الهَواءِ. ذلكَ لأنَّه لا يَمسُّ الهَواءَ حتَّى يتَّقدَ بَطيئاً، ثمَّ سَريعاً. ويُرَى الفُـسفور في الظَّـلامِ مُضيئاً، لأنّه يتَّقِدُ. ومن هذا جَاءَ اسْمُه. فالفُسفورُ مَعناهُ حاملُ النُّورِ.

إذن كـانَ مـن الطَّبيعيِّ أن يتوجَّهَ الكِيماويونَ إلى الفُسفورِ لصِناعةِ الأعوادِ. فـصَنَعُوا الأعـوادَ الأولَـى منه عام ١٨١٦، صَنعها رَجلٌ فَرنسيٌّ، ولكنَّها لم تُصنَع بمَقاديرَ كَبيرةٍ إلا عام ١٨٣٢، صَنعَها رَجلٌ ألمانيٌّ، ثمَّ رَجلٌ إنجليزيّ. وغَمسُوا طَرفَ العُـودِ في الكِبريتِ كما وَصفنَا، ثمّ غَطُّوا هذا الطَّرفَ المُكبرتَ بالكلورات والفُسفور بعـدَ ربطِهمـا بالـصَّمغِ، ثمَّ حَكُّوه بعدَ من ذلكَ على أيِّ سَطحٍ خَشنٍ، أيًّا كانَ، فالتَهبَ.

ولكـــنَّ العُودَ التهبَ سَريعاً. والتَهبَ حينَ أريدَ إلهابُه، وحين لم يُرَدْ، فأحدَثَ الحَــرائقَ وأنذرَ بالمَخاطرِ. واتَّجهَ الكيماوِيُّونَ إلى تَهدِئَتِه. فخَفّفوا من حِدَّةِ الكلورات، بإبــدالِ بَعضها النِّترات، نترات الرَّصاص، ليَنبعثَ الأوكسجين منهما على حالٍ أكثرَ إبطاءً وأكثرَ مَهلاً. وفَعلوا غير ذلكَ في تَرويضِ هذا الطَّبعِ الثَّائرِ والمزاجِ النَّافرِ.

ولكنَّ حَدثاً جَليلاً حَدثَ في كِيمياءِ الفُسفورِ في مُنتصفِ القَرنِ الماضي. حَدَثَ أنَّ كِــيماوِيَّاً اكتَشَفَ أنَّ الفُسفُور، وهو أصفرُ، إذا سُخِّنَ في أنبوبةٍ مُغلقة حتَّى درجة ٢٦٠ مئوية، استَحالَ إلى تُرابٍ أحمرَ. ولم يَكُنْ هذا التُّرابُ إلا الفُسفور نفسَه، ولكنْ على صُورةٍ أعدلَ مَزاجاً، وأقلَّ ثَورةً، وأبطأَ التِهاباً. وهو لا يُضيءُ في الظَّلامِ. واختَلفَ عن الأصفرِ بأنَّه لا يَنالُ العاملينَ في صِناعَتِه بذلكَ الدَّاءِ الفَظيعِ الأليمِ الَّذي يُصيبُ من العامِلِ فكَّه فيَنخرُ فيه نَخراً. وأرادُوا أن يَستَبدلوا بالفُسفورِ الأصفرِ الفُسفورَ الأحمرَ في صِــناعةِ الأعــوادِ، فلم يَنجَحوا، لأنَّ العُودَ لم يَلتهبَ عندَ الحَكِّ. عندئذٍ علموا أنَّهم أرادُوا اعــتِدالَ المزاجِ فبالَغُوا في اعتدالِه. ولكنَّ كيماوياً رأى أن يَحلَّ المُعضِلَ أوَّلاً بأن يُطعمَ الفسفورَ البَليدَ هذا شيئاً كَثيراً من مَوادَّ تُنتجُ الكثيرَ من الأكسجينِ وثانياً، وطَلباً للسَّلامة، رأى أن يُفرِّقَ بينَ هذه المَوادِّ المُؤكسدة الكثيرة وبينَ الفُسفورِ الأحمرِ، فوَضَعَ الفُسفورَ، على جانبٍ من جَوانبِ العُلبة، عُلبةِ الكِبريت، ووضعَ معه شيئاً من أوكسيدِ المَنجنيــزِ الأسودِ وهو مؤكْسَد مأمونٌ غيرُ ثائرٍ ووَضعَ حواملَ الأكسجينِ الثَّوارِ، من كلــورات وبيكــرومات، وكذا أوكسيدِ رَصاصِ الأحمرِ، وضَعها جَميعاً على رأسِ العُودِ، يَربطُها رِباطٌ من صَمغٍ. وضَمَّنها هي الأخرى شَيئاً يُعينُ على الاحتراق، ذلكَ كــبريتور الأنتيمون، يَخرجُ الكبريتُ منه فيعينُ على النَّارِ ولكنْ وهي متأجِّجة. وهذا خُلِقَ عُودُ الكِبريتِ «الأمين» الذي لا يَشتعلُ إلاَّ إذا حُكَّ على عُلبة، والذي قد تَضعُه في جَيبِكَ فتنامَ وأنتَ آمِنٌ.

* * *

وتَفـــنَّنَ الكيماويون من بعدِ ذلكَ في تَحسينِ الأعوادِ. فرَجعوا إلى العُودِ الأوَّلِ، عـــودِ الكِبريتِ الذي تحكُّه حيثما شِئتَ، فاستَبدلوا بالفسفورِ الأصفرِ الخَطِرِ، كِبريتور الفسفور، وهو جسمٌ مأمونُ العاقبةِ، يَضعونَه في رأسِ العُودِ ومَعه الكلورات وأوكسيد المَنجنيز وأكاسيدُ أخرَى، وكلُّها مَصادرُ للأكسجين ومنها ما يَنفعُ لتَخشينِ المَزيجِ عندَ الحَكِّ؛ ثمَّ الغِراء يَربطُ بينها جَميعاً. وحسَّنوا كذلكَ العُودَ الثَّاني، العود الأمين، ولكنْ بغيرِ شَيءٍ كَثيرٍ.

ولكلِّ صَانعِ كِبريتٍ وَصفةٌ يَعتَزُّ بِها ويَحتَفِظُ بسِرِّها.

* * *

فهذا هو عُودُ الكِبريتِ، نَزلنا في تَبسيطِ كِيميائه إلى أدنَى حَدٍّ يُؤمن معه الزَّللُ، فإن هو اتَّضَحَ، فبها. وإن هو لم يَفعل، فليسَ على العِلمِ من مَلامةٍ.

سَلَطة عِلميَّة

ص(٩٠-١٠١)

* التطبيق والأسئلة:

١- ادرس عرض الكاتب لمقالته بدءاً من المقدمة حتى الخاتمة.

٢- استشهد الكاتب بعدد من البلاد التي كانت تعتمد النار قبل الكبريت، علام يدلّ هذا؟

٣- تميّزت الجمل في المقالة بعدد من المميزات أهمها الطول والقصر. اكتب عشرة أسطر حول هذه النقطة مستشهداً على ما تقول.

٤- لا شك في أن اللغة التي كتب بها الكاتب مقالته كانت علميّة. أبرز أهم المواضع من حيث الفكرة - الجملة - الكلمة التي تبين أو تؤكد هذا.

٥- هل جذبك الكاتب بأسلوبه العلمي؟

٦- ما المراحل التي مرَّ بها الكبريت.

٧- اضبط بالشكل المقطع الأول «ليت شعري.. فعبدها».

٨- أعرب المقطع التالي مفردات وجملاً: «واستعصت... وافر».

٩- اكتب مقالة تتحدث فيها عن أثر اكتشاف الكهرباء في حياة الناس.

١٠- اكتب مقالة تتحدث فيها عن أثر «الكومبيوتر» في حياتنا العملية.

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

-٥-

المقالة السياسية

كلمات حزينة

نجاح العطار (١٩٣٣-.....):

ولـــدت في دمـــشق ١٩٣٣، ودرست في جامعتها وتخرجت ١٩٥٤، ثم تابعت دراساتها العليا في بريطانيا فـــنالت شـــهادة الدكـــتوراه في الدراســـات الأدبية والإسلامية.

درّســـت في المـــدارس الـــثانوية عـــدداً قليلاً من الـــسنوات، ثم تولّت إدارة التأليف والترجمة في وزارة الثقافة بدمشق.

أصـــبحت وزيـــرة للثقافة في ١٩٧٦ حتى أواخر الثمانينيات.

اشـــتهرت كتاباتها باللغة التي تميّزها، ولا سيما في افتتاحية مجلة المعرفة التي تصدر عن وزارة الثقافة.

جامعة دمشق Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

كلمات حزينة

د. نجاح العطّار

السَّيارةُ تَهبطُ باتجاهِ البَحرِ الميِّت، وصوتُ فيروزَ يملأُ سكونَ الجوِّ بهذه الكلمات:

كأنَّا خُلقنا للنَّوى وكأنَّما حَرامٌ على الأيَّامِ أن نتجمَّعا

وأذكرُ أيَّامَ الحِمى ثمَّ أنثني على كَبِدي من خَشيةٍ أن تصدَّعا

ونَستمرُّ في الهُبوطِ والصَّوتُ الَّذي يُعانقُ المَدى يُتابع:

برُوحي تلكَ الأرضُ ما أطيبَ الرُّبا وما أجمَلَ المُصطافَ والمتربَّعا

وتَقفُ السَّيارةُ أمام حاجزٍ، ويَقولُ السَّائقُ: لو كانَ الدَّربُ مَفتوحاً لبَلغتُ القُدسَ خلالَ ثُلثِ سَاعةٍ.. ويَهزُّ رأسَه ثمَّ يَنعطفُ ويَستمرُّ باتِّجاهِ البَحرِ المَيِّت.

وتَنبَجسُ في الذَّاكرةِ صُورٌ قَديمةٌ وحَديثةٌ وتَختلطُ، تَلتقي ثمَّ تَفترقُ.. القدسُ بعدَ معاركِ ١٩٤٨ والحَيُّ القَديمُ والأسلاكُ الشَّائكةُ الفاصلةُ ورامَ الله وبيتَ لَحم والخَليلُ... والثَّورةُ الشَّابّةُ في نُقاطِ المُواجهةِ تُعلنُ عن التَّحدِّي الذي يَكمنُ ليَنفجرَ، ويُشكِّلُ بالنِّسبةِ للنَّاسِ العَادِيينَ أملَ مُستقبلٍ لا يَزالونَ يَشعرونَ أنَّ بأيديهم أن يُحدِّدوه.

مَشاهدُ كَثيرةٌ تَنبسطُ وتَنطوي، والعُبورُ يُراودُ، والأرضُ المُحرَّمةُ حُلمٌ من الأحلامِ البَعيدةِ والقَريبة، وممَّا يُسجَّلُ للفاجعة التي أدمَتْ وأوجعَتْ آنذاك أنَّها لم تَقتُلِ الأملَ بمقدارِ ما جَمعَتْ من عَزمِ الشَّبابِ العربيِّ في كلِّ مَكانٍ على العَملِ من

أجلِ تَغييرِ الوَاقعِ وتَطويرِهِ وتَثويرِ الأنظمةِ والإعدادِ لَمعركةِ ثأرٍ مُقبلةٍ، تَستعيدُ فلسطينَ من غاصبِها.

أنســامُ البَحـــرِ المَيّتِ الذي لم يَعدْ لنا تَهبُّ، ونَحنُ على شَاطئِه نحلمُ من بعيدٍ، وكَلمـــاتُ أغنـــيةٍ سَـــمعتُها في بدايةِ الستِّينياتِ في أوربا تَعودُ إلى ذِهني، فقد عَرضَها التلفـــزيونُ فيلماً مُصوَّراً آنذاك. مَجموعةٌ من الفَتياتِ والشّبابِ اليَهودِ في ثِيابِ الحِدادِ يُغنُّون: نَهـــرٌ واحدٌ بَقيَ علينا أن نَعبرَهُ، هو نهرُ الأردنّ... وفي إطارٍ مأساويٍّ يُجسِّدُ عمليةَ (الخروج) الإسرائيلية القَديمة تَتردَّدُ هذه اللازمةُ خلالَ سَاعةٍ كاملةٍ.

وأتساءلُ والبحرُ المَيّتُ يَحبسُ أنفاسَه وأنفاسَنا: كَم من الأنهارِ والجِبالِ صَارَ عَليـــنا أن نَعبرَ؟ وكَم من الأراضي باتَ عَلينا أن نُحرِّرَ، في وقتٍ أنشبَتْ فيه المُؤامرةُ الأمـــريكيّةُ الصُّهيونيَّةُ أظافِرها في جسمِ التّضامنِ العَربيِّ فمزَّقته، ولَعبت اتِّفاقيَّةُ سيناءَ دَورَهـــا في هـــذا التَّمـــزيقِ وتابَعتْه مَذابحُ لُبنانَ، ولا تَزالُ تواصلُه في مُحاولاتِ فكِّ الارتباطِ المَصيريِّ بينَ سُوريَّةَ والمُقاومةِ الفِلسطينيَّةِ، وفي شَنِّ هذا الهُجومِ الافترائيِّ على سُـــوريَّةَ من كلِّ جانبٍ، من كلِّ مَحطّةٍ، من كلِّ الأطرافِ المُعاديةِ، وفي وقتٍ واحدٍ، كأنّمـــا يُرادُ من وَراءِ ذلك، وفي إصرارٍ ولُؤمٍ، حَذفُ كلِّ ماضي سوريّةَ النّضاليِّ دُفعةً واحِـــدةً، وإزالةُ هذا البلدِ الصّامدِ في وَجهِ المُؤامرةِ الكَبيرةِ، بوَضعِ المَعاولِ تحتَ سُمعَتِه الكِفاحِـــيَّةِ التَّاريخيّةِ وهَدمِها من الأعماقِ وبحَشْدِ الجُيوشِ غدراً على حُدودِه لإرباكِهِ وتَشتيتِ قُواه.

وشَـــريطُ الذِّكرياتِ يَتَتابَعُ وفيروزُ تغنّي.. العام عام ١٩٦٧.. الخَليلُ ورامَ اللهِ ونـــابلُسُ والقُدسُ و.. و.. كلُّ ذلكَ صَارَ ذِكرى.. من يُصدِّق؟ **حُزيرانُ شهرُ أحزانٍ حُفِـــرَ في ذَاكرةِ العربِ من أقصى خَليجهم إلى أقصى مُحيطهم**. غطّى بعَتمةِ الهَزيمةِ دُروبَ حَياتِنا، حتّى إذا تَجاوَزناها، بحَربِ تشرينَ وتنوّرَ الدَّربَ، جاءت اتِّفاقيَّةُ سيناءَ لتُلقـــي عليه ظلالَها، وجاءَ حُزيران ١٩٧٦ بأحداثِ لبنانَ الرَّهيبةِ ليُكثِّفَ هذا الظَّلامَ،

ويَرمي العربَ في دَوّاماتٍ وعَداواتٍ وانقسامات يَدمى لَها القَلبُ.

ويَهتفُ واحدٌ من الصَّحبِ بسؤالٍ يَقطعُ عليَّ شَريطَ الذّاكرة: ألستِ معي في أنّ حُزيرانَ شَهرٌ مَشؤومٌ؟ أمسِ كانت الهَزيمةُ وأضَعْنا كلَّ ما أضعنا عام ١٩٦٧، واليومَ، في لبنانَ، مأساةٌ تَهونُ عندَها كلُّ مآسي العَربِ عبرَ تاريخهم الطّويلِ.

وتقولُ سيِّدةٌ: لا تُذكّرني بلبنانَ.. دَمُنا هناكَ يَسيلُ بلا رَحمة، على أرضنا وبأيدينا.. شَبابُنا قُتلوا ويُقتَلونَ بالآلاف، الذين تَدرّبُوا على استخدامِ السِّلاحِ ليَكُونوا لنا الأملَ والمُستَقبلَ في التّحريرِ يَتّجه سِلاحُهم إلى صُدورِهم بشكلٍ أو بآخرَ، كأنّما المعركةُ بينَ العربِ، وكأنّما ميدانُها لبنانُ.

وتَقولُ أخرَى: **كم هُو فاجِعٌ أن نَكونَ نَحنُ القَتيلَ والقَاتِلَ.** دَمُنا وَحدَه هو الّذي يَروي تُربَتنا، وأجسادُ أطفالنا وشَبابنا وصَبَايانا هي المَنثورةُ على أرضِ المَعركة، أعيني على أرصِفَتنا وشَوارِعنا، والبُيوتُ المُتهدِّمةُ على رُؤوسِ أصحابِها بيوتُ أهلِنا وإخوتنا.

ويَختَلطُ الحِوارُ ويَحتَدمُ الجِدالُ: معَ مَن الحقُّ؟ مَنْ تَسبَّبَ، من تَعنَّتَ؟ ويَصخَبُ المَجلسُ، ثمّ يتّفقُ الجَميعُ على أنّ كلَّ قَتيلٍ يَسقُطُ من صَفِّ النِّضالِ ضدّ العدوِّ الإسرائيليّ، وكُلَّ خَسارةٍ تقعُ تُسجِّلُ رقمَ هَزيمةٍ لخَطِّ دِفاعنا، وإنّنا في جُمَّى المَعركة المَسعورةِ نَنسى ذلكَ، ويَدفعُ الجُموحُ أصحابَه إلى بركِ الدَّمِ دونَ تَوقُّف، وتَستمرُّ المَجزرةُ التي أردْنا إيقافَها فكَانَ أنْ تَفجَّرتْ، وأردْنا للُبنانَ أن يَنعمَ بالطُّمأنينةِ فإذا الإعصارُ يَعصِفُ به، ورَجَوْنا أن يُصانَ الرَّصاصُ العَربيُّ ليوجَّهَ إلى صَدرِ العَدوِّ فإذا به يُعربِدُ في صُدورِ العَربِ بعضِهم ضدّ بَعض.

وبَيني وبينَ نَفسي أتساءَلُ: هلّ سَجَّلَ تاريخُ العَربِ فعلاً، من بدايته إلى نِهايَته، مأساةً أكبرَ من هذه؟ هل عَرَفَ تَمزُّقاً وانحلالاً ومَوتاً للقِيَمِ يُماثِلُ هذا الذي نَشْهد؟

ونـــودع البحـــر المـــيت وتدور أنامل تتلمس الأخبار على مفاتيح الإذاعات، وتصخب في الرأس سيول من الشتائم تنصب من أكثر من محطة، وكلها يولد قشعريرة مريضة في الأجساد التي هدها الأحداث والذكريات.. هنا صوت يصرخ بالأعز الأعز مـــن الإخوة: اخرجوا من بلادنا، أنتم يا من استبيحت أعراضكم وأذلت كراماتكم.. وهـــناك صـــوت يسمي جيش سورية العربي بالجيش الغازي.. وهنالك آخر يقذف بـــشتائم تمتهن كلمات العروبة والتقدم والنضال الخ.. ووسط الدوي المؤذي للكلمات الجارحـــة يـــدور في رأســـنا بل في رؤوس المواطنين جميعاً سؤال وحيد: لماذا تستمر حمامـــات الـــدم؟ لماذا يقتل الإخوة الإخوة؟ لماذا يا لبنان كتب عليك أن تكون أرض المحنة ومقبرة الشهداء وساحة المؤامرة الكبرى؟

ويَقولُ شَخصٌ في السَّيَّارة: نَتخبَّطُ ونَحْزَنُ ونَيأسُ ولكنْ عبثاً نُحاولُ أن نَفهمَ.. مَعزولون نَحنُ عن مَسيرةِ الأحداث تُبَلْبِلُنا الشَّائعاتُ وتَقتلُنا الأخبارُ المُقلْقلةُ. خَبرٌ مُثيرٌ من هنا وآخرُ مَدسوسٌ من هناكَ، وُجهاتٌ لَها مَصالحُ في تأجيجِ الصِّراعِ، ودمٌ فائرٌ لا يَهدأ حتَّى يَسيلَ.

وتَقـــولُ طَبيـــبةٌ شَابَّةٌ: البَدهيَّةُ الَّتي لا يريدُ أحَدٌ أن يُدركها هي أنَّ **الهَزيمةَ مثلُ النَّصرِ حينَ يَكونُ الصِّراعُ بينَ الأشقَّاء**، والتَّنازلُ لا يَحملُ معنَى التَّنازُلِ، وتَراجعٌ من هـــنا وتَـــراجعٌ من هناكَ ليسَ شَيئاً مَهيناً، ليسَ هَزيمةً.. الهَزيمةُ هي استمرارُ المَعارك، واســـتمرارُ القَتلِ، والنَّصرُ كلُّ النَّصرِ في وقفِ هَذا كلِّه، وتَوكيدُ التَّلاحمِ التَّاريخيِّ بيننا وبينَ المُقاومةِ الفلسطينيَّة.

وأقـــولُ في نَفسي: المأساةُ الكَبيرةُ هي أنَّ المُواطنينَ خارجَ الصُّورةِ، خارجَ لعبةِ المَـــوتِ، تُـــصيبُهم ولكـــنَّهم لا يُسهمونَ في صُنْعِها، ويَدفعونَ بأبنائهم إليها دونَ أن يُدركـــوا أبعادَها ومَراميَها. إنَّهم لا يَستطيعونَ لَها فَهماً أو شَرحاً ويَقضونَ نَهاراتِهم ولَياليهم في ظَلامِ الحُزنِ والتَّساؤل.

إيه لُبنان!

نُناشدُ من أن يَنتَهي القِتالُ فيك؟

نُناشِدُ من أن يَحقُنَ الإخوةُ دمَ الإخوةِ على أرضِك؟

وبماذا نُناشدهُم؟

بشَرفِ العُروبة الذي صَارَ أُلهيةَ المتآمِرين والغاصِبينَ؟

برابِطَةِ الدَّمِ واللُّغةِ والإرثِ وكلِّ المقدَّسات؟

بتُـــرابِ الـــوَطنِ المُحتلِّ الذي ما زَالَ يَطعنُ على أرضِنا يَوماً بعدَ يَومٍ وتُطعَنُ ثَورتُه؟

لقـــد فُـــتِحتْ في لُبنانَ هُوَّةٌ سَقَطَ فيها العَربُ، ويَبقَى الأملُ مُعلّقاً على الذينَ نُـــريدهم أن يَفـــتحوا أعينَهم على الوَاقعِ.. أن يَنظُروا جيِّداً في مَواطِئِ أقدامِهم، وأن يَنتبِهوا قبلَ أن تَبتلِعَ الأرضُ الذينَ يَقفونَ عليها، هؤلاء الذين كَانَ يجبُ أن يَكُونوا في صفٍّ واحدٍ فإذا هم في صُفوفٍ مُتفرِّقة.

صَرخةٌ في وَادٍ، كلُّ هذا الّذي يُقال؟

ربّمـــا، فقد كادتْ تَموتُ الكَلماتُ وتتكسَّرُ الأقلامُ، ولم يبقَ في العيونِ سَوى الأسى، وسِوى بعضِ الرَّجاءِ.

١٩٧٦/٦/١٧

من كتاب «مفكرة الأيام»

ص (٥١٥-٥٢١)

جامعة دمشق Damascus University

• التعليق على النص:

عـــنوان المقالـــة «كلمـــات حزينة» وهي الكلمات التي كانت تسمعها خلال رحلـــتها إلى بعض الأماكن التي بدا فيها الحزن، فكان مشاركاً لمن يزوره، يرافق هذا الحـــزن ذكريات هي الأخرى حزينة، تذكّر القدس بعد ١٩٤٨، والأحلام البعيدة عن التحقق... ثم نكسة حزيران ١٩٦٧، ثم الحرب الأهلية في لبنان.

وبدا هذا الحزن في التشاؤم الذي ظهر في كثير من المواضع مثل قولها:

- أنسام البحر الميت الذي لم يعد لنا هَبّ...
- كم من الأنهار والجبال صار علينا أن نعبر.
- حزيران شهر أحزان حفر في ذاكرة العرب.
- بشرف العروبة الذي صار أُلهية المتآمرين والغاصبين.

جامعة دمشق Damascus University

• شيء من اللغة جميل:

تميزت الدكتورة نجاح العطار بأسلوب بليغ عذب، فيه من البديع والمحسنات ما جاء عفو الخاطر، وفيه الجزالة ما يجعلها تقارع الكثيرين من الأدباء...

اقرأ المقطع «وتنبجس...يحدّدوه» تجد ذلك صحيحاً.

واقرأ العبارات:

- وأتساءلُ والبحر الميّت يحبس أنفاسه وأنفاسنا.
- حزيران شهر أحزان حُفر في ذاكرة العرب..
- يتجه سلاحهم إلى صدورهم بشكل أو بآخر.
- كلّ خسارة تقع تسجّل رقم هزيمة لخطّ دفاعنا.
- نودّع البحر الميت وتدور أنامل تتلمّس الأخبار على مفاتيح الإذاعات.
- فقـــد كادت تموت الكلمات وتتكسّر الأقلام و لم يبقَ في العيون سوى الأسى وسوى بعض الرجاء.

جامعة دمشق Damascus University

﴿الأسئلة﴾

آ – في المعاني.

١- حدد الأفكار الرئيسية في المقالة.

٢- من صاحب الأبيات الشعرية التي ذكرتها الكاتبة في بداية مقالتها؟

٣- في الـــنص حركة بدت من خلال وصف الرحلة التي كانت فيها الكاتبة، أشر إلى الكلمات أو الجمل التي تدل على ذلك.

٤- في النص صور جميلة، استخرجها ثم ادرسها.

٥- كثر استعمال أسلوب الاستفهام فما دلالته؟!

٦- اكتب مقالة عنوانها الجملة التي وردت في النص:

«الهزيمة مثل النَّصر حين يكون الصراع بين الأشقاء»

ب – في النحو:

١- ورد في الـــنص المصطاف والمتربَّع: وهما اسما مكان من الفعل اصطاف وتربَّع، وورد في النص عدد من أسماء البلاد مثل سورية، لبنان، فلسطين.. وهذه أسماء مواضع، وورد في النص الكلمات التالية: أمام، تحت، هناك... وهذه ظروف مكان.

حـــاول التمييـــز بينها، ثم استخرج من النص عدداً آخر من الكلمات في هذه الأنواع الثلاثة. وتذكّر أن اسم المكان أو اسم الموضع يعرب بحسب موقعه في الجملة، أما الظرف فيحتاج إلى تعليق.

٢- أعرب المقطع التالي مفردات وجملاً:

«وتقول سيدة... لبنان».

٣- كثـــر في النص استعمال الحرف (أن) الناصب، وأنت تذكر أنه يشكّل مع ما بعـــده مصدراً مؤولاً يعرب بحسب موقعه في الجملة، اقرأ المقطع الأخير «لقد فتحت... الرجاء» ثم أعرب المصادر المؤولة فيه.

ج - علل:

١- كتابة الهمزة فيما يأتي:

يَملأُ - أتساءَلُ - لُؤْم - مشؤوم - التساؤل.

٢- عدم حذف الياء من كلمة (مآسي) في: كل مآسي العرب

د - القراءة:

اقرأ المقطع التالي: «ونودع... الكبرى»؟ ثم:

١- اضبط ما يحتاج إلى ضبط.

٢- عيِّن منه الممنوع من الصرف، واذكر سبب منعه.

٣- عيّن منه الممنوع من الصرف الذي صُرِفَ واذكر سبب صرفه.

جامعة دمشق Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الباب الثالث

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الأول

الدراسة التحليلية للمقالة

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الدراسة التحليلية للمقالة

لا يكفي الطالب أن يقرأ مادة نظرية في المقالة العربية، ولا يكفي أن يقرأ نماذج منها وإن كانت كثيرة، ربما تعلّم شيئاً من المادة، ومن المقالة وأنواعها، ورسخ في ذهنه شيءٌ أو أشياء من المعلومات النظرية التي يمكن أن تسعفه أو تعطيه بعضاً من المعرفة في هذا الفن من فنون النثر الأدبي، ويمكن أن يعلق في ذهنه جملٌ وتراكيب مما قرأه، وربما دوّن بعـــضه لجماله، وربما تأثر بواحد من الكتّاب، لكن هذا الحفظ لا يفيد بل ينسى مع مرور الأيام إذا لم يتأكد، وبقي عالقاً منه عدد من الكلمات قد يكون قصد هو إلى حفظها.

وهـــذا الكلام ينطبق على كل قارئ لا الطالب فحسب، أما الطالب فيجب أن يخـــتلف في قـــراءته عـــن غيره من القراء الذين يهوون القراءة ويستمتعون بها، فهو – إضافة إلى هذين الأمرين – يجب عليه أن يقرأ قراءة المتمعن المتأنّي المتبصّر في كل ما يقرؤه، فإذا كانت حاله تطلب الدراسة فإن هذا يلزمه الدراسة بعد القراءة، والدراسة تكـــون في الكلمة، والجملة، والأسلوب، والتعبير، بعد أن يحدِّد العناصر التي تضمنتها المقالة، والأفكار التي قامت عليها، لتكتمل الدراسة، وتزيد الفائدة.

مـــن هـــنا وجدنا أن يتعلم الطالب تحليل المقالة، وهو تحليل يمكن أن ينطبق في بعـــض جوانبه على كثير من أنواع الأدب حتى الشعر إذ تشترك أي دراسة بعدد من الآراء والأحكام والفقر.

وســـنحدد للطالب مراحل الدراسة للمقالة ثم نجري تحليلاً لمقالة واحدة ليستنير بها عند تحليله أي مقالة. وسيكون الكلام موسَّعاً فيه بعض الأفكار والمقدِّمات العامة،

وعلى الطالب أن يعتمد عليهما فإنهما علامات وإشارات مفيدةٌ في الدراسة.

* خطوات دراسة المقالة:

- المضمون:

١- قـــراءة المقالة قراءة متأنية مستوعبة، ولا تكون هذه القراءة من مرة واحدة بل تثنين وثلاث فأكثر.

٢- تحديد الفكرة الرئيسية للمقالة.

٣- الطـــريقة التي اتَّبعها المؤلف في الكتابة، والمقالة يجب أن تبدأ بفكرة عامة، أو خاطرة من الخواطر، ثم يقيم عليها بناء موضوعه، ثم التعليق والتفسير والشرح، وقد يضمّنها عدداً من الحقائق العلمية، أو الاستشهاد... وخاتمة تختصر أهم ما في المقالة.

٤- هل اتَّبع السَّرد، أو السؤال والحوار، أو الإنشاء؟

٥- هل كانت المقالة تجربة عقلية ووجدانية؟ وما الذي أراد الكاتب أن يقوله؟

٦- يجب إبراز: - أثر الثقافة.
- أثر التراث.
- شخصية الكاتب في جذبه القارئ.
- أثر المقالة في نفس القارئ.

٧- الـــرأي الشخصي، وقيمة المقالة، أي الحكم على ما قرأ القارئ سلباً أم إيجاباً، وهذا يعود إلى قراءة القارئ الواسعة والقدرة على الحكم، وما من شك في أنَّ الرأي الشخصي يختلف من إنسان إلى آخر لأنَّ لكل واحد ذوقاً.

- الأسلوب:

الأســـلوب عنـــصر أساسي من الصورة الفنية الظاهرة للمقالة. لذلك يجب أن

يُدرس على النحو التالي:

١- كيف عبَّر الكاتب؟

٢- ما الأسلوب الذي اعتمده وكتب به، هل جذب القارئ أم نفَّره؟

٣- اختيار الجمل وتنسيقها.

٤- تركيب الجملة، طولها وقصرها، التقديم والتأخير، محكمة، مفككة.

٥- إيقاع العبارة.

٦- مضمون العبارة، وهل اعتمد التنصيص والأقوال؟

٧- هـــل الأسلوب سهل أم صعب، جزل أم قوي أم ضعيف، واضح أم غامض، فصيح أم قريب إلى العامة، سطحي أم عميق؟

٨- هل كانت العبارة ملائمة للنص؟

٩- هل اعتمد المحسنات البديعية والبلاغة كثيراً؟

- اللغة:

هي المادة الأساسية التي يكتب بها الكاتب، وعليها الاعتماد في الكتابة، وتُدْرس من حيث:

١- السهولة والصعوبة.

٢- الجزالة والضعف والبساطة.

٣- التكلّف والعفوية، والبعد عن الزخرفة.

٤- قدمها، وحداثتها، الاشتقاق، المعرَّب، الدخيل، الأعجمي، الأجنبي، المهجور، الغريب...

٥- ملاءمة الألفاظ للموضوع (سياسي - اقتصادي...).

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨):

- ولد في بسكنتا/ لبنان، وفيها تعلّم دراساته الأولى.
- سافر إلى فلسطين ١٩٠٢ وانتسب إلى مدرسة المعلمين الروسية في الناصرة.
- ١٩٠٦ سافر إلى أوكرانيا/ الاتحاد السوفياتي ثم عاد إلى لبنان ١٩١١، ومنها إلى واشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية.
- درس الحقوق والآداب.
- كان أحد مؤسسي الرابطة القلميّة في نيويورك.
- نال عدداً من الجوائز والشهادات منها الدكتوراه الفخرية من واشنطن.
- يُعدُّ من أشهر أدباء لبنان والعرب في القرن العشرين، كتب في النقد كثيراً وبه اشتهر أكثر من غيره في الفنون الأدبية الأخرى.
- له مقالات كثيرة، وأبحاث متعدّدة، نُشرت في كتب.
- له عدد كبير من المؤلفات أشهرها: الغربال — سبعون — دروب — جبران — كرم على درب — اليوم الأخير... وغيرها.

الشرف الرفيع

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الشرف الرفيع

ميخائيل نعيمة

من أبياتِ المتنبّي الّتي يردِّدها النَّاسُ بمنتهى الإعجابِ بيتُه المَشهورُ:

لا يسلمُ الشَّرفُ الرَّفيعُ من الأذى — حتَّى يُراقَ على جَوانِبِه الدَّمُ

وإنِّي لأسألُ المُعجَبينَ بهذا البَيتِ عن «الشَّرفِ الرَّفيعِ» ما هو؟ ومن أينَ يأتيهِ الأذى؟

وكيفَ يَسلمُ من الأذى إذا أريقَ الدَّمُ «على جَوانبه»؟

ودمُ من ذلك الذي يجبُ أن يُراقَ: أهو دَمُ الذي آذى الشَّرف؟ أم دمُ الذي أوذيَ في شَرَفه؟ أم دمُ الاثنينِ مَعاً؟

وهل هُنالكَ أنواعٌ من الشَّرفِ: فشرفٌ رَفيعٌ. وشَرفٌ وَضيعٌ. وشَرفٌ لا هو بالرَّفيعِ ولا بالوَضيعِ، ولكنَّه بين بين؟

وهل الشَّرفُ الرَّفيعُ هو وَحدَه الذي لا تُغسَلُ الإساءةُ إليه بغيرِ الدَّمِ؟ أمَّا ما دُونَه من أنواعِ الشَّرفِ فيَكفي لغَسلِه لطمةٌ أو شَتمةٌ، أو قليلٌ منَ الوَحلِ أو البُصاقِ؟

ما أظنُّ أنَّ في اللُّغة – في أيَّةِ لُغةٍ – كلمةً شَريفةً يَمتَهنُها النَّاسُ امتهانَهم لكلمةِ «الشَّرف». فهم أبداً يشرِّفونَ ويتشرَّفون في كلِّ ما يَفعلونَ ويَقولونَ. حتَّى كأنَّما الشَّرفُ لُقاحٌ عالِقٌ بثِيابِهم يَنثُرونَهُ يَميناً وشِمالاً، أو نَفَسٌ يَقذِفونَه من صُدورِهم، أو نَظرةٌ يُلقُونَها من زَوايا عُيونِهم، أو لمسةٌ خَفيفةٌ من أنامِلِهم، أو كَلمةٌ

سَخيفةٌ تَترلقُ عن ألسنتهِم.

يَتعارفُ اثنانِ فيَقولُ واحدُهما للآخرِ: **تشرَّفنا**. ويقدِّم رَجلٌ إلى رَجلٍ لفافةً فيَقولُ لَه: **شرِّف!** ويَزورُ قَومٌ قَوماً فيَقولُ أهلُ البَيتِ للزَّائرينَ عندَ انصرافِهم: **شرَّفتم!** فيُجيبهم الزَّائرونَ: **تشرَّفنا! والطَّريفُ الطَّريفُ أن تَسمعَ النَّاسَ يُقسِمونَ بشرَفهم كما لو كانَ ذلكَ الشَّرفُ أطهَرَ من الثَّلجِ، وأسطعَ من نورِ الشَّمسِ، وأعزَّ على قُلوبِهم من قُلوبِهم، وأبعدَ أثراً في حَياتِهم من حَياتِهم.. فكأنَّه والعزَّةَ الإلهيَّةَ في مَرتبةٍ واحدةٍ من حيثُ القيمةُ والأهمِّيَّةُ.**

«**بشَرفي!**» تَسمعُها من الكِبارِ والصِّغارِ، والعُقلاءِ والجُهلاءِ، والأغنياءِ والفُقراءِ كلَّما اشتَدَّتْ بهم الرَّغبةُ في إقناعِ غيرِهم بصدقِ ما يدَّعون. يقولُها اللِّصُّ للِّصِّ إذا اختَلفا على اقتِسامِ غَنيمةٍ. وتَقولُها المُومسُ للمُومسِ إذا تَعاتَبتا في أمرٍ من الأمورِ. يَقولُها الحشَّاشُ للحشَّاشِ، والسِّكِّيرُ للسِّكِّيرِ، والبَائعُ للشَّاري، والحُوذيُّ للرَّاكبِ، والنَّائبُ للنَّاخبِ، وصَبيٌّ يَلعبُ بالأكَر لرَفيقٍ لَه في اللَّعبِ، يَقولُها الكُلُّ بغيرِ استِثناءٍ، وكَثيراً **ما يَكونُ قائلُها أكذبَ من كَذَبَ، وأسرَقَ من سَرقَ، وأفسَقَ من فَسَق**. وقد يَتَّفقُ أن يَكونَ جَلَّاداً في جبَّةِ قاضٍ، وقاطعَ طُرُقٍ في مَنصِبِ وَزيرٍ، وشَيطاناً يعتمرُ قلنسوةً أو عِمامةً!

وما قَولُكَ بالَّذينَ يَسكرونَ حتَّى الجُنونِ إذا هُم «تشرَّفوا» بالمُثولِ لَدى ذي مُقامٍ رَفيعٍ، أو «بلَثمِ الأناملِ الطَّاهرةِ» لَملكٍ من المُلوكِ أو سُلطانٍ من السَّلاطينِ؟ أو إذا هُم نالُوا لَقَباً أو وِساماً؟ أو إذا عَزَّاهم «كَبيرٌ» بمَفقودٍ أو هنَّأهم «عَظيمٌ» بمَولودٍ؟

ثمَّ ما قَولُكَ بالَّذينَ **شَرَفُهم لا يَستقرُّ على حَالٍ بل يَتبدَّلُ بتَبدُّلِ الزَّمانِ والمكانِ**، فكأنَّهُ «يَلْبَسُ لكلِّ حالة لَبوسَها»؟ فشَرَفُهم في النَّهارِ غيرُ شَرفِهم في اللَّيلِ، وفي السُّوقِ غيرُه في البَيتِ، وفي المَعبدِ غيرُه في المَقهى، ومع من هم فَوقَهم غيرُ ما هو مع الذينَ دُونَهم. وشَرفُهم إذا بَاعُوا غيرُ شَرفِهم إذا اشتَروا، وإذا اغتَنَوا غيرُ شَرفِهم إذا افتَقَروا.

لَعمـــري إنَّ مـــا يَـــتداوَلُه النَّاسُ باسمِ الشَّرفِ لشَرفٌ زائفٌ بل هو نقيضُ الشَّرفِ على خَطٍّ مُستقيمٍ. وذلكَ لأنَّه شَرفٌ يَخلعُه النَّاسُ على النَّاسِ ويَنتزعُه النَّاسُ عـــن النَّاسِ. والنَّاسُ كما تَعلم، يُمارُونَ ويُداجُونَ، ويَتملَّقونَ ويتزلَّفونَ، ويَتحاسَدونَ ويَتباغَـــضونَ، وعلى مَودَّةٍ أو عَداوةٍ لا يَثبتونَ. فلا عَجبَ أن يَنزِعوا اليَومَ عن إنسانٍ شَرفاً خَلعوه عليه أمسِ، أو أن يَخلعوا في هذه الساعة على إنسان شرفاً نَزعُوه عنه قَبلَ سَـــاعةٍ. بل العَجبُ كلُّ العَجبِ في أنْ يَتمسَّكَ واحدُهم بما خَلعُوه عليه من «شَرفٍ» فيَمضي يُباهِي به، ويَستميتُ في الدِّفاعِ عنه حتَّى ضدَّ الذينَ خَلعوه عليه.

والأعجبُ من ذلكَ أن تَرى النَّاسَ قَد خَلعوا على كلِّ مِهنةٍ أو حِرفةٍ شَرفاً. فـــشَرفٌ للقَـــضاءِ، وشَرفٌ للطِّبِّ، وشَرفٌ للمُحاماة، وشَرفٌ للبَحريَّةِ، وشَرفٌ للجُـــنديَّةِ، وشَـــرفٌ للمُلاكمةِ والمُصارَعةِ، وشَرفٌ للتَّعليمِ، إلى آخرِ ما هُنالكَ من مِهَـــنٍ وحِـــرفٍ. وكلُّ ذي مِهنةٍ يُمسِي مُطالباً بشَرفينِ، شَرفِه الخاصِّ وشَرفِ مِهنَتِه. ولِلـــنَّاسِ في الـــدِّفاعِ عن شَرفِهِم من غَريبِ الأساليبِ وعَجيبِها ما يُضحِكُ ويُبكِي. فالـــذي يَخونُه زِندُه لا تَخونُه عَصاهُ. والذي تَخونُه عَصاهُ لا يَخونُه لِسانُه. والذي لا يَكفِـــيه لِـــسانُه يَستجيرُ بالقَضاءِ. والذي لا يَشفي القَضاءُ غَليلَه يَحتكمُ إلى المُديةِ أو المُسدَّسِ. حتَّى إذا ما طَمرَ خَصمَه بالأقذارِ، أو أشبعَه لَكماً وضَرباً، أو أثْخنَه جِراحاً، أو أكـــرَهه بواسِطةِ القَاضي على دَفعِ تَرضيةٍ لَه عن شَرَفِه المَثلومِ، عادَ إلى بَيتِه وذَويهِ مَرفوعَ الرَّأسِ، ضَاحِكَ العَينِ، مُنبسطَ الأساريرِ وكأنَّه يَقولُ: «أرأيتُم كيفَ استَعدْتُ شَرفي سَليماً من الأذَى، طَاهِراً من الأقذارِ؟».

إنَّ شَـــرفاً يُعطِـــيكه لِـــسانٌ ويَنتزعُه منكَ لِسانٌ لشَرفٌ أقلُّ ما يُقالُ فيه إنَّه ألعوبةُ الأقدارِ، وذَرَّةٌ من هَباءٍ في الهَواءِ. وشَرفُ ذلكَ شأنُه لَيسَ حَقيقاً بأنْ تُبذلَ في سَبيلِه كلمةٌ أو حَركةٌ. فكيفَ بأنهارِ الدِّماءِ تُراقُ «على جَوانبِه»؟

مـــا عَرفتُ رَجلاً صَادِقاً جَعلَه كَلامُ النَّاسِ كَذوباً ولا كَذوباً استَطاعتْ ألسنةُ

النَّاسِ أن تَجعلَ منه رَجلاً صَادقاً. فما أسخفَ الصَّادقَ يمتَشقُ سَيفاً في وَجهِ من اتَّهمَه بالكَذبِ، أو يَلجأ إلى القَضاءِ ليُبرهنَ للنَّاسِ أنَّه صَادقٌ! وما أحمَقَ الكَذوبَ يُحاولُ أن يُثبتَ بالشَّتائمِ، وبالوَعيدِ والتَّهديدِ، أنَّه رَجلٌ صَادقٌ! فالزَّمانُ للاثنينِ بالمِرصادِ. وهو الشَّاهدُ الوَحيدُ الذي لا تَخدَعُه دِعايةٌ، ولا يَصرفُه عن الحَقِّ أيُّ تَهويلٍ. ثمَّ ما أجهلَ النَّاسَ يَتقاتَلونَ ويَتباغَضونَ ويَتناحَرونَ في سَبيلِ ما يتَوَهَّمُونَهُ شَرفاً وما هوَ من الشَّرفِ بَحَمْرٍ أو بِخَلٍّ. وحَسْبُه زِيفاً أن يَكونَ هِبةً من النَّاسِ إلى النَّاسِ. إذ كَيفَ للنَّاسِ، وهم حيثُ هم من الضَّعفِ والجَهلِ وتَضَعْضُعِ الأفكارِ والنِّيَّاتِ، وتَضاربِ الآراءِ والشَّهواتِ، أن يشرِّفَ واحدُهم الآخرَ؟

إنَّما يشرِّفُ الإنسانُ مَنْ كانَ فوقَ الإنسانِ. أمَّا الإنسانُ فليسَ لَه أن يشرِّفَ أخاهُ الإنسانَ. وكيفَ للإنسانِ الذي ما صَفا بَعدُ من أدرانِ شَهواتِه الأرضيَّةِ أن يشرِّفَ إنساناً مثلَه؟ كيفَ للذُّبالةِ التي لَيستْ نُوراً صَافياً أن تُشرِّفَ ذُبالةً أخرَى إذا هي أعطَتها من نُورِها، ونُورُها ليسَ منها بل من الشَّمسِ؟ إنَّما تشرِّفُ الذُّبالةُ إذ تعطيها من نُورِها. فشرفُ الذُّبالةِ ليسَ في أنَّها ذُبالةٌ، بل في أنَّها تَحملُ قِسطاً، مهما يكن ضَئيلاً، من نورِ الشَّمسِ لا تَستطيعُ أن تبدِّدَ به بَعضاً من الظُّلمةِ الَّتي حوالِيها.

أنقولُ إذن: إنَّ الشَّرفَ اسمٌ لغيرِ مُسمًّى؟

لا، لعَمري. بل هُنالكَ الشَّرفُ الرَّفيعُ الذي لا يَعلوهُ شَرفٌ والذي لا يَمتُّ بصلةٍ إلى مجْدٍ أو ثَروةٍ أو جاهٍ أو أيِّ مَنصبٍ مَدنيٍّ أو عَسكَريٍّ أو دِينيٍّ. وهو واحدٌ لا يَتجزَّأ ولا يَتغيَّرُ ولا يَتبدَّلُ. ولأنَّه شَرفٌ لا يَخلعُه إنسانٌ على إنسانٍ، فلا يَستَطيعُ إنسانٌ أن ينتَزِعه من إنسانٍ. وأعني به **شَرفَ الألوهيَّةِ** الذي مَهَرتْ به الحَياةُ قلبَ الإنسانِ فبَات، عن وَعيٍ وعن غيرِ وَعيٍ، يَسعى بكلِّ ما أوتيهِ من قِوىً لا تُحَدُّ للتَّمتُّعِ به كَاملاً، صَافياً، أبديًّا.

ذلكَ هو الشَّرفُ الرَّفيعُ الذي يَحقُّ للإنسانِ أن يعتَزَّ به، وأن يُدافِعَ عنه،

وأن يَصونَه من كلِّ أذىً. والاعتزازُ به لا يَكونُ بالتَّبجُّحِ والاعتدادِ بالنَّفسِ:

الخَـيلُ واللَّـيلُ والبَـيداءُ تَعرفُني والسَّيفُ والرُّمحُ والقرطاسُ والقَلمُ

بل بإنكارِ الذّاتِ البَشريَّةِ الفَانيةِ طَمَعاً بالوُصولِ إلى الذّاتِ الإلهيَّةِ الّتي لا تَعرفُ الفَـناءَ. والـدِّفاعُ عـنه لا يَكونُ «بتضريبِ أعناقِ المُلوكِ»، بل «بتضريبِ أعناقِ» الشَّهواتِ السُّودِ في القَلبِ الذي تَحجبُه عن البَصرِ والبَصيرةِ. وصَونُه من الأذَى لا يتمُّ لـنا بإراقةِ دماءِ الغَيرِ «على جَوانبِه» بل بإراقةِ دَمِ القَلبِ في دَفعِ الأذَى الذي يأتيه من دَاخلِ القَلبِ لا من خارجِه. فما أبعَدَه عن ذلكَ الشَّرف «الدون كيخوتي» الذي عناه صاحبُنا المتنبِّي في بيتِه المَشهورِ!

ألا لَـيتَ المَتنبِّـي والذين ما بَرَحوا يُردِّدونَ بيتَه بالإعجابِ فَهِمَ ويَفهَمونَ أنَّ **«الشرفَ الرَّفيعَ» لا يُؤذي من النَّاسِ بل من قَلبِ صَاحبِه.** وأنَّه لا يُغْسَلُ من أدرانِه بـدِماءِ الغَـيرِ بل بدمِ القَلبِ الذي يُؤويه ويَحسُّه ويَحيا به. وأنَّه لا يُؤذى لأنَّه شَرفٌ صَحيحٌ وشَرفٌ رَفيعٌ.

دروب

ص (٥٤-٥٩)

❖ ❖

❖

• الأفكار الرئيسية:

١- بدأ الكاتب مقالته ببيت المتنبي الذي يردده الناس لشدَّة إعجابهم به.

ثم يبدي إعجابه به هو بصيغة السؤال: ما هو الشرف الرفيع؟ ومن أين يأتيه الأذى؟

وسؤال آخر فيه سخرية «هل هنالك أنواع من الشرف فشرفٌ رفيعٌ، وشرفٌ وَضيع...».

٢- يرى الكاتب أنّ كلمة «الشرف» هي أكثر الكلمات امتهاناً لدى الناس، ثم يعرض لحالات التقاء الناس بكلمة «شرّفنا» «تشرفنا» ثم استعمال الجميع كلمة «بشرفي» ثم تبدُّل الناس في مواقفهم التي تقتضي كلمة «شرفهم».

٣- إضافة كلمة «شرف» إلى كثير من المِهن، مثل: شرف القضاء، وشرف الطبّ، وشرف المحاماة، وشرف التعليم... الخ.

٤- الصدق الواجب أن يتحلّى به الإنسان.

٥- إنّ من يشرّف الإنسان هو مَنْ فوق الإنسان وليس أخاه الإنسان.

٦- الشرف الرفيع الذي لا يعلوه شرف هو شرف الألوهية وهو الشرف الذي يجب على الإنسان أن يعتزَّ به.. بإنكار الذات البشرية الفانية.

٧- الشرف الرفيع لا يؤذيه أحد بل صاحبه هو الذي يؤذيه.

• الطريقة التي اتبعها الكاتب:

أتبع الكاتب طريقة عرض النصّ بدءاً ببيت من الشعر للمتنبي، وعلّق عليه، وعرضَ لما يعتقده الناس شرفاً رفيعاً وهو ليس كذلك، فكان واجباً أن يستعمل السخرية.

١- وهذا بادٍ في المقطع الثاني «يتعارف اثنان...».

٢- اعـــتمد طـــريقة الحوار الداخلي، فكأنّ أمامه إنساناً يحاوره فطرح عدداً من الأسئلة التي إجاباتها فيها متضمنة، مثل:

- إني لأسأل... ما هو؟
- من أين يأتيه الأذى؟
- دم من ذلك...؟
- وكيف يسلم...؟

وكثـــرت الأسئلة في معظم النص وتنوَّعت تنوُّعَ أدواتِ الاستفهام. وكأنه أراد أن يجـــيب عـــن تلك الأسئلة مرة أخرى، وبدأ هذه الإجابات بقول: «لعمري إن... مستقيم».

٣- برزت وجهة نظر الكاتب في خلال إبداء بعض الجمل التي اقتربت من الحكم والأمثال قليلاً مثل:

- إنَّما يشرف الإنسان من كان فوق الإنسان.
- هو واحد لا يتجزَّأ ولا يتغيَّر ولا يتبدَّل.
- الشرف الرفيع لا يؤذى من الناس بل من قبل صاحبه...

*** تجربة عقلية وجدانية:**

مـــا من شك في أنّ ما كتبه ميخائيل نعيمة هو من تجربته الشخصية، واطلاعه علـــى المجتمع اطلاع المثقف القادر على نقل الصورة التي يراها أمامه، صورة مجتمع فيه مـــن الكذب والنفاق والزيف ما فيه، ويحاول أن يمحوها من عقول الناس، أو يصحح الصورة المشوَّهة، فالمجتمع كلّه الكبير والصغير، والعاقل والجاهل، والغني والفقير، وكلّ من يعمل في أي مكان، يقسم بشرفه عندما يريد أن يصدّقه الآخرون.

لكنّ الكثيرين يكذبون بل يكون قائلها كلمة الشرف أكذب من كَذب... إنه يقرأ في عيون المجتمع، ويرى أنه الشرف الزائف، لأنّ الناس هم الذين يخلعونه بعضهم

علـــى بعض، أو ينْزعونه، فهو «ألعوبة الأقدار، وذرّة من هباء في الهواء». ويقول: إنما يشرف الإنسان من كان فوق الإنسان، وكأنه يريد أن يصل إلى النتيجة التي يرضاها، ويقبل بها الآخرون، فالشرف الحقيقي الرفيع هو شرف الألوهية الأبدي الذي يعتزُّ به الإنسان.

*** الثقافة:**

يعـــدُّ ميخائيل نعيمة من الأدباء الكبار الذين ثُقّفوا غير ثقافة، وغير لغة، فكل أديـــب مثقف، وإلا لما دعي أديباً، ويظهر هذا في مؤلفاته الكثيرة الغنية التي تدلّل على هذه الثقافة المتنوعة، أما ثقافته في هذا النص فهي في عرضه للقارئ هذا العرض الجميل الجذّاب بلغته وأسلوبه اللذين يشدّان القارئ.

*** الرأي الشخصي:**

يخـــتلف الرأي الشخصي من إنسان إلى آخر لأنّ لكل واحدٍ منّا ذوقاً، فالرأي ذوق فـــنيٌّ أو أدبيٌّ، ولكـــن ثمّـــة موضوعات يتّفق فيها معظم الناس أو يكادون، مثل موضوعات الأخلاق الحميدة وإصلاح المجتمع، والصدق في المعاملة، وما يشبهها. فمن غـــير المعقول ألاّ يتفق الناس أو أن تتفق أذواقهم في أنّ الشرف الرفيع هو الذي يحافظ على شرف الإنسان وأخلاقه، والبعيد عن الكذب والنِّفاق، لذلك فإنّ كلّ قارئ يؤيد بل يجب أن يؤيد فكرة النص، وما جاء فيه من آراء.

*** الأسلوب:**

- استطاع ميخائيل نعيمة أن يجذب القارئ إلى نصّه حين طرح فكرة المقالة من بيت المتنبي.
- ثم أتبعه عدداً من الأسئلة، بعدد من أدوات الاستفهام (ما – من أين – كيف – مَنْ – أهو – أم – هل) وهذه الأسئلة تجعل القارئ ينتظر الإجابات عنها، فيبقى القارئ في انتظار تلك الإجابات فيسير مع الكاتب.

- يبقـــى الكاتب على صلة مع القارئ في الأسطر القادمة، وتراه لا يقطع صلته بالنص حتى السطر الأخير منه.
- بدا هذا واضحاً في خلال الحوار الذي ورد في النص مرّتين.
- كان لاستعمال حروف العطف دورٌ كبيرٌ في إبقاء القارئ على صلته بالنص، فكثـــرت حـــروف العطف بين الجمل حتى إنه شَغلَ مقطعاً كاملاً في بعض الأحيان، لم يكن القارئ يملّ من قراءته.
- شُدَّ القارئ أيضاً في بعض الأمثلة التي استُشهد بها من محيطه.
- انتظر القارئ إلى نهاية النص ليعرف ما رأي نعيمة فيما كتب. أي أن الكاتب استطاع أن يجذب القارئ من العنوان إلى الكلمة الأخيرة.
- العـــنوان الصريح «الشرف الرفيع» أخذه من بيت المتنبي ودارت عليه المقالة كلّها، ولم يبتعد عنه. أو لم يستطرد إلى موضوع آخر.
- كـــل هـــذا بأســـلوب سهل واضح فصيح اقترب أحياناً من العامّة في بعض الألفاظ والجمل التي يعرفها الجميع.

*** الجمل:**

١- هـــذا النص كأي نص آخر فيه نوعا الجملة الرئيسيتان الاسمية والفعلية، حتى إنك تلحظ أنّ ثمّة مقاطعَ كاملةً فيها نوعٌ واحدٌ من النوعين.

اقـــرأ المقطع التالي «إنّما يشرف... حواليها» تجد أنّ معظم الجمل اسمية تخلّلها بعضُ الجمل الفعلية التي كانت متمّمة للجملة الاسمية. فكانت خبراً للمبتدأ أو الناسخ (إنّ وكان وكاد وظن وأخواتها).

وإذا قرأت المقطع التالي «لا لعمري...» تجد أن الغالب عليه الجملة الفعلية.

٢- غلب على النصّ الجمل القصيرة أكثر من الجمل الطويلة، لكن ما كان واضحاً هو أنّ ثمّة جملاً كثيرة طالت لاستعمال حروف العطف فيما بين كلماتها، وإن

كان العطف بكلمتين اثنتين عدداً من المرات مثل:

وتقولها المومس للمومس، ويقولها الحشاش للحشاش، والسكير للسكير، والبائع للشاري، والحوذي للراكب، والنائب للناخب..

ومـــثله: فـــشرفٌ للقضاء، وشرفٌ للطبِّ، وشرفٌ للمحاماة وشرفٌ للبحريَّة، وشرفٌ للجندية، وشرفٌ للملاكمة، وشرفٌ للمصارعة، وشرفٌ للتعليم...

وقـــد أضاف هذا العطف جمالاً للتعبير، فهو قد قسَّم الكلام وكأنه تفعيلات في بيت من الشعر، فأعطى بعض الإيقاع الجميل.

٣- أجـــاد الكاتب في اختيار جملة وتنسيقها مرتبة، وكان العطف بعضاً من هذا التنسيق، فكأنك أمام سلسلة تتصل الواحدة بالأخرى، فهي تنقل القارئ من جملة إلى ثانية لها انتقالاً سلساً جميلاً حتى نهاية النص.

وبـــدا مثل هذا في طرح الأسئلة التي أكثر منها في مقدمة المقالة. وزاد من هذه الدقة الحوارُ الذي أقامه بينه وبين نفسه يخاطب به القارئ الذي اختاره لنفسه محاوراً أو صديقاً.

٤- لم يسر الكاتب بعبارة واحدة على نمط واحد، بل غيَّر من أسلوبه، فمرَّة يقدِّم شـــبه الجملـــة، ومـــرة الفعل، ومرة كلمة مفردة، والقصد من هذا - أينما ورد - هو الاهتمام والعناية بما يقدَّم:

آ - فقد بدأ مقالته بحرف الجر (من) الذي لا يعرف ما يراد منه إلاَّ في آخر الجملة. (من أبيات المتنبي...).

ب - أورد كلمـــة «بشرفي» التي نسمعها... وهي كلمة من المستعمل عند الجميع العامة والخاصة.

ج - أكثر من صيغة السؤال وفي السؤال تقدم الأداة لأنَّ لها حقّ الصدارة.

د - استعمل القسم الممزوج بالعجب، لعمري... لا لعمري.

٥- أحكـــم الكاتب نُعيمة جمله إحكاماً بدا من قوّتها ودقّتها ورَبْط بعضها ببعض، ســـواءٌ في الكلمـــة الواحدة، أم بحرف العطف، و لم نشعر أنّ الجمل ضعيفة مفككة، وهذا دليل قوة أسلوبه وقدرته على إحكام نصّه أو ما يكتبه إحكاماً جيداً.

٦- ورد في النص بعض الجمل أو الكلمات التي استعارها أو أخذها من الآخرين، لكنّ هذا ليس من التنصيص الذي يستشهد به الأدباء والكتّاب كاستشهادهم بالقرآن الكريم أو الحديث النبويّ الشّريف أو أقوال الأدباء والعلماء والمفكرين بـــل إنّ ما أورده من تنصيص كان بيتي المتنبي، الأول الذي أقام عليه مقالته، ولـــولاه لمـــا كان ما كتبه، والثاني الذي سخر فيه من الناس الذين يتبجحون ويقيّدون بنفسهم فيرددون بيت المتنبي:

الخَـــيلُ واللّـــيلُ والبَـــيداءُ تَعرفُني والسَّيفُ والرُّمحُ والقرطاسُ والقَلمُ

أمّا بقية الكلمات وهي ما وضعت بين علامتي تنصيص « ». فهي قليلة جداً، بعـــضها أعـــيد ذكره من بيت المتنبي، وبعضها أراد الوقوف عليه والتعليق وربما كان تعليقه ساخراً، مثل كلمة «بشرفي» و«تشرّفوا» و«كبير» و«عظيم» وغيرها إضافة إلى جمـــل قليلة استعارها مثل «يلبس لكل حالة لبوسها» و«بتضريب الأعناق» وشرف «الـــدون كيخوتي»... أي أنّ كل ما ورد لا يعدّ كثيراً، بل ليس بذي بال، ما دامت معظم الكلمات تدور في عنوان المقالة، وهذا يدلّل على قدرة الكاتب في معجمه وعدم الأخـــذ من الآخرين، والاكتفاء بما عنده من مفردات وجمل، وليس ذاك بضعيف، ولا هذا.

*** البلاغة والبيان:**

يتفاوت أسلوب الكاتب، وكذا يتفاوت استعماله المحسنات البديعية أو البلاغية، فيكثـــر في الموضـــوع الـــذي يعتمد الوصف أو الرحلة... ويقلّ في موضوعات العلم

والفلسفة وغيرها...

إنَّ ثمّة كتاباً يتكلّفون في استعمال المحسنات البديعية فيضعف النصّ، ويقلّل من شأنه ظناً من الكاتب أنّ جمال النصّ يكون في كثرة الصُّورِ والتَّشابيهِ والجناسِ والطِّباقِ وغيرهـــا مـــن المحسنات البديعية، لكنَّ هذا ينطبقُ عليه القول «كل ما زاد على حدّه انقلب إلى ضدِّه» والنَّص ذو اللغة المعبِّرة لا يحتاج إلى مثل هذا.

وثمّـــة من يكتب بلا محسنات إلا ما جاء عفو الخاطر، فتزيد هذه المحسنات من جمال النص جمالاً، وتعطيه رونقاً جَميلاً يضاف إلى رونق اللغة وجمالها.

والـــنص الذي بين أيدينا نص تأمُّلي، وصاحبه ذو ثقافة غنية لا يحتاج معها إلى المحـــسنات أو الأساليب البلاغية كالتشبيه والاستعارة إلا قليلاً وردَ في ثنايا النصِّ، فقد ورد عـــدد منها لكنَّ الملاحظ أن لا تكلُّف فيها، بل جاءت متناسقة مع النص، معبِّرة كما الجمل والتراكيب، من هذا:

- «كأنما الشرف الرفيع لقاح عالق بثيابهم ينثرونه يميناً وشمالاً».
- «الشرف ألعوبة الأقدار».
- الـــشرف أطهر من الثلج»... أعطى صفة الطهارة للشرف وهي ملازمة - في الأصل لَه - وشبهها بنصاعته بالثلج، بل جعلها أكثر نصاعة وطهارة منه.

*** اللغة = الألفاظ:**

آ - السهولة والصعوبة:

غلب على النص اللغة السهلة الواضحة المعبّرة التي يستطيع فهمها كلّ قارئ إلاّ بعض الكلمات القليلة جداً، وقد استعملها الكاتب ظناً منه أن القارئ سيعرف معناها، وربما من طبع الكتاب لم يثبت حواشي لشرح هذه المفردات، وأظنّ أنّ من عنده ثقافة لغـــوية لا بأس بها يعرفها، لكن كثيراً من الطلاب يحتاج إلى معجم لغوي لمعرفة معاني

هـــذه الألفـــاظ، ومنها: المومس (المرأة السيئة .....) الحوذي (سائق العربة).. وقد يعـــرف معـــناها القـــارئ من الكلمة التي تليها: الأكر - قلنسوة (لا يعرف معناها بالتحديد) يمارون - يداجون - يتملّقون - المدية - يمتشق - أدران...

بـــل إن بعض الألفاظ جاء قريباً من لفظ العامة، أو ما يُظنُّ أنه من لفظ العامة مثل: لطمة - شتمة - الوحل - البصاق - تشرَّفنا - بشرفي - الحشاش - السكير - السوق - لكماً...

ب - الجزالة والضعف والبساطة:

لكـــل موضـــوع ألفاظ تناسبه أيضاً من حيث الجزالة والبساطة وإلاّ ما لاءمت النصّ، أو ما خدمته، وقد امتزجت الألفاظ بنوعَيها في هذا النص حتى الجملة الواحدة، فاستعمل الكاتب الألفاظ الجزلة، ويُقصد بالجزالة قوة الكلمة لا صعوبتها، وصلابتها، لا ســـهولتها، يشعر فيها القارئ أمام حدثٍ قاسٍ صعب فيرتفع صوت القارئ أو نبرة صـــوته لا شـــعورياً عـــند قراءتها، وكأنه يريد أن يعبِّر عمَّا أراده الكاتب، ومن هذه الألفاظ:

الإســـاءة - لطمة - شتمة - الوحل - البُصاق - يقذفونه - جلاّد - يخلعه - يتملّقون - يتزلّفون - يستميت - يستجير - لكماً - ضرباً - أثخنه جراحاً - المثلوم - تضعضع...

وهـــذه الألفاظ جاءت في مكانها الصحيح فدلّت على مواضعَ تجب فيها الجزالة والقوة.

وقابـــلَ هذه الألفاظَ سهولةٌ في اللّفظِ وبساطةٌ في معظمِ ألفاظ النَّصِّ، لأنها كما تقـــدّم تخاطـــب العامّة من الناس لا الخاصة، والكل يعرف معانيها، ومن غير المنطقي إحصاء هذه الكلمات، يكفي أن نقرأ النصّ مجرَّداً من الألفاظ الجزلة، بل إنك تشعر أنّ النصّ يمور بمثل هذه الألفاظ، وأنّ ما ذُكرَ من جزالة يذوب في بقية الألفاظ!!!.

ج – قدمها وحداثتها:

قد يكون لكل كاتب معجم خاص به، يعود به إلى العصور القديمة أو يكون من عصره الذي يعيش فيه، هذا إذا اعترفنا أنّ هناك معجَمين اثنين، ونقصد بالمعجم القديم اللفظ القديم الذي لَه مرادفٌ معاصرٌ، لكنَّ بعض الكتَّابِ يحرص على التَّشبُّث باللفظ القديم ظنّاً منه أنّه أكثر بلاغة وفصاحة ممَّن يكتب بلغة العصر، لكنَّ هذا غير صحيح، فنحن في هذا العصر لسنا بحاجة إلى معجم يحمله القارئ، بل نطلب سرعة الوصول إلى المعنى، وهذا يتطلب من الكاتب أن يخاطب قارئه بلغة سهلة واضحة قريبة من مجتمعه وعقله، وهذه اللغة لا تكون إلاّ معاصرة ولغتنا – كما نعلم – قادرة على أن تعبِّر في كل الموضوعات، فإذا ما كان من لفظ مُحْدَث فلا شيء يمنع من استعماله، وكذا اللفظ الأعجمي أو الأجنبي أو الدخيل إذا لم يكن لَه مرادف في العربية.

والنص – معظمُه – نصٌّ كُتِب بلغة معاصرة حديثة ما خلا بعض الألفاظ التي وردت شرحاً أو توضيحاً لبيت المتنبي، وهذا طبيعي ما دام المتنبي من شعراء العصر العباسي، أي أنه يعود إلى أكثر من ألف عام.

د – ملاءمتها للنص:

إنّ كل ما تقدم من كلام على ألفاظ النص يجعلنا نؤكد أنّ الألفاظ تلائم النص وتناسبه، ولم يبتعد بها الكاتب عن المضمون والأفكار الرئيسية والجزئية، لقد استطاع أن يدوِّر لفظ (الشرف) بين فئات المجتمع وأفراده، وجعلها أساساً لكل ما كتب، وكان لأسلوبه في جمله وتعابيره دورٌ في جعلها أكثر ملاءمة.

هـ – جوانب لغوية:

نستطيع أن نضيف إلى ما تقدَّمَ من خصائص في اللفظ شيئاً من الخصائص برزت في النص أهمها:

- الأضداد:

يقـــال «الضد يظهر حُسنَه الضدُّ» فكثيراً ما كان لفظ الضدّ شرحاً لكلمة يُراد معـــناها، لكنَّ الضدّ يُصبح أكثر قوة إذا استعمل الاستعمال الصحيح، فكيف إذا كان حرف العطف يجمع بين الضدَّين، وهذا ما وضح في النص، مما ورد:

يميناً وشمالاً - الكبار والصغار - اغتنوا وافتقروا - يضحك ويبكي...

- الترادف:

مـــن الألفاظ ما يزيد شرح المعاني ويُسمَّى التَّرادف وهو بمعنى واحد لكن يفيد التوضيح أكثر، وقد ورد بعضُه في النصّ:

وشرفُ لا هو بالرَّفيع ولا بالوضيع ولكنه بين بين.

يحارون ويراجون ويتملَّقون ويتزلَّفون - يتحاسدون ويتباغضون...

*** تطبيقات نحوية وصرفية وإملائية:**

إنَّ قـــراءة الـــنص قـــراءة صـــحيحة تتطلب معرفة في اللغة من حيث الإملاء الـــصحيح، والكـــتابة الـــصحيحة بحسب قواعد الإملاء، ومن حيث الضبط السليم، والـــضبط السليم هو إعراب، وكثيراً ما ضبط القارئ ضبطاً صحيحاً معتمداً السليقة، وهـــذا ناتج عن القراءة والمطالعة التي يجب على القارئ أن يعتادها ولا سيما الطالب وهذا ما نرجوه منه بدءاً من المرحلة الابتدائية.

إلاّ أن الـــسليقة لا تسعف - دائماً - إذا لم يكن عند القارئ أساس في القواعد النحوية والصرفية والإملائية التي تكون بمجتمعة لغة سليمة صحيحة.

إنَّ إضـــافة هـــذه الفقـــرة إلى دراسة المقالة ضرورة واجبة على المتعلِّم لتكمل جوانب الدراسة كلها.

*** النحـــو:**

إنَّ الوقـــوف علـــى كل ما في النص من قواعد نحوية غير صحيح ولا هو من

المـــنطق في شيء، بل يُكثر الكلام، ويكون بحاجة إلى صفحات كثيرة، وتكفي بعض الملاحظـــات المتنوعة لبعض الأبحاث الرئيسية، أقصد التي يكثر استعمالُها عند الطالب، وهـــي قـــد مرَّت مع الطالب في سنوات تعلُّمه السابقة، وسنذكّره هذه القواعد، لأنَّ القواعد النحوية إذا لم تراجع باستمرار فإنها ستُنسى.

١- ... حتَّى يُراق:

حتَّى : حـــرف غايـــة ونصب وجر، تنصب الفعل المضارع بأن المضمرة، والتقدير (إلى أن...).

يُراق : فعـــل مضارع منصوب بـــ (أن) مضمرة بعد حتى، مبني للمجهول وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة.

٢- وإني لأسأل...:

لأسأل : اللازم مزحلقة.

أسأل : فعل مضارع... وجملة (أسأل) في محل رفع خبر إنَّ.

تقع اللام المزحلقة في خبر (إنَّ) سواء كان مفرداً أم جملة أم شبه جملة وقد تقع اللام في اسم إنَّ شريطة أن يتقدم الخبر على الاسم كقوله تعالى: ﴿إنَّ في ذلكَ لَعبْرَةً﴾.

وأصـــل اللام المزحلقة لام الابتداء، دخل عليها الحرف المشبه إنَّ، والحرفان (إنَّ واللام) يفيدان التوكيد فتُزحلق اللام إلى الخبر، مثال:

العلمُ مفيدٌ — مبتدأ وخبر

لَلْعلمُ مفيدٌ — اللام لام الابتداء

إنَّ لَلعلمَ مفيدٌ — لا يجوز

إنَّ العلمَ لمفيدٌ — اللام مزحلقة.

٣- ما هـــو؟

ما : اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع خبر مقدَّم.

٤- من أين يأتيه؟

أينَ : اسم استفهام مبني على الفتح في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (يأتيه).

٥- هل : حرف استفهام (الحرف لا محل له من الإعراب).

٦- كيف : اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال.

٧- ما أظنُّ أنَّ في اللغة ....كلمة شريفة.

ما : نافية.

أظنُّ : فعل مضارع مرفوع...

أنَّ : حرف مشبه بالفعل.

في اللغة : جار ومجرور متعلقان بخبر أنَّ المحذوف.

كلمةً : اسم أنَّ منصوب...

شريفة : صفة كلمة، منصوب...

فُتحت همزة (أنَّ) لأنَّها تؤول مع اسمها وخبرها، وتسدّ مسدَّ مفعولي ظنَّ.

٨- كثر في النص ورود الأفعال الخمسة.

وهي أفعال مضارعة تتصل بها ألف التثنية، واو الجماعة، وياء المؤنثة المخاطبة.

ترفع بثبوت النون، وتنصب وتجزم بالياء.

يعامل الأمر معاملة هذه الأفعال إذا اتصلت بها الضمائر السابقة.

٩- وحدَه : تضبط هذه الكلمة بالفتح لأنها دائماً حال.

١٠- أيَّة : يعرب اللفظ بحسب موقعه من الجملة، والأصح أن تحذف (التاء المربوطة) منه فيصبح (أيّ) ويعرف أنه مؤنث أو مذكر بحسب المضاف إليه لأنَّ هذا من الألفاظ الملازمة للإضافة.

١١- لعمري : لا يتغير إعرابها: اللام لام الابتداء، مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة

على ما قبل ياء المتكلم، والياء مضاف إليه، والخبر محذوف وجوباً.

١٢- .... بالمثول لدى ذي مقام رفيع.

ذي : مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء لأنه من الأسماء الخمسة.

هذا الاسم من الأسماء الملازمة للإضافة.

الأسمـــاء الخمسة (أب - أخ - حم - فو - ذو) ترفع بالواو وتُنصب بالألف وتجر بالياء.

تعرب من الأسماء الخمسة شريطة أن تضاف إلى غير ياء المتكلم.

١٣- يتعارف اثنان.

اثنان : فاعل مرفوع وعلامة رفعه الألف لأنه ملحق بالمثنى.

الملحق بالمثنى : كلا - كلتا - اثنان - اثنتان. سميت بهذا الاسم لأنه لا مفرد لها من لفظها.

١٤- عاد إلى بيته وذويه مرفوع الرأس.

ذويه : اســـم معطوف على بيته مجرور مثله، وعلامة جره الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والهاء مضاف إليه.

أشهر الأسماء التي تأتي ملحقاً بجمع المذكر السالم:

بنون - سنون - أرضون - أهلون - عالمون

أولو - ذوو

عشرون - ثلاثون ... تسعون (ألفاظ العقود).

١٥- حتى كأنما الشرفُ...

الشرف : مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

لأنّ (كأنمـــا) كافة ومكفوفة، دخلت (ما) على (إن) فكفّتها عن العمل، أي لا تأخذ اسماً وخبراً.

١٦- فكأنه والعزةَ الإلهية..

والعزةَ : الـــواو حـــرف عطف، العزة: اسم معطوف على اسم كأنَّ (الهاء) منصوب مثله.

ليست الواو واو المعية لأنَّ واو المعية يجب أن تُسبق بجملة.

١٧- حيثُ : ظرف مقطوع عن الإضافة مبني على الضم.

١٨- أمسِ : ظرف مبني على الكسر في محل نصب.

١٩- يعطيكه : فعل مضارع مرفوع.. والكاف في محل نصب مفعول به أول، والهاء في محل نصب مفعول به ثان لأنَّ هذا الفعل يتعدى إلى مفعولين.

٢٠- ما أحمقَ الكَذوبَ.

ما : نكرة تامة بمعنى شيء في محل رفع مبتدأ.

أحمق : فعـــل مـــاض جامد لإنشاء التعجب. وفاعله ضمير مستتر وجوباً تقديره (هو) خلافاً للقاعدة.

الكذوب : مفعول به منصوب.

جملة أحمق في محل رفع خبر (ما).

هذا الأسلوب لا يتغير إعرابه.

٢١- حسبه زيفاً أن يكون هبةً.

زيفاً : تمييز منصوب..

المصدر المؤول من أن وما بعده خبر للمبتدأ (حسب).

*** الصرف:**

مـــن أشـــهر أبواب الصرف التي يكثر استعمالها عند الطالب، وعليه معرفتها، المصدر والمشتقات، وهذا ما سنقف عليه في هذا النص.

- المشتقات:

المشتقات ستة أنواع هي: اسم الفاعل ومبالغته، اسم المفعول، الصفة المشبهة، اسم التفضيل، اسما المكان والزمان، واسم الآلة..

وما يلاحظ أنّ الأنواع الثلاثة الأولى هي الأكثر استعمالاً، ولها قواعد مرَّت مع الطالب يحفظها.

آ - **اسم الفاعل** يصاغ من الثلاثي على وزن فاعل، وقد ورد في النص عدد منه مثل: عالق - الزائرين - واحدة - البائع - الشاري - الراكب - النائب - الناخب - قاضٍ - قاطع - زائف - ضاحك - العقلاء (عاقل) - الجهلاء (جاهل).

ويُصاغ مما فوق الثلاثي بإبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة وكسر ما قبل آخره، ومما ورد في النص.

مُؤْمس - مستقيم - مُنبَسط.

وثمّة ألفاظ قليلة من مبالغة اسم الفاعل: الحشَّاش - السِّكِّير - جلاَّد - الكذوب.

ب - أما **اسم المفعول** فهو على وزن مفعول من الثلاثي مثل: المثلوم - مرفوع - مفقود - مولود.

وبإبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة وفتح ما قبل الآخر، مثل: المُعجَبين - مُطالَب - مُسمَّى.

ج - أما **الصفة المشبهة** فتصاغ من الفعل اللازم، لكنّ أوزانها كثيرة، أكثر ما يرد منها: فعيل - أفعل... مثل:

الرفيع - وضيع - قليل - شريفة - سخيفة - خفيفة - الطريف - الأغنياء (غنيّ) - الفقراء (فقير) - الرفيق - أكذب - أسرق - أفسق - وزير - كبير - عظيم....

د – أما اسم التفضيل فهو على وزن أفعل مما ورد منه في النص:

أطهر – أسطع – أعزّ – أبعد – الأعجب.

هـ – أما اسم المكان والزمان فهو على وزن مَفْعِل مَفْعَل إذا كان ثلاثياً، وعلى وزن اسم المفعول إذا كان مما فوق الثلاثي، وورد قليل منه:

المَعبد – المَقهى – المكان.

و – أما اسم الآلة فلم يكن لَه أوزان كثيرة في القديم، وذلك لقلة الآلات التي كانت عند العرب، أم الآن فهي كثيرة كثرة الآلات، ورد في النص:

المِدية – المسدس – سيف....

– المصدر:

للمصدر أنواع كثيرة، منها الثلاثي ومنها فوق الثلاثي، ومنها الميمي، ومنها الصناعي.

أما الثلاثي فلا قاعدة محددة بل هو سماعي ولا قياسي، مما ورد في النص:

الأذى – الشرف – الرغبة – القول – الجنون – المُثول – العجب – القضاء... ومصادر أخرى كثيرة.

أما فوق الثلاثي فله أوزان-كثيرة قياسية، فمن الرباعي:

الإساءة – الإقناع – الملاكمة – المصارعة – التعليم – التضريب.

ومن الخماسي:

الانصراف – الاقتسام – التضعضع – التضارب.

ومن المصدر الميمي:

مُنتهى – مُقام – مَودّة...

ومن المصدر الصناعي:

الإلهيّة – الأهميّة..

* الإملاء:

مـــن أهم القواعد الإملائية التي تتكرر على مسامع الطالب لكنه لا يتقنها جيداً هي قاعدة الهمزة بأنواعها كلّها، وهذا عددٌ ممّا ورد مع القاعدة للتذكير:

الإساءة : همزة متوسطة مفتوحة، ما قبلها ساكن تكتب على السطر.

الزائرين : همزة متوسطة مكسورة، ما قبلها ساكن تكتب على نبرة.

يؤذي : همزة متوسطة ساكنة، ما قبلها مضموم تكتب على الواو.

يؤويه : همزة متوسطة ساكنة، ما قبلها مضموم تكتب على الواو.

يلجأ : همزة متطرفة، ما قبلها مفتوح تكتب على الألف.

أمـــا همـــزة الوصل والقطع فهي مما يتركه الطالب عن عمد أو عن عدم معرفة للقاعدة.

من همزات القطع:	الإعجاب – الإنكار – إراقة	مصدر فعل رباعي.
	أسأل	مضارع.
	أكرهه – أئخنه – أشبعه – أعطته	ماض رباعي.
ومن همزات الوصل:	اثنان – اسم...	من الأسماء العشرة.
	الاعتزاز – انقسام – الاعتداد	مصدر خماسي.
	استثناء	مصدر سداسي
	استعدت	ماضي السداسي
	اشتروا – اغتنوا	ماضي الثلاثي

الفصل الثاني

نماذج
للتحليل الأدبي

هـــذه مجموعة من المقالات المتنوعة القصيرة نثبتها كما هي بلا تعليق، أو سؤال لـــيحلّلها الطالـــب علـــى ضوء ما قرأ، وسيجد أنّ هناك اختلافاً واضحاً بين واحدة وأخـــرى، وقد قصدنا إلى انتقائها مختلفة الموضوعات والأسلوب ليكوّن الطالب منها - جميعاً - ثقافة أدبية فيها قراءة وتحليل ونقد...

.....

...

..

.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

*** النموذج الأول:**

الأسلوب الإفرنجي

عباس محمود العقاد

الأســلوبُ الإفرنجي هو كلُّ أسلوبٍ مَعيب، في رأي فئةٍ من النُّقّاد، يحسَبون في هــذا العــصر أنَّهــم حَذقوا ملكةَ اللغة، وورثُوا سليقةَ البلاغة العربية؛ وكلُّ أسلوبٍ رَكيكٍ مستضعفٍ فهو عندَ هؤلاءِ النُّقّادِ من الأساليبِ الإفرنجيَّة، التي طَرأت على اللغة بعــدَ اختلاطِ الشَّرقِ بالغربِ، ومعالجةِ التَّرجمةِ من لغاتِ الإفرنجِ إلى لغةِ العَربِ، كأنَّ الــرَّكاكةَ شرطٌ أصيلٌ يشترطه الإفرنجُ في كَلامهم، ولا يقرُّون البَلاغةَ عندَهم إلاَّ إذا شِــيبَت بــشيءٍ منه! وليسَ الأمرُ كذلكَ، ولا هوَ مما يخطرُ على بالِ ناقدٍ رَشيد؛ فإنَّ الإفــرنجَ يُعيبونَ الرَّكاكةَ كما نَعيبُها، وينتقدونَ ضعفَ التَّأليفِ كما ننتقدُه، ويُعنَونَ أشدَّ العنايةَ باجتنابِ الخَطأ في النَّحوِ والصَّرفِ والقَواعدِ الأساسيَّةِ المتَّفقِ عليها. ولكنَّ نقَّادَنــا الذين يجهَلونَ اللُّغةَ الإفرنجيَّةَ يَفوتُهم ذلكَ، ويَختصرونَ المَسافةَ إذا استَعرَضوا الأساليبَ، فما استَحسنُوا منها فهوَ للعربِ خاصَّةً، وما استَهجَنُوا فهو للإفرنجِ عامَّةً! ويحــسبونَ أنَّ الصَّحيحَ القَويمَ من العباراتِ لا يُمكنُ أن يَكونَ إلاَّ عَربيًّا، وإنَّ السَّقيمَ المُعوجَّ من العباراتِ لا يُمكنِ أن يَكونَ إلاَّ أعجميًّا، بطبيعةٍ في اللُّغاتِ لا تتحوَّلُ عنها، ولا يَدَ فيها للمُتكلِّمينَ بمُفرداتِها وتَراكيبِها. وهذا هو الخَطأ الذي نودُّ أن نَكتبَ عنه، لنــردَّ العُــيوبَ إلى أصُولِها ونُوجِّهَ بنقدِ الأساليبِ إلى وُجهةٍ أقربَ إلى الهِدايةِ، وأقمنَ بالتوفُّقِ للأسبابِ الصَّحيحةِ.

كـــانَ قُرَّاءُ اللُّغةِ العَربيَّةِ وبعضِ اللُّغاتِ الإفرَنجيَّةِ يَحسبونَ أنَّ كَثرةَ الفَصلِ بينَ الجُمـــلِ خاصَّـــةٌ من خَواصِّ الأسلوبِ الإفرَنجيِّ، تَطرَّقتْ إلى لُغَتنا من التَّرجمةِ أو من مُحاكـــاةِ كُـــتَّابِ الغَـــربيِّين في رَصفِ الجُملِ وتَقسيمِ العِبارات. ولستُ أشكُّ في أنَّ الإفـــرنجَ أقـــلُّ مـــنَّا استِعمالاً لحروفِ العَطفِ والصِّلاتِ اللَّفظيَّةِ الظَّاهرة، وإنَّ بعضَ المُقتَدينَ بهم نَقلوا عنهم هذه العادةَ إلى الكِتابةِ العَربيَّة، فأحسَنَ منهم من أحسنَ وأساءَ منهم من أساءَ. ولكنِّي أعتقدُ أنَّ الفَصلَ بينَ الجُملِ خاصَّةٌ من خَواصِّ التَّفكيرِ قبلَ أن تَكـــونَ خاصَّةً من خَواصِّ حُروفِ العَطفِ وصِلاتِ الألفاظ. وأرى أنَّ كُتَّابَ الإفرنجِ أكثرُ منَّا عِنايةً بوَصلِ المَعاني، وتَرتيبِ المَوضوعات، وإنْ ظَهرَ على تَرجمةِ أساليبِهم أنَّها أقـــربُ إلى التَّفكُّكِ والانقطاعِ بينَ الجُملِ والفِقَر؛ وأرى من نَاحيةٍ أخرى أنَّ البَلاغةَ العَربيَّةَ لم تَخلُ من الفَصلِ الكَثيرِ في أساليبِ أفصحِ الفُصحاءِ وأقدرِ الكُتَّابِ والمُنشئينَ؛ بـــل هذا القُرآنُ الكَريمُ، تَتوالى فيه الآياتُ أحياناً بلا صِلةٍ لَفظيَّةٍ بَينها، غيرِ الصِّلةِ التي تُفهَمُ من سِياقِ الكَلامِ، وتُؤدِّيها عَلاماتُ التَّرقيمِ أحسنَ أداءٍ.

جامعة دمشق Damascus University

* **النموذج الثاني:**

جمال الشرق

مـــي زيادة

أجـــل! شَرقُنا جَميلٌ، ولكنَّ الرُّوحَ الشَّرقيَّةَ الَّتي تُحيِيه، أجملُ منه. ومياهُ الشَّرقِ عَذبةٌ، وأعذبُ منها العَواطِفُ الغَزيرةُ المُتدفِّقةُ في صَدرِ الشَّرقيِّ. وكلّ ما في الشَّرقِ من جِـبالٍ وأودِيةٍ، من مُروجٍ وسُهولٍ، من أنهارٍ وأشجارٍ، بَهيٌّ بَهجٌ، وأبهى من كلِّ ذلكَ وأبهَــجُ، تلــكَ المَكارِمُ الكَامنةُ في ثَنايا الرُّوحِ الشَّرقيةِ. والتَّاريخُ الشَّرقيُّ تاريخُ مَجدٍ وفَخرٍ، ولكنَّ هنالكَ شَيئاً أعظَمَ منهُ، وهو الذَّكاءُ الشَّرقيُّ الذي أوجدَ التَّاريخَ.

هَـــلاَّ ذَكرتُم يَومَ كانتْ بِلادُنا نبراسَ الأممِ وقَائِدَةَ الشُّعوبِ؟ هلاَّ ذَكرتُم يَومَ كانتْ بِلادُنا مَهدَ العُلومِ والصَّنائعِ والفُنونِ؟

علـــى شَواطِئنا هذه، على شَواطِئِ فينيقيا القَديمةِ، تَرعْرَعَ الفِكرُ البشريُّ، وأطلَّ الرُّقيُّ من بينِ غُيومِ الجهلِ والخُمُولِ. كانَ البَحرُ قبلَ الفينيقيِّينَ عَصيّاً، فعالَجته همَّتهم الشَّماءُ فأطاعَ، وسيَّروا فيه سُفنَهم طُولاً وعَرضاً، حامِلينَ إلى بِلادٍ قامت على شَواطِئِه ثَمرةُ أتعابِهمْ الفِكريَّةِ واليَدويَّةِ ومَبادِئُ المَعارِفِ الاجتماعيَّةِ.

انحَنـــى الفِينيقيونَ على الأرضِ، فشَقُّوا أديمَها، مُستَخرجينَ من أحشائِها الثَّروةَ والغِـــلالَ، وتَـــصرَّفوا بالمِـــياه الضَّائعةِ في جَوفِها فاستَخدَمُوها لتَعزيزِ الزِّراعةِ. لَمَسوا الصَّخرَ فلَبَّى صَاغِراً، وحَدَّقوا إلى العَناصرِ فانقَادَتْ لَهم؛ وما زَالُوا يَكدُّونَ ويَستَنبِطُونَ حتَّى وَضعوا للمُستقبلِ قاعِدةَ ارتِقاءٍ مَتينةً.

نَعـــم! هُنا ابتَسَمَ الرُّقيُّ ابتسامَتَه الأولَى، وهُنا خَطا التَّقدُّمُ خُطوَتَهُ الأولى، ومن هـــنا نُقِلَـــت مَبادِئُ العُلومِ والفُنونِ والصِّناعةِ والتِّجارةِ إلى اليُونانِ، إلى الرُّومانِ، إلى العَالمِ!

قـــبلَ فِينيقـــيا لم يَكُن يَعرفُ أهلُ الحَبَشةِ قِيمةَ ما عِندَهم من عاجٍ ومَوادَّ ثَمينةٍ أخـــرَى. فـــسَارتْ إليهم قَوافلُ الفينيقيينَ فانتَبهوا وتيَقَّظوا. قبلَ فِينيقيا لم يَعرفْ أهلُ الجُـــزرِ البَـــريطانيَّةِ مَعنى التِّجارةِ، وظَلُّوا جاهِلينَ وُجودَ مَعادِنَ، بها يَقومُ غِناهُمْ، حتَّى ذَهبَ إليهم قَدموسُ التَّاجِرُ الفينيقيُّ، على ظَهرِ سَفينَتِه السَّوداءِ، فألفَتَهُم إلى ما لَديهمْ، وعلَّمهم أساليبَ التِّجارةِ.

قبلَ فِينيقيا كانَ الفِكرُ البَشريُّ مَحدوداً، مُقيَّداً، عاجزاً عن إبرازِ نَفسِه إلى عالمِ الوُجودِ، لـــصُعوبةِ الكِـــتابةِ الهِيروغليفيَّةِ. فلَخَّصَ الفينيقيّونَ تلكَ الرُّسومَ الهيروغليفيَّةَ العَديدةَ، في الحُروفِ الأبجديَّةِ، جاعلينَ لكُلِّ مَقطعٍ صَوتيٍّ حَرفاً. ومن الحُروفِ تتألَّفُ الكَلماتُ، ومن الكَلماتِ تتركَّبُ الجُملُ، وبينَ الجُملةِ والجُملةِ على صَفحاتِ الأوراقِ تَتجلَّـــى الأرواحُ، وتَخفـــقُ القُلوبُ، وتَسيلُ الدُّموعُ، ويَسطعُ الفِكرُ الإنسانيُّ بأنوارِهِ البَاهرةِ.

كذلكَ حَملتْ فِينيقيا إلى اليُونانِ مَبادِئَ الفُنونِ المُختلفةِ وعَلَّمتْ الأممَ أساليبَ الاســـتِعمارِ، فهلْ نضحنُ ذاكِرونَ أنَّهُ عَلينا أن نَستَخرِجَ من مُستَقبلِنا تاريخاً لا يَخجلُ حِيالَهُ التَّاريخُ القَديمُ؟

❖ ❖
❖

*** النموذج الثالث:**

الخريف في الريف

أحمد حسن الزيّات

دَعــنا الآنَ من القَاهرةِ! فَبِشْرُها الباسمُ قَد استَسَرَّ في قُطوبُ الطَّبيعة، وشَجرُها السَوَارِفُ قــد اقشَعرَّ من رياحِ الخَريفِ، وهُدوؤها الشَّاعرُ قد غابَ في صَخَبِ الفِتنة؛ وكأنَّما خَفقَتْ في جَوِّها المُستَنيرِ الصَّفو أبابيلُ سودٌ من طُيورِ اللَّيلِ!

دَعْـنا الآنَ من القَاهرةِ! وتَعالَ نُرفِّهُ عنْ حَواسِّنا وأعصابنا في سُكونِ الرِّيفِ الآمنِ، وفي كَنفِ الفَلاَّحِ المُؤمنِ، حيثُ الخَريفُ رَبيعٌ، والطَّبيعةُ الكَهلةُ، رُواءٌ وغناءٌ وسِحرٌ!..

الخَــريفُ المِــصريُّ في الــرِّيفِ هُوَ الرَّبيعُ الحَقُّ في نَضْرَته وزينَته وعطرِه. فبينا تَرى الحُقــولَ المُتَّــصلةَ في بَياضِ الدِّمَقس أو صُفرةِ النُّضَّارِ، يُجرِّدُها سبتَمبرُ منَ القُطنِ الحَريريِّ الأشــواكِ والــرُّزِّ العَسْجَدي الهَائجِ، إذ بها في خُضرةِ السُّندسِ أو زُرقةِ اللازورد، يَكسُوها أكتوبــرُ أعوادَ الذُّرةِ اللَّفَّاء وقَصَبَ السُّكَّرِ الوَريقَ... فأينَما أدرتَ بَصرَكَ لا تجد إلاَّ رياضاً ومُــروجاً. وتَرى النِّيلَ كَذَوبِ التِّبرِ يَنسابُ هادِراً في التُّرعِ والقَنوات، فَيجعلُ من ضِفافِ الجَداولِ وحافَّاتِ الطُّرقِ وحَواشي الغيطانِ سَلاسلَ زَبرجديَّةً من الرَّيحانِ والعُشبِ.

خَــريفُ الــرِّيفِ ورَبــيعُهُ يَتَّفقان في الخِصبِ والبَهجةِ، ويَختلفانِ في الحَيويَّةِ والطَّبيعَةِ. فَبينا تَجدُ رَبيعَ أبريلَ ومايو مَوَّاراً بالحَياة، فوَّاراً بالعاطفة، هَدَّاراً بالهُتاف، إذ تَجــدُ رَبيعَ أكتوبر ونُوفمبر سَاجِيَ النَّهارِ، سَجْسَجَ الظِّلِّ، سَاكِنَ الطَّائرِ، يَنفُضُ على كُــلِّ امــرِئٍ دَعَةَ الطُّمأنينةِ وسُكونَ التَّأمُّلِ وروعةَ العبادةِ. فالمِشيةُ وَئيدةُ الخُطوات،

والوِقفَةُ بَعيدَةُ النَّظرات، والجَلسةُ طَويلةُ الصَّمت.

أيُّ جَمـــالٍ أملَكُ للنَّواظِرِ والخَواطِرِ من جَمالِ السَّماءِ الرِّيفيَّةِ وقد زَيَّنَتها رِياحُ الخَريفِ بقَرَعاتٍ منَ الغَيمِ الرَّقيقِ، كأنَّها القُطعانُ البيضُ تَرتَعي في المُروجِ الخُضرِ؟ هذه السَّماءُ بألوانِها السِّحريَّةِ المُختلفةِ التي تتعاقَبُ عَليها بتَعاقبِ السَّاعاتِ تَنطبقُ على أرضٍ كـــرُقعةِ الفِردوسِ لا تَرى فيها خَلاءً ولا عَراءً ولا وَحشةً؛ ولا تَسمَعُ فيها إلاَّ هَتَفاتِ الطَّـــيرِ الحائمـــةِ علـــى أعذاقِ النَّخلِ وسَنابلِ الذُّرةِ، وإلاَّ شَدواتِ الرُّعاةِ قد كَوَّموا الحَـــشيشَ أمامَ الماشيةِ وتَحلَّقُوا حَولَ النَّارِ المَشبوبةِ يشوونَ عليها أمطارَ الذُّرةِ وصِغارَ السَّمكِ ثمَّ يأكلونَ ويُغنونَ في لذَّةٍ وبَهجةٍ.

جامعة دمشق Damascus University

*** النموذج الرابع:**

أين الفضيلة ؟

مصطفى لطفي المنفلوطي

فتَّشتُ عن الفَضيلة في حَوانيتِ التُّجَّارِ، فرأيتُ التَّاجرَ لصًّا في أثوابِ بائعٍ، وَوَجدتُه يَبيعُني بدينارين ما ثَمنُه دينارٌ واحدٌ، فعَلمتُ أنَّهُ سَارقُ الدِّينارِ الثَّاني. ولو وُكِّلَ إليَّ أمرُ القَضاءِ، لما هانَ عليَّ أن أُعاقبَ لُصوصَ الدَّراهمِ وأُغفلَ لُصوصَ الدَّنانيرِ، ما دامَ كلٌّ منهما يَسلُبني مالي ويَتغفَّلُني ليَخطُفَهُ منِّي.

أنا لا أُنكرُ على التَّاجرِ ربحَهُ، ولكنْ أُنكرُ عليه أنْ يَتناولَ منه فَوقَ جَزائِه على جَهْدِ نَفسِه في جَلبِ السِّلعة، وبَذلِ رَاحَتِه في صَونِها. وكُلُّ ما أعرِفُ من الفَرقِ بينَ حَلالِ المَالِ وحَرامِه أنَّ الأوَّلَ بَدلُ الجدِّ والعَملِ، والثَّاني بَدلُ الغشِّ والكَذبِ.

فتَّشتُ عنِ الفَضيلةِ في مَجالسِ القَضاءِ، فرأيتُ أنَّ أعدَلَ القُضاةِ مَنْ يَحرِصُ الحِرصَ كُلَّهُ على أنْ لا يَهفُوَ في تَطبيقِ القَانونِ الَّذي بينَ يَديه هَفوةً يُحاسبُه عليها من مَنَحهُ هذا الكُرسيَّ الذي يَجلسُ عليه، مَخافةَ أن يَسلُبَه إيَّاهُ. أمَّا إنصافُ المَظلومِ، والضَّربُ على يَدِ الظَّالمِ، وإراحةُ الحُقوقِ على أهلِها، وإنزالُ العُقوباتِ منازِلَها من الذُّنوبِ، فهيَ عندَهُ ذُيولٌ لا يأبَهُ لَها، إلاَّ إذا أشرقَ عليها الكَوكبُ بسَعدِه، فمَشَتْ مع القَانونِ في طَريقٍ واحدٍ، على سَبيلِ المُصادَفةِ، فإذا اختَلفَ طَريقُهُما بينَ يَديه، حَكَمَ بغيرِ ما يَعتَقدُ، ونَطَقَ بغيرِ ما يَعلمُ، ودانَ البَريءَ وبَرَّأَ الجانيَ. فإذا عَتَبَ عليه في ذلكَ عاتِبٌ، كانَتْ مَعْذِرَتُه حُكمَ القَانونِ عليه، كأنَّما يُريدُ أن يَجعلَ العَقلَ أسيرَ القَانونِ،

وما القانونُ إلاّ حَسَنةٌ من حَسَنات العَقلِ وصَنيعةٌ من صَنائعه.

هـذا شـأنُ أعـدلِ القُضاة وأهداهُمْ إلى الحَقِّ وأقْوَمهم سَبيلاً. أمَّا الآخرونَ، فيُطبِّقونَ أحكامَهُمْ على قانونِ الرِّبحِ ويَنْزِلونَ من الدِّينارِ مَنْزلةَ اللاّزمِ من المَلزومِ، فيَدورونَ معهُ وجوداً وعَدَماً.

فتَّشتُ عن الفَضيلةِ في قُصورِ الأغنياء، فرأيتُ الغَنِيَّ إمَّا شَحيحاً أو مُبذِّراً. أمَّا الأوَّلُ، فَلَوْ كانَ جارُ البَيتِ فاطمةَ، وسَمِعَ في جَوفِ اللَّيلِ أنينَها وأنينَ وَلَدَيها من الجُوعِ، لَما مَدَّ إصبَعَيْهِ إلى أُذنيه، ثِقَةً منه أنَّ قَلبَهُ المُتحَجِّرَ لا تَنفُذُه نَسَماتُ الرَّحمة. وأمَّا الثّاني، فمالُهُ بينَ ثَغْرِ الحَسناءِ وثَغرِ الصَّهباءِ. فعلى يَدِ أيِّ رَجُلٍ من هذينِ الرَّجُلينِ تَدخُلُ الفَضيلةُ قُصورَ الأغنياء؟

فتَّشتُ عَنها في مَجامعِ السِّياسة، فرأيتُ أنَّ المُعاهَدةَ والاتِّفاقَ والقاعِدةَ والشَّرطَ ألفاظٌ مُترادفةٌ، مَعناها الكَذبُ! ورأيتُ أنَّ المَلِكَ في كُرسيِّ مَملَكَته كالحُوذيِّ في كُرسيِّ عَرَبَته، لا فَرقَ بينَهُما إلاّ أنَّ هذا يَنقُضُ «تَعريفَتهُ» وذاكَ يَنقُضُ مُعاهَدَته. ورأيتُ أنَّ أعدَى عَدوٍّ للإنسانِ الإنسانُ، وأنَّ كُلَّ أمَّةٍ قد أعدَّتْ في مَخازِنِها ومُستَودَعاتِها وفي بُطونِ قِلاعِها وعلى ظُهورِ سُفُنِها، ما شاءَ اللهُ إنْ تُعدَّهُ لأختِها من عُدَدِ المَوتِ وأفانينِ العَذاب؛ حتَّى إذا وَقَعَ بَينَهُما خِلافٌ على حَدٍّ من الحُدود، أو لَقَبٍ من الألقاب، لَبِسَ الإنسانُ فَروةَ السَّبُعِ، واتَّخَذَ من تِلكَ العُدَدِ الوَحشيَّةِ أظفاراً كأظفارِهِ وأنياباً كأنيابِه، فشَحَذَ الأولى وكَشَرَ عن الأخرى، ثُمَّ هَجَمَ على وَلَدِ أبيهِ وابنِ أمِّه.

*** النموذج الخامس:**

عين القبو

لبيبة هاشم

«عـــين القـــبو» قَريةٌ مُنفرِدةٌ في لُبنانَ. يُظلِّلُها السُّكونُ تُحيطُ بها جبالٌ لَطيفةُ التَّركيبِ، يَبدو جَمالُها عندَ غُروبِ الشَّمسِ، إذ تَقَعُ أشعَّتُها عَليها مُنحرفةً؛ فَينشأُ عنها خَـــيالاتٌ تَستَرقُ القَلبَ وتَستأثِرُ بالفكرِ، ولا سيَّما متى انتَشَرَ نُورُ الشَّفقِ وانْعَكَسَتْ ألوانُهُ السِّنجابيَّةُ على رُؤوسِ قِمَمِها ونُتوَّاتِها...

ويُطِـــلُّ القَمـــرُ بـــنورِهِ الفِضِّيِّ من وَراءِ الجَبلِ، كشُعلةِ آمالٍ مُرسَلةٍ إلى قُلوبِ البَائـــسينَ لتُنعِشَهم فيُكسِبُ المَكانَ هَيبةً وجَلالاً يُؤثِرانِ بالنَفسِ تأثيراً عَميقاً، فتَستَلذُّ الـــتَّأمُّلَ والتَّفكيرَ. وإذْ تَستغرقُ فيهما، يُنبِّهها نَقيقُ الضَّفادِعُ وحَفيفُ أوراقِ الشَّجرِ؛ كأنَّهمـــا يُبكِّتانِها على إهمالِها النَّظرَ إلى القَمرِ، فتَعودُ إليه فتَرى كأنَّ في نَظراتِهِ انكساراً يَمَـــسُّ أعمـــاقَ قَلبِها، فتَلبثُ مُحدِّقةً إليه، كأنَّها قارِفةٌ تَعتَذِرُ. أمَّا هو فيَسيرُ في دَورتِهِ الإهليلَجيَّةِ هادِئاً باسِماً، دونَ أن تعلمَ أذلكَ منهُ عَلامةُ صَفحٍ ورِضىً أم عَدَمُ مُبالاةٍ؟!

ومـــا أجمـــلَ مَنظرَ الحَصَّادينَ! وبأيديهِمْ مَناجِلَهمْ والقَمحُ إلى جَوانِبِهم أكواماً، والمَواشـــي تَرعـــى آمنةً بالقُربِ منهُمْ، والنِّساءُ يَحملنَ الحَشيشَ على رُؤوسِهنَّ رِزماً كَـــبيرةً ويَحلبْنَ الماشيةَ ويَنقُلنَ الحَليبَ. وصِغارُهُنَّ يَسُقنَ الغَنمَ إلى السَّواقي ليَغسِلْنَها، فـــيما العَـــصافيرُ تَتطايرُ فَزَعاً من طَريقِهنَّ، كأنَّها شَعرتْ بَعظيمِ جُرمِها، وهي تَلتَقِطُ حُبوبَ الحِنطةِ خُفيةً عن أعينِ الحَصَّادينَ.

ولا مَلهى هذهِ القَريةِ يَستَلِذُّهُ الإنسانُ أفضلَ منَ التَّمتُّعِ بمُجالَسةِ الطَّبيعةِ وتلاوةِ مؤلَّفاها النَّفيسةِ، يُساعِدُهُ بتَقليبِ صَفَحاتِها النَّسيمُ العَليلُ، فيمكُثُ بسُرورٍ ساعاتٍ مُتواليةً، مُمتِّعَ العينِ بجَمالِ هذه المَناظرِ، مُتنصِّتاً لتَغريدِ العَصافيرِ وصَريرِ الجَداجِدِ نَهاراً، ونَقيقِ الضَّفادِعِ، وخَريرِ المَاءِ لَيلاً، ويُؤنِسُه البَدرُ وتُزيل وَحشتَهُ الزُّهرةُ بابتساماتها اللامِعة. ولولا أصواتُ بَناتِ آوى المُزعِجةِ، لنَسيَ أنَّهُ في عالَمٍ تُمزِّقُ حَقيقَةُ مادَّتِهِ غِشاوةَ أحلامِهِ الذَّهبيَّةِ ولظَنَّ نفسَهُ في نَعيمٍ دائمِ المَسرَّاتِ، يَسمو هَيولِيَّته عن جِسمِ عالَمِنا المَذبوحِ بشِفارِ التَّقاليدِ والسَّخافات.

هذه هيَ «عينُ القَبوِ» مَصيفي، وهي تُؤيِّدُ رأيَ القَائلينَ: «هَنيئا لِمَنْ لَهُ مَرقدُ عَنْزةٍ في جَبلِ لُبنانَ».

❖ ❖
❖

* النموذج السادس:

النَّمل

كامل الكيلاني

النَّملُ حشراتٌ صَغيرةٌ منَ الفَصيلة المُجنَّحة. وهُوَ اجتماعيٌّ، شَديدُ الألفة بطَبعه، ومتى استَثنَينا منهُ أنواعاً قَليلةً شاذَّةً رأينا سَوادَه يَخضعُ لهذا القانُونِ العامِّ، وتَنطبقُ عليه هذه الصِّفاتُ.

وتتألَّفُ كُلُّ جَماعة من النَّملِ عادةً من أنواعٍ ثَلاثة: النَّملُ العَاملُ، والذُّكورُ، والإناثُ المُجنَّحة؛ وتتلخَّصُ صِفاتُهُ وخَواصُّهُ العامَّةُ في ما يلي: جِسمٌ مُستَطيلٌ يَتفاوتُ طُولاً وقِصَرا، ولَونٌ مُشبعٌ يتألَّفُ من أصفرَ وأحمرَ وأسمَرَ وأسودَ، أو مَزيجٍ من هذه الألوانِ كُلِّها أو بَعضِها بنسبٍ مُتفاوتة.

أمَّا رأسُ النَّملِ فهوَ يَختلفُ تَبعاً لاختلاف أنواعه وفَصائله، وهو ذو فَتحَتين، إحداهُما فَتحةٌ صَغيرةٌ، عندَ نُقطةِ اتِّصالِ الرَّأسِ بالظَّهرِ، وتُسمَّى الفَتحةُ الخَلفيَّةُ والثَّانيةُ من الأمامِ، وهي فمُ النَّملة، وهما فكَّانِ قَويَّانِ يتألَّفُ منهما - على الأغلبِ الأعمِّ - شَكلٌ مُثلَّثٌ. وكِلاهُما مُحدَّدٌ تُشبهُ حافَتُهُ الدَّاخليَّةُ حدَّ المِنشارِ.

لهذينِ الفَكَّين، عندَ النَّملِ، شأنٌ أيُّ شأنٍ؛ فهُما عَظيما الخَطرِ، لأنَّهما سِلاحُهُ القَويُّ، وعَتادُهُ الثَّمينُ الذي يَستعينُ به على العَملِ، فهو يَستخدمُهُ كما نَستَخدمُ المِنشارَ والمِقصَّ والكَمَّاشةَ، لنَزعِ الأشياءِ وتَمزيقِها، وكما نَستَخدمُ اليَدينِ في حَملِ الأثقالِ وما إلى ذلك.

وعُـيونُ الـنَّملِ مُنحنيةٌ، وقلّما تَكونُ مُستدَيرةً، أو مُنتَظمةً أيَّ انتظامٍ. وعُيونُه المَلـساءُ على شَكلٍ مُثلَّثٍ عندَ الذُّكورِ والإناثِ، ويَندُرُ أن تَراهُ عندَ العاملاتِ الَّتي لا تَكادُ تَرى في رأسِها أحياناً غيرَ واحدةٍ في مُنتَصفِ جَبهَتِها.

أمَّـا قُرونُه النَّاتئةُ فهي مُتحرِّكةٌ إلى انحناءٍ، تَرتَكِزُ على الحافَةِ الدَّاخليَّةِ لشَرايينِ الجَبهةِ.

ولا تُـوجدُ الأجـنحةُ إلاَّ عـندَ ذُكورِ النَّملِ وعَذاراهُ، وبَطنُهُ مُنقَسِمٌ إلى سَبعِ حَلقاتٍ للذُّكورِ، وستٍّ للإناثِ والعاملاتِ، وتَنتهي كُلُّ رِجلٍ من أرجلِ النَّملِ بخَمسةِ أجزاءٍ، في آخرِ جُزءٍ منها إبرتانِ بَسيطتانِ مُحدَّدتانِ، يفصلُهما شَعرٌ قَصيرٌ كَثيفٌ.

وفي وادي الـنَّملِ تَختلفُ أعمالُ العاملاتِ وأعباؤُها فيُناطُ ببعضِها بناءُ الغُرفِ والأحجارِ، ويُناطُ بالبَعضِ الآخرِ تَربيةُ الديدانِ الصَّغيرةِ، وما إلى ذلكَ من الأعمالِ.

أمَّا النِّمالُ الكَبيرةُ الرَّأسِ، فإنَّ لَها قُروناً قَويَّةً، ومن سَوادِها يتألَّفُ جَيشُ النِّمالِ الـذي يَحمـي الـوادي من غارَةِ المُعتَدينَ. وقد أطلقَ على هذه الفئةِ من النَّملِ اسمَ الجُنودِ، وهي تَقومُ بحُروبٍ وانتصاراتٍ رائعةٍ على أعدائها، وتأتي بالأسرى إلى واديها. فتَستَعبدُها وتُرهقُها بكلِّ ما تَحتاجُ إليه في واديها من الأعمالِ.

وتَعيشُ أسرابُ النَّملِ كُلُّها - إذا استَثنينا منها بعضَ شَواذَّ نادرةٍ - في مَساكِنَ مُـشتَركةٍ، يُطلَـقُ علـيها اسمُ وادي النَّملِ وهي - على الأغلبِ الأعمِّ - مُؤلَّفةٌ من طَـبقاتٍ عِـدَّةٍ، ذاتِ أروقةٍ وغُرفٍ للتَّهويةِ، وغُرفٍ للفَقسِ وتَربيةِ البَيضِ والعَذارى، وفي بعضِ الأحايينِ تَرى فيها مَخازنَ للزَّادِ.

وقـد كَـتبَ أحدُ العُلماءِ أنَّ أوَّلَ ما يَمتازُ به النَّملُ - منَ الوُجهةِ الجُغرافيَّةِ - اتِّـساعُ مَساكنِه، وتَعدُّدُ جَماعَتِه، وتَنوُّعُ فِرَقِه؛ وأنَّ النَّملَ يَكثُرُ تَبعاً لاشتدادِ الحَرارةِ، فكُلَّمـا دَنَـوتَ من خطِّ الاستواءِ، رأيتَ ازديادَ أنواعِه، حتَّى لتَبلُغُ في المنطَقةِ الحارَّةِ أقـصَى حَـدٍّ، ولا تَكادُ تَصلُ إلى الدَّرجةِ الخامسةِ والسِّتِّينَ من خُطوطِ العَرضِ حتَّى

تَختَفي أنواعُ النِّمالِ قاطبةً.

وقـــد اهتَدى الباحثونَ إلى نَحوِ ألفَيْ نَوعٍ من النِّمالِ، مِنها زُهاءُ مئةٍ وعِشرينَ تَقريباً، تَعيشُ في أوربَّا.

أمَّا أقدمُ نَوعٍ عُرِفَ من النِّمالِ فهو النَّملةُ الشَّقراءُ، وهي لا تَكادُ تَعرِفُ مَوطناً لهـــا إلاَّ في الغَابـــاتِ الكَبيرةِ، وهذه النَّملةُ جَريئةٌ مُشاكِسَةٌ، مَيَّالةٌ بِطَبعِها إلى الخُصومةِ واللَّـــدَدِ، مُغـــرَمَةٌ بالعَداءِ والحَربِ، وهي تَقذِفُ بسُمِّها إلى مَسافةٍ بَعيدةٍ، تَبلغُ ستِّينَ سَنتيمتراً ارتفاعاً.

وثَمَّةَ نَوعٌ آخرُ غَريبٌ منها، يَستَولي على أوديةِ النَّملِ، بعدَ أن يَطرُدَ ساكِنيها. وهُناكَ نِملٌ أخرَى تَعيشُ في جَوفِ الأرضِ، ولا يَكادُ يُعرفُ عن طَبائِعِها شَيءٌ.

وهُـــناكَ نَـــوعٌ مـــن النِّمالِ، يَعيشُ في إفريقيةَ الاستِوائيَةِ الغَربيَّةِ وهي عَمياءُ، تَتحاشَى عن ضَوءِ النَّهارِ، وتَكثُرُ من الرِّحلاتِ، ولا تَتَّخِذُ لها مَقاماً ثابتاً. وكلَّما نَزلتْ مَكاناً، أو حَلَّت مَحلَّةً، حَفَرتْ لها مَوئلاً تَحتَ الأرضِ بسُرعةٍ نادِرةٍ، وهي لا تَمشي إلاَّ في الأيَّـــامِ الغائمةِ الَّتي لا تَطْلُعُ فيها شَمسٌ أو في الأمسيةِ واللَّيالي. وتُؤلِّفُ في أثناءِ سَيرِها كَتائبَ هائلةً ولا يَصدُّها عن غايَتِها أيُّ حائلٍ ولا تَثنيها أيَّةُ عَقَبةٍ.

وهـــذه النِّمالُ، هي مَصدرٌ منْ مَصادِرِ الرُّعبِ الَّذي يَستَولي على زُنوجِ إفريقيةَ مـــن سُكَّانِ تلكَ القُرى، فإنَّها تَضْطَرُّهُم في أكثرِ الأحايينِ إلى مُغادَرةِ أكواخِهم حينَ تُغيرُ عَليهِمْ، ولا يَزالونَ يَرقبونَ ابتعادَ كتائِبها بفارغِ الصَّبرِ.

وهـــذه الحَـــشراتُ عَجيبةٌ حَقّاً فهي تَستطيعُ أن تَزرعَ الأرضَ وتَبذُرَ البُذورَ، وتَحصِدَ الزَّرعَ، وتُزيلَ من حَقلِها كُلَّ نَباتٍ آخرَ يَعوقُ نُموَّ تلكَ البُذورِ.

*** النموذج السابع:**

فنُّ الإعلان

عبد العزيز البشري

وهل بَقيَ من لا يُؤمنُ بأنَّ الإعلانَ أصبحَ فنّاً لَه كَسائرِ الفُنون، قَواعدُ وأصولٌ؟ بلى! هو فنٌّ لَه أثرٌ ولَه خَطَرٌ، يَتدارسُه طُلاَّبُه ويَستذكرونَ مَسائلَه وقَضاياهُ، ويُراجعُونَ الأساتيذَ في ما يتبهَّمُ عليهم من تلكَ المَسائلِ، ويَتبارُونَ في حِذقِه وتَجويدِه، حتَّى يبلغَ بعضُهم فيه رتبةَ العَبقريَّةِ والنُّبوغِ.

ومـــا لفنِّ الإعلانِ لا يَكونُ لَه هذا الشَّأنُ وأجلُّ من هذا الشَّأنِ، وهو الوَسيلةُ الفـــذَّةُ إلى تَحـــريكِ التِّجاراتِ ونِفاقِ الأسواقِ، وإيثارِ الفَتى، وذَهابِ الصِّيتِ في كلِّ مَكـــانٍ. بـــل لقَد يَكونُ إحسانُ الإعلانِ أهمَّ الدَّاعياتِ إلى مَيلِ جَماعاتِ الدُّولِ إلى دَولةٍ، وصَفوِ قُلوبِ الأممِ إلى أمَّةٍ، واضطغائِها على عَدوِّها مهما يَكُن خَطبُه. من شأنِ هذا العَطفِ وهذا البُغضِ أن يَبعثَ على الإمدادِ بألوانِ المَعونةِ المادِّيَّةِ من جهةٍ، والكَيدِ بالمَـــنعِ والمـــضارَّةِ من الجِهةِ الأخرى، مما يُساعدُ على النَّصرِ، ويُعجِّلُ للخَصمِ الغَلَبَ والقَهْرَ.

ورُويَ أنَّ سَـــائلاً سألَ المَثري العَظيمَ «المستر فورد» صاحبَ مَصانعِ السَّياراتِ المَعـــروفةِ باسمـــه: لو تَجرَّدتَ من الغِنى؛ ولم يبقَ في يَدكَ إلاَّ ألفُ جُنيه، فما عَسَى أن تَصنعَ؟ فقالَ: أُخرِجُ منها أوَّلاً سَبعمائةٍ وخَمسينَ للإعلانِ، وأستأنفُ السَّعيَ في الحَياةِ بالبَاقي!.

ولقد أدركتْ مصرُ حَظَّ فنِّ الإعلانِ وأثَرَه البَعيدَ في المَطالبِ الخاصَّةِ والعامَّة، فجَعلَ سُكَّانَها، أو مَنْ يَعنيهم الأمرُ من سُكَّانها، يَتبارونَ في تَجويدِ الإعلانِ ومَدِّ رُواقِهِ، وبَسْطِ آفاقِه، حتَّى بَذّوا الأمريكان، وكانوا مَضربَ المَثلِ في هذا الشَّأن!

وأرجو ألاَّ تَستعاظَمَك هذه الدَّعوى، فتعجَّلَ بالحُكمِ عليَّ بالتَّزيُّدِ أو الغُلو، فسأقيمُ لكَ الدَّليلَ، إنْ شاءَ اللهُ!.

ولنَمضِ أوَّلاً فيما كُنَّا فيه من أثرِ الإعلانِ، سَواءٌ في استخراجِ الأموالِ، أو في استدراجِ العَواطفِ بشتَّى الأساليبِ. ولقد تَكونُ ماضياً في طَريقكَ، ما بِكَ أن تَشتَري أيَّ شَيءٍ، فيَميلُ بَصرُكَ إلى مَعرضٍ من مَعارضِ بَعضِ الدَّكاكينِ (الفترينات)، فيَستَهويكَ بعضُ السِّلعِ المَعروضةِ بجَمالِ شَكلِها، بل بجمالِ وَضعِها، في بعضِ الأحيانِ، فتتقدَّم لابتياعِها، مهما يُحشِّمكَ الثَّمنُ. وهذا كما أسلَفنا من أثرِ جُودةِ الإعلانِ.

ولَستُ بحاجةٍ إلى مَنْ يَقولُ لك إنَّ جَميعَ مُدنِ المَملكةِ المصريَّة، لا فَرقَ بينَ كَبيرِها وصَغيرِها، دانيها وقاصيها، أصبَحتْ تَزخرُ بفُنونِ الإعلاناتِ. فهذه الصُّحفُ السَّيارةُ، والمَجلاَّتُ الدَّوريَّةُ وغيرُ الدَّوريَّة، تَسيلُ أنهارُها بالإعلانِ. وهذه جُدرانُ المَباني العامَّةِ والخاصَّةِ لا يَكادُ يَعرى مترٌ مُربَّعٌ فيها من الإعلانِ، بينَ مَطبوعٍ على الأوراقِ، أو مَكتوبٍ على الحائطِ، أو متألِّقٍ في أعلى المَباني بنورِ الكَهرباءِ. دع آلافَ الإعلاناتِ التي يَلقاكَ بها المُوزِّعونَ في كلِّ سَبيلِها. والإعلاناتِ الصَّوتيَّة (الميكرفون) التي تَجولُ بها السَّياراتُ في الطُّرقِ والأسواقِ... الخ.

ومن أظرفِ ما يُذكرُ في هذا المَقامِ أنَّ للحُكومةِ معهداً كَبيراً، يقعُ على شارعٍ من الشَّوارعِ الرَّئيسيَّةِ في قَلبِ القَاهرةِ، وسُورُ هذا المَعهدِ يمتدُّ إلى مَسافةٍ كَبيرةٍ من جانبِ الشَّارعِ. وقد بَدا للقائمينَ على تَكليسه (بياضه) أن يُبالغُوا في تَزيينه وتَبهيجه، بتَقسيمه إلى مُربَّعاتٍ مُتساويةِ المَساحةِ. ولم يَمضِ على هذا التَّزيينِ والتَّبهيجِ بضعةُ أسابيعَ، بل بِضعةُ أيَّامٍ، حتَّى كانَتْ جَميعُ هذه المُربَّعاتِ مُحلاَّةً بالإعلاناتِ المُختلفةِ،

ما خَلا مُربَّعاً واحداً لا أدري لماذا تُركَ المسكينُ عُرياناً، لا أثرَ للنَّقشِ ولا للكتابةِ فيه!

فهـناكَ المُهلكُ، والمُبيدُ، والبظُّ، وورنيشُ العُمدة، وطَربوشُ النَّسرِ... الخ. ومنَ العَجيبِ أنَّها كلَّها مَكتوبةٌ بالحبرِ الأسودِ وبأردأ الخُطوطِ، حتَّى يُخيَّلَ إليكَ أنَّها مَنضوحةٌ بوعاءِ الحِبرِ نَضحاً لم تجرِ بها أناملُ، أستَغفرُ اللهَ، بل أكفُّ الكاتبينَ!

وطـالَ الزَّمنُ على هذا ثمَّ طالَ. وأخيراً يَظهرُ أنَّ القائمينَ على شأنِ هذا المَعهدِ الحُكوميِّ قد عزَّ عليهم أن يَبقى ذلكَ المُربَّعُ فذّاً بينَ سَائرِ المُربَّعاتِ، فاستَخارُوا اللهَ وكَتَبُوا فيه: «ممنوعٌ لَصقُ الإعلاناتِ».

ولقد زَعَمتُ لكَ أنَّ مصرَ قد بَرعَتْ أمريكا، فَضلاً عن أوربا، في فنِّ الإعلانِ، واستَنظرتُكَ الدَّليلَ. فهاكَه الآنَ.

لعلَّكَ تَعرفُ، ولعلَّكَ لا تَعرفُ أنَّ الأطبَّاءَ لا يُعلنُونَ عن شأنهِم بأيَّةِ وَسيلةٍ من الوَسـائلِ في بعضِ البلادِ الأوربيَّةِ، ولا شَكَّ في أنَّ هذا من الجَهلِ بفنِّ الإعلانِ النَّاشئِ عـن الجَهـلِ بفوائدِ الإعلانِ، فإذا أحلْتَ الأمرَ على أنَّ القانونَ في تلكَ البلادِ يَحظرُ الإعلانَ على الأطبَّاءِ، فما كانَ عَسيراً عليهم، لو أرادوا، السَّعيُ إلى إلغاءِ هذا القَانونِ، ليفيدوا، ما شاءَ اللهُ، من طَيِّباتِ الإعلانِ.

أمَّـا عندَنا ففوقَ إعلاناتِ الأطبَّاءِ والمُحامينَ في الصُّحفِ السَّائرةِ وغيرِ السَّائرةِ، فلقد تَرى «اليافطةَ» الطَّويلةَ العَريضةَ مَرفوعةً على سيارَتينِ تُطاوِلانِ السَّحابَ، وهذه علـى جانِـبِ الشَّارِعِ الرَّئيسيِّ، ثمَّ أخرَى على مَدخلِ الشَّارِعِ الفَرعيِّ، ثمَّ ثالثةً على نَاصيةِ المُنعطفِ، ثمَّ رابعةً على صُدْغِ العمارةِ، وكُلَّما انعطفَ بكَ السُّلَّمُ رَفعتَ لبَصرِكَ «يافطـةً»، وهكـذا حتَّـى تَبلُغَ بابَ العِيادةِ أو المَكتبِ، فإذا هو مُرصَّعٌ بجَمهرةٍ من «اليافطات» المُختلفةِ الأشكالِ والخُطوطِ والأحجامِ.

ولا يَبعدُ أن يتقدَّمَ فنُّ الإعلانِ في بِلادِنا حتَّى يخترعَ شُبَّاكاً سِحريَّةً تَصطادُ الزَّبائنَ، وتَسحبُهم في لُطفٍ ودَعَةٍ، حتَّى تَصلَ بهم إلى العِيادةِ أو المَكتبِ في أمانٍ، ما شاءَ اللهُ كان!

وأبـــدعُ من هذا وأبرعُ، أن يُعلنَ الطّبيبُ أنّه إذا لم يَكشِفَ منَ المرضِ في ٤٨ ساعة فقط، فإنّه يردُّ إلى العَليلِ ما دَفعَ من النُّقود.

أرأيـــتَ مَـــثلاً أبلـــغَ من ذلكَ في الكفايةِ، والثّقةِ بالنّفسِ، والتّمكُّنِ من الفَنِّ، والقُـــدرةِ المُـــستيقنةِ على شِفاءِ العِلَلِ، مَهما تَعاصَتْ في ٤٨ ساعة لا تَزيدُ ولو دَقيقةً واحدةً من الزّمان؟

ولـــولا فَضلُ الإعلانِ ما تَسنّى للذينَ ضَرَبتهم العِللُ، وقَسَتْ عليهم الأسقامُ، وألحّـــتْ الأوجاعُ والآلامُ، أن يَبرؤُوا عن عِلَلِهم، ويَتخلّصُوا من آلامِهم وأوجاعِهم في مِثلِ هذا الزّمنِ اليَسيرِ، والشِّفاءُ مَكفولٌ، وإلا فالمالُ مَردودٌ، ومُوفًى غيرُ مَنقوصٍ.

ومـــن الآيـــاتِ الّتي تَشهدُ لمصرَ بالبَراعةِ والفَوقانِ، في فَنِّ الإعلانِ، أنّكَ تَرى صَـــاحبَ مَصنعِ الأثاثِ مَثلاً، يَجلو صُورتَه هو بَدلَ أن يَجلوَ عليكَ صُورَ كُرسيٍّ، أو سَـــريرٍ، أو ثرّيّا، أو صُندوقٍ، أو مَنْضَد «ترابيزة»، فإنّ الإنسانَ، من غيرِ شَكٍّ، أكرمُ وأشـــرفُ من كلّ ما على وَجهِ الأرضِ من صُنعِ الإنسان. ثمّ إنه، من غيرِ شَكٍّ أيضاً، أحـــسنُ خَلقـــاً وأجملُ شَكلاً من كلّ ما أخرجَتْ مَصانعُ الشّرقِ والغَربِ، من فاخرِ الـــسُّرُرِ والكَراســـي والصّناديقِ والثُّريّاتِ والأنضادِ. أليسَ قد قالَ اللهُ تَعالى في كِتابِهِ الكَريمِ: ﴿لَقَد خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِيْ أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ﴾ صدقَ اللهِ العظيم.

أمّـــا التّبريزُ في العَبقريّاتِ، وإصابةُ غايةِ الغَاياتِ، ففي التفاتِ صاحبِ المَطعمِ عن أنْ يُصوِّرَ في إعلانِه عن طَعامِه حَمَلاً مَشويّاً، أو أرنَباً بَرّيّاً، أو ديكاً رُوميّاً، أو سَمكاً طَريّاً، أو «طاجناً» فرنيّاً، أو ثَمراً جَنيّاً، أو كامخاً شَهيّاً، أو نَحوَ ذلكَ ممّا يَزعمونَ أنّه يَبعثُ الشّهوةَ إلى الطّعـــامِ، ويُحفّـــزَ المَعدةَ للازدرادِ والالتقامِ. بل تَراهُ يَلتفتُ في إعلانِه عن هذا الكَلامِ الفَارغِ، ويُصوِّرُ شَخصَه هو وعلى ثَغرِهِ ابتسامةٌ أحلَى وأشهَى من كلّ ما أنضَجتِ الأفرانُ من حَلوَى وسَمكٍ ولَحمان، ومِن كلّ ما حَمَلتِ الأغصانُ من فاكهةٍ ونَخلٍ ورُمّانٍ!

أصدَّقتَ، بعدَ هذا، أنّنا قد بَذَذنا الأمريكان في فنِّ الإعلانِ.

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات